IBRAHIM AL-KONI

رواية
NOVEL

إبراهيم الكوني

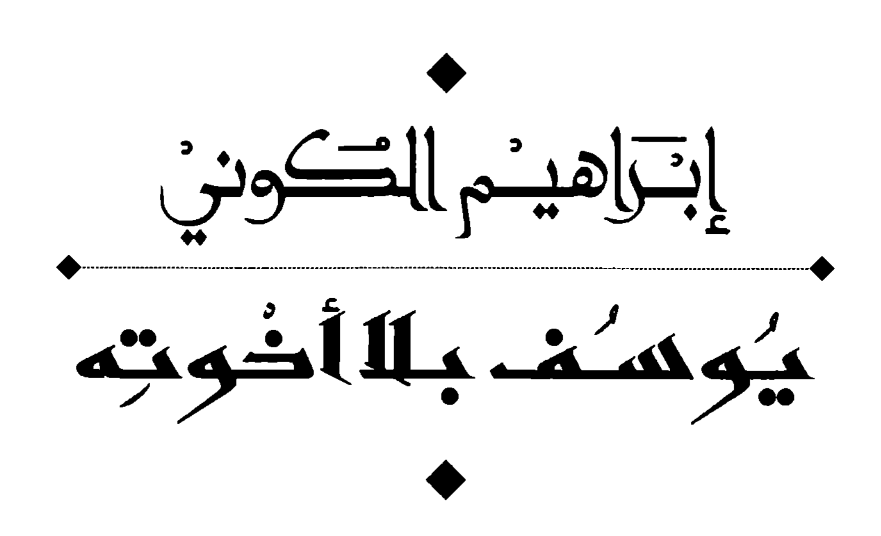
يوسف بلا أخوته








رواية
NOVEL


إبراهيم الكوني
يوسف بلا أخوته



يُوسُف بلا أخوتِه

يوسف بلا أخوته / رواية عربيّة
إبراهيم الكوني / مؤلّف من ليبيا
الطبعة الأولى ، 2008



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®

لوحة الغلاف : **لفنّاني ما قبل التاريخ / منطقة تسافيلي**
الصفّ الضوئيّ : **رشاد برس / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **رشاد برس / بيروت ، لبنان**

ISBN 978-9953-36-258-0

«الحياة سيرةٌ،
مرويّة بلسان مخبول،
ملآنة بالصخب والعنف،
وهي، في النهاية، لا تعني شيئاً!».

شكسبير
«ماكبث»
(5، 5)

* * *

«ولمّا نظر يوسف إخوته عرفهم، فتنكّر لهم».

التكوين
(7:42)

القسم الأوّل

1

بحر ليبيا. يونيو 1795م.

على متن السفينة التي أقلّته إلى درنة استعاد أحمد بك خطاب سيدي يوسف القاضي بتوليته أمر الناحية. غاب في تفاصيل الخطاب حتّى أعمته غيبته عن الغيم الذي زحف على اليمّ مدفوعاً برياحٍ شرقية عاتية لم يعهدها أهل البحر في ذلك الفصل المسالم من العام. كان ينتصب في مواجهة النافذة طوال الوقت، يرنو إلى الموج وهو يتمخّض ويتوثّب، دون أن تفارق بسمة السخرية شفتيه. تذكّر اليوم المشئوم الذي وجد فيه نفسه مغلولاً بلقب «البك» عقب مصرع حسن بك بأيّام ليذهب عقب مراسم التتويج ليدفن مرثيّته لنفسه في أحضان للاّ حسنيّة. وها هو حدس ذلك اليوم يصدق في أقبح احتمالاته، كما تتحقّق كل نبوءة حقيقية. ها هو يقف في عرض البحر محروماً من عرش، طريداً من وطن، أعزلاً من سلاح، مهجوراً من أعوان، خاوياً من وفاض، مغترباً عن أهل، عليلاً بتبكيت الضمير، مجرّداً حتّى من لقب الأمير.

بلى، بلى. ها هي الأقدار تبخل عليه اليوم حتّى بلقب «البك» وهو الذي انتظر بالأمس القريب أن يتلقّى من الباب العالي لقباً أعظم شأناً وهو «الباشا»! فأي رسالة يخفيها هذا الدرس الخبيث يا

ترى؟ أم إن ما حدث ما هو إلاّ القصاص المستحقّ جزاء خيانة الضمير؟ فإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تقتصّ الأقدار كما يجب أن تقتصّ من تلك الفئة التي تقدم على إماتة الضمير في نفسها فتمرح في الدنيا وترتكب في ساحتها الكبائر دون أن تعرف قصاصاً؟ ألن يعني هذا أن خيانة الضمير جرم أشرّ في عرف القدر من إماتة الضمير؟ سيدي يوسف لم يَخُن ضميراً، لأنه لم يكن لسيدي يوسف أن يخون سرّاً لم يمتلكه. لم يكن له أن يكون لغزاً لم يمتلكه في أيّ يوم. ولهذا السبب لم يحدث أن نال سيدي يوسف على أفعاله قصاصاً. لم ينل قصاصاً حتّى على اغتيال شقيقه حسن بك في حضن الأمّ. كما لم يحدث أن نال قصاصاً على كلّ جرائمه الباقية. أمّا هو فقد تنزّلت على رأسه البلايا منذ اليوم الذي أدرك فيه أنه يمتلك ضميراً. منذ اليوم الذي استشعر فيه الندم لأنه خان ضميراً. فهل يعني هذا أن الله لا يبالي بجرائم الأشرار لأنه غسل يديه منهم ولم يعد يهمه من أمرهم شيئاً، في حين يتولّى أمر الأخيار باستنزال صنوف القصاص ليردعهم مستخدماً تلقين الدروس لا لشيء إلاّ لأنهم أخياره ولأنهم مريدوه؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن لصاحب عقل أن يفهم هذا الضرب من العدالة، فكيف بارتضاء هذا الجنس من العدالة؟

في الخارج تحوّلت الريح الشرقية إلى عاصفة. تعالى الموج في أفواج عنيدة فترنّح السفين يمنةً ويسرةً، ولكن سيدي أحمد لم يرَ الموج، ولم يستشعر رقص المطيّة، ولم يعترف بهبوب العاصفة الشرقية. مضى ينتصب في وجه النافذة متمايلاً يميناً ويساراً دون أن

يصحو من غيبته. سحب نفساً عميقاً قبل أن يستدير خارجاً. مشى عبر الممر غائباً أيضاً. مشى طويلاً قبل أن يرتطم بأحد البحّارة. تمتم البحّار بعبارات الاعتذار وهو ينحني أمامه بإكبار. همّ بالمضي، ولكن الرجل استوقفه بعبارة:

ـ أخشى يا سيّدي أننا لن نبلغ درنه أبداً، إذا استمرّت العاصفة ساعة أخرى!

تأمّله لحظة قبل أن يغمغم في وجهه:

ـ ليتنا لن نبلغ درنة إلى الأبد!

حدجه الرجل بدهشة فأضاف:

ـ الأجمل من نيل درنة هو نيل قارورة!

استفهم الرجل:

ـ ماذا؟

مال نحو الرجل حتّى كاد يلامس أذنيه بشفتيه قبل أن يهمس:

ـ أريد أن تنجدني بقارورة نسيان!

حدّق الرجل في وجهه باستغراب. استفهم همساً أيضاً كأنّ الهمس تحوّل عدوى:

ـ قارورة نسيان؟

ابتسم سيدي أحمد لأوّل مرّة. قال:

ـ قارورة من ذلك الصنف الذي يتعاطاه النصارى عندما تعصف الرياح بسفنهم!

ابتسم الرجل أيضاً، قال:

ـ فهمت. ولكن النصارى يا سيدي تتعاطى هذه القوارير حتّى لو لم تعصف الرياح بسفنهم. هيء ـ هيء ـ هيء..

ابتلع ضحكته فجأة ليضيف:

ـ سأعمل كل ما بوسعي للحصول لسيّدي على قارورة ردّاً للدَّيْن!

استعجب سيدي أحمد:

ـ عن أي دَيْن تتحدّث؟!

غزا الحزن سيماء الرجل. طأطأ لحظة. قال:

ـ مولاي لا يعلم...

قاطعه سيدي أحمد:

ـ أحمد الله أنّي لم أعد مولى لأحد بعد اليوم!

في عين الرجل فزّت دمعة كأنها ومضة ضوء. قال دون أن يشيّع عينيه إلى أعلى:

ـ لقد كنتَ علينا المولى الذي لم يكنه أحد قبلك وسوف لن يكونه أحد بعدك، ولكن خوفي من الجواسيس هو الذي منعني من مخاطبة مولاي باللقب الذي اشتراه بأفعاله قبل أن يرثه عن أسلافه!

صفعت السفينة موجة جنونيّة جديدة فترنّح المركب بعنف. انزلق سيدي أحمد جانباً ثم ارتدّ إلى الأمام. انتظر حتى اعتدل الرجل في وقفته ثم سأل:

ـ كنت تتحدّث عن ديْن مزعوم..

رفع الرجل بصره نحوه لأوّل مرّة. قال بلهجة كالاستحياء:

ـ مولاي أنقذني مرّة من سياط سيدي يوسف!

ـ من سياط سيدي يوسف؟

ـ أعني من سياط رجال سيدي يوسف!

ـ فهمت.

طأطأ الرجل مرّة أخرى. قال سيدي أحمد:

ـ لا يجب أن ترى في إنقاذي لك من سياط رجال سيدي يوسف دَيْناً في رقبتك بل إنقاذي لك هو الدّيْن!

انحنى الرجل مرّة أخرى. تمتم:

ـ البليّة لم تتنزّل على رأس مولاي بخروجه من السراي اليوم، ولكنّها نالت مملكتنا الشقيّة المنذورة للبلايا دون أن يعرف أحد الجناية التي اقترفناها حتّى نستحقّ العذاب وراء العذاب!

قال سيدي أحمد:

ـ يقال إن الجنايات التي يقترفها الأسلاف يدفع ثمنها الأخلاف!

مسح الرجل دمعاً سال على وجنتيه. تطلّع إلى النافذة المغمورة بالمياه ليداري شجونه. قال كأنه يخاطب البحر الهائج من وراء الزجاج:

ـ كل يوم أزداد يقيناً بصحّة هذا القول!

ركع مرّة أخرى. قال:

ـ فليأذن لي مولاي بالذهاب في طلب القارورة!

في تلك الليلة عاقر سيدي أحمد خمراً لأوّل مرّة. وعندما صحا من غيبوبته في اليوم التالي أخبره الربّان بأن السفينة لم تبلغ شطآن درنة، ولكن الرياح الشرقية قذفت بها على شطوط جزيرة مالطا.

2

طاف صاحب المكوس الأحياء بالمدينة ممتطياً صهوة جوادٍ غربيب اللون، بائس الجرم، برزت عظام بدنه بروزاً موجعاً، كما انطفأ الوميض من مقلتيه. بجوار هذا الشّبح المزري سار أحد الأجناد معتمراً طربوشاً رسمياً، منتكباً بندقية. عبرا في مسيرهما عدداً من الأزقّة الخالية من المارّة، ومن الدواب، وحتّى من الذباب، كأنها مدينة مهجورة، فقال صاحب البندقية:

ـ لقد اكتشفت في هذه الأيام أن الفقر أيضاً له فضيلة!

لم يستجب صاحب المكوس فأضاف صاحب البندقية:

ـ خلوّ الأزقّة من أسراب الذباب فضيلة الفقر!

أعقب العبارة بضحكة خبيثة فقال صاحب المكوس:

ـ خلوّ المدينة من الذباب فضيلة الفقر حقّاً، ولكن خلوّ الخزينة من المكوس رذيلة الفقر أيضاً!

أفضى الدرب إلى ساحة مهجورة أيضاً. ولكن الجواد الغربيب عبر الساحة بكسل نحو الناحية الأخرى كأنه يهيم على وجهه طليقاً بعد أن أجهدته خيبة المسعى. قال صاحب البندقية:

ـ تولّي أمر المكوس في مثل هذه الأيام انقلب قصاصاً بعد أن كان شرفاً!

قال صاحب المكوس:

ـ صدقت. لو كان شرفاً كما كان يوماً لما تجاسر عبد العبيد الذي نازعنا منذ قليل فيبصق في وجهي!

ـ بصق في وجهك لأنه لا يملك ما يفقد!

تأوّه صاحب المكوس بوجع. قال:

ـ لم أصدّق يوماً أن الفقر يستطيع أن يخلق من أجبن الجبناء أبطالاً!

وافقه صاحب البندقية:

ـ بلى. الفقر أكبر خطر على الممالك!

توجّع صاحب المكوس مرّة أخرى. قال:

ـ يحدث كل هذا بفعل مسخ اسمه علي برغل!

ساد صمت تنتهكه حوافر الجواد في ارتطامها بحجارة الدرب. قال صاحب البندقية:

ـ يُروى أن اسمه الحقيقي هو علي بن زور وليس علي بن زول كما ظنّنا يوماً.

ـ ولكن ما نفع الحقيقة التي تأتي دائماً بعد فوات الأوان؟

جادله صاحب البندقية:

ـ لا أظن أن الحقيقة تستطيع أن تنجينا من قدرنا حتى لو جاءت في أوانها!

سكت صاحب المكوس زمناً. قال أخيراً:

ـ هل تدري أن الفقر الذي نلعنه صباح مساء يمكن أن ينتحل دور الرسول؟

ـ رسول؟

سكت صاحب المكوس لحظات قبل أن يقول:

ـ رسول حريّة! الفقر رسول حريّة!

غالب صاحب البندقية ضحكته الخبيثة فأضاف صاحب المكوس:

ـ لو لم يكن الفقر رسول حرية لما تجاسر عبد العبيد اليوم بالبصق في وجهي!

قال صاحب البندقية:

ـ أرى أن البصقة آلمتك كثيراً.

ـ كيف لا تؤلمني بصقة عبد العبيد؟

حاججه صاحب البندقية:

ـ ولكنّك برغم ذلك لم تشبعه ضرباً، كما لم تجرجره إلى الحبوس مكبّلاً بالسلاسل كما اعتدتَ أن تفعل في مثل هذه الأحوال!

ـ هل تدري لماذا لم أفعل؟

سكت ثم أضاف:

ـ لأنّي أدري أنه على حقّ!

استنكر صاحب البندقية:

ـ على حقّ؟

ـ من لا يملك ما يفقد دائماً على حقّ!

ـ ألهذا السبب تخشى الممالك المجاعات خشيتها من الطاعون؟

أجاب صاحب المكوس بإعياء كأنه اللامبالاة:

ـ بل يجب أن تخشى المماليك الجوع أكثر مما تخشى الطاعون، لأن الطاعون هلاك، أمّا الجوع فحريّة!

أفضى الدرب إلى باب هوّارة. عبر الجواد الكئيب البوابة. سار في الطريق المترب المؤدّي إلى حقول المنشية. بجوار الجواد سار صاحب البندقية. في الفضاء ارتفعت شمس تتوعّد النهار بالنّار. بين قامات النخيل بدأت سحب الرطوبة التي أفرزتها المياه في الليل تنقشع وتتبدّد. قال صاحب المكوس:

ـ الأسوأ من بصقة عبد العبيد عبارة شيبة السوء!

استفهم صاحب البندقية:

ـ شيبة السوء؟!

ـ هل نسيت وقاحة العجوز في رحلة أوّل أمس؟

ـ وهل أستطيع أن أتذكّر وقاحة عجوز في رحلات كلّها خيبات ووقاحات؟

توجّع صاحب المكوس بأنين قبل أن يقول:

ـ لقد قال العجوز: «سأكون لسيدي شاكراً لو ساقني إلى حظيرة الباشا عبداً!».

هأهأ صاحب البندقية بضحكة فأضاف صاحب المكوس:

ـ قبلها طعنني بنصل آخر عندما هدّدته بمصادرة بيته وبيعه في مزاد السوق فقال بالحرف: «تستطيع أن تصادر البيت إذا وجدتَ من يشتريه!».

قال صاحب البندقية:

ـ العجوز لم يخطىء!

ـ لم يخطىء؟

ـ البيوت لا تعود بيوتاً، ولكنها تنقلب أكوام حجارة عندما لا تجد من يسكنها!

ـ يحدث هذا كله بسبب الفقر.

وافقه صاحب البندقية:

ـ اللعنة على الفقر الذي يأتي إلى الناس بالحرية!

ـ أنت لا تدري أنّنا مهدّدون بفقد قوتنا!

استنكر صاحب البندقية:

ـ مهدّدون بفقد قوتنا؟

ـ ما حاجة وليّ الأمر بأهل المكوس إذا انقطعت من الدنيا المكوس؟

توقّف صاحب البندقية فجأة. هرش صدغه بفوهة البندقية المنتصبة على منكبه قبل أن يردّد كأنه يخاطب نفسه:

ـ كيف يفقدنا وليّ الأمر قوتنا إذا كنّا نحن قوته؟

ولكن صاحب المكوس مضى يترنّح فوق دابّته باسترخاء قبل أن يقول:

ـ لقد اقتات أولياء نعمتنا من قوت الرعيّة دائماً، ولكنّهم اليوم لا يستطيعون أن يقتاتوا من قوت الرعية بعد أن فقدت الرعية القوت بسبب جشع المدعو علي بن زول أو علي بن زور كما يروق لك أن تسمّيه!

تخلّف صاحب البندقية عن الركب. ولكنه ما لبث أن أدرك الجواد الكسول لاهثاً. قال بلهجة لم تخلُ من لهفة:

- لقد تذكرت! يحسن بنا أن نلجأ إلى ديار الشيخ الزنتوتي في أطراف المنشية المؤدية إلى طريق تاجوراء. قيل لي إنه يخفي ثروة من الحبوب في مطامير تحت الأرض!

ابتسم صاحب المكوس باستخفاف وهو يرنو إلى الأفق البعيد. قال:

- وعدتني مراراً بمثل هذه الكنوز التي يخفيها أصحابها تحت الأرض، ولكنها تتبخّر في كل مرّة حاولنا فيها استخراجها!

حاجج صاحب البندقية بحماس:

- ولكن كنوز الشيخ الزنتوتي ليست خرافة، صدّقني! دع الأمر لي وسأعرف كيف أنتزع الاعتراف من فم الوغد!

حدجه صاحب المكوس بنظرة سخرية. قال بلا مبالاة اليائس:

- هل تنوي أن تستخدم البندقية في انتزاع الاعتراف هذه المرّة؟

تراكض صاحب البندقية حول الجواد. أمسك بالزمام أيضاً فأبصر صاحب المكوس في عينيه الجنون. لفظ زبداً وهو يقول:

- لن أستخدم البندقية فحسب هذه المرّة، بل سأستخدم ما هو أسوأ من البندقية!

سأل صاحب المكوس بلهجة فضول ممزوجة بالاستخفاف:

- وهل في هذا البرّ سلاح أسوأ من البندقية؟

صاح صاحب البندقية:

ـ بلى. في هذا البرّ سلاح أقوى مفعولاً من البندقية. أنت لا تعرف أن الشيخ الزنتوتي يمتلك كنزاً آخر أعظم شأناً من كنوزه المخفية. يمتلك الكنز الذي لا يستطيع أن يخفيه لحسن الحظّ!

لمع في عين صاحب المكوس بريق أمل. سأل:

ـ هل تستطيع أن تخبرني عن اسم هذا الكنز الذي لا يستطيع الشيخ الزنتوتي أن يخفيه؟

اعترض صاحب البندقية الجواد بكلتا يديه. مدّ ذراعيه نحو صاحب المكوس كأنه ينوي أن يستنزله أرضاً. قال وقد تحوّل كلّه إلى لهفة، بل إلى جنون:

ـ للشيخ الزيتوني إبنة. ليست تلك إبنة، ولكنها آية. آية من آيات الحسن. لقد لمحتها مرّة في أحد الأعراس فصعقتني!

تطلّع إليه صاحب المكوس بفضول. سأل:

ـ وماذا تريدنا أن نفعل بآية الحسن هذه؟ هل تنوي أن تختطفها لمقايضتها بقفيز قمح أو شعير؟!

أعقب العبارة بضحكة تهكّم، ولكنه فوجىء برفيقه يهجم عليه بأنفاس كفحيح الحيّة:

ـ بل سنفعل بها ما يجب أن يفعله الرجل بالحسناء، سوف أضع فوهة البندقية في فم الوغد لتقوم أنت بنيلها أمام عينيه!

حدّق صاحب المكوس في الرجل بذهول. سأل باستنكار:

ـ هل فقدتَ صوابك؟ أم أنّك نسيت أن عملنا لم يخوّلنا اغتصاب النساء يوماً؟

قفز صاحب البندقية إلى ناحية الجواد الأخرى وقد تمكّن منه المسّ. برطم وهو يلفظ زبداً كجمل هائج:

ـ لم يخوّل لنا عملنا اغتصاب النساء في الماضي لأننا كنّا نملك عملاً. نملك قوتاً. أمّا اليوم فكل شيء مباح بما في ذلك نيْل النساء لأن الخلل قد حدث، وها هو الحرمان من العمل سيف مسلّط على رقبتينا!

أمسك بزمام الجواد فجرّه إلى الأمام بعنف. أمام الجواد انطلق صاحب المسّ بخطوات كالهرجلة!

3

السراي الحمراء. يوليو 1795م.

في الرواق المؤدّي إلى البلاط كاد سيدي الدغيّس أن يرتطم بسيدي منصور شيخ المدينة. كان شاحباً، مبلبلاً، زائغ البصر إلى حدّ تبدّت فيه مقلته اليمنى حولاء. حدّق في وجه سيدي الدغيّس ببلاهة كأنّه لم يعرفه يوماً، ثمّ هزّ رأسه بأسى قبل أن يمضي كأنه يلوذ بالفرار.

تابعه سيدي الدغيّس بدهشة حتى حجبته أعمدة الرواق، ثم استدار ليخطو نحو البلاط. عند الباب وقف العسس. بالجوار تسكّع الحاجب عاقداً يديه وراء ظهره. ولكنه حرّر يديه ليحييه بانحناءة قائلاً:

ـ مولانا في الانتظار يا سيدي.

في الداخل تربّع يوسف باشا على العرش، في حين جلس سيدي مليطان في مواجهته على الأريكة. كان شاحباً أيضاً، يطأطىء أرضاً، يتشبّث بمنديل ناصع منمنم الأطراف بزخارف غامضة مطبوعة بخيوط حمراء اللون. مسح عرقاً غزا صدغيه مرّتين قبل أن يحييه بإيماءة تستجدي النجدة في اللحظة التي زأر فيها الباشا:

ـ هل سمعت يا دغيّس؟ لسان حال مليطان يرى أن نبيع بناتنا في أسواق النصارى كي نطعم أبناءنا!

غمغم سيدي مليطان باحتجاج مبهم قبل أن يلتجىء إلى منديله المنمنم فيتشبّث به بكلتا يديه كأنه ينوي أن يمزّقه، فأضاف الباشا:

ـ هذا ما يقوله لسان حال مليطان. أمّا ما يقوله لسان حالي فهو كما يلي: «إذا أعجزكم أن تطعموا الطرابلسيين في عهد يوسف باشا فليس عليكم أن تبيعوا بناتكم في أسواق النصارى قبل أن تبيعوا مؤخراتكم!».

أعقب بذاءته بضحكة حاقدة فرأى الدغيّس في ضحكته أنسب فرصة لكي يتدخل:

ـ مهلاً، مولاي، مهلاً!

ولكن الباشا لم يمهله:

ـ لماذا تريدني، يا دغيّس، أن أتمهّل؟ هل تريد أن تطعمني وعوداً كما أطعمني شيخ المدينة منذ قليل، أم تريد أن تطعمني عاراً كما يقترح مليطان؟

هَمَّ سيدي الدغيّس أن يتكلّم، ولكن الباشا استوقفه:

ـ يدهشني أن تخوضوا معي حروباً عصيبة ضد سيدي حسن، ثم ضدّ سيدي أحمد، ثم ضد عصابات الباشا الأب، ثم ضد زبانية القرصان برغل، دون أن أجد نفسي في ورطة كالورطة التي أعجزكم أن تنقذوا منها المملكة اليوم. هل تريدون أن تبرهنوا لي بمسلككم هذا صدق الخرافة القائلة بأن الأعسر من نيل الحرية هو الاحتفاظ بهذه الحريّة؟

سكت الباشا لاهثاً. انتهز الدّغيّس الفرصة مرّة أخرى فتوسّل الباشا ببصره أوّلاً، ثم احتكم إلى اللسان:

ـ هل يسمح مولانا؟

لوّح الباشا بيده سخطاً، ولكن سيدي الدغيّس الذي عرف الباشا طويلاً لم ييأس:

ـ لقد عشنا في بحبوحة زمن الحروب حقّاً، ولكن مولانا يعلم أن سرّ تلك البحبوحة لم يكمن في الرخاء، ولكن في وجود الدولة!

استنكر الباشا:

ـ في وجود الدولة؟

التفت إلى سيدي مليطان ليتساءل باستخفاف:

ـ ما معنى هذه الأحجية؟

الدغيّس لم ييأس:

ـ يستطيع الإنسان أن يبيح لنفسه كل شيء، يا مولاي، ما ظلّ يستظلّ بمظلّة الدولة. ولكن الإنسان لا يملك إلاّ أن يهيم على وجهه في الخلاء إذا فقد هذه المظلّة!

التقط أنفاساً قبل أن يندفع في سرد حجّته بإيقاع أسرع كأنه يخشى أن يفسد عليه الباشا روايته باستنكارٍ أو تسفيهٍ أو اعتراض:

ـ يجب أن نعترف أننا أسهمنا في تقويض أركان هذه المظلّة بخوضنا لتلك الحروب قبل أن يأتي المدعو برغل على بقية الأركان ليحوّل المملكة إلى أنقاض. بلى يا مولانا! ما نفعله اليوم ليس إعادة بناء كيان المملكة وحسب، ولكنّنا نسعى لاستعادة السرّ الذي يجعل من المملكة مظلّة تأمن الرعيّة من خوف قبل أن تشبع الجوعى من جوع!

صرخ الباشا:

ـ لو صدق ما تقول لما تجرّأ الرعاع ليبصقوا في وجوه جند المكوس وهم يعلمون أنهم رسلي!

سيدي الدغيّس لم ييأس:

ـ مهلاً، مولاي، مهلاً! لم يكذب النصارى عندما قالوا في وصاياهم: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان!».

قاطعه الباشا:

ـ يستطيع النصارى أن يقولوا ذلك في وصاياهم لأن الأقدار لم تضطرّ ملكاً من ملوكهم كي يتسوّل من قناصل الأغراب أثاث قصره، والمرايا التي يرى فيها وجهه، والسرير الذي ينام عليه، وحتّى العرش الذي يجلس عليه بعد أن كانت بلاده تنثر هباء الجوهر على الأطعمة علامة الرخاء!

ابتسم الدغيّس بغموض. قال:

ـ ليس الرخاء يا مولاي هو الذي نثر هباء الجوهر في أطعمة الأضياف، وربّما غير الأضياف، ولكن السرّ الذي لا يعلمه إلاّ الله والذي ننوي أن نستعيده إلى هذه البلاد هو الذي نثر على الموائد هباء الجوهر، وهو الذي نشر في هذه البلاء الرخاء يوماً.

سخر الباشا:

ـ تتحدّث عن سرّ الدولة المزعوم كأنه طريدة يجب اقتناصها بفوهة بندقية!

هلّل الدغيّس:

ـ بلى، يا مولاي، بلى. سرّ الدولة طريدة، ولكنه طريدة من جنس فريد يا مولاي. ولا أظنّ أني سأخطىء لو أطلقت على هذه الطريدة إسم «الروح»!

أطلق الباشا ضحكة عصبية. تمتم بلهجة تنذر بثورة جديدة:

ـ أنت تضيّع وقتي!

ولكن الدغيّس لم ييأس ليقينه بأن الإنسان الذي أخفى حكمةً في عبّه إنما أخفى كنزاً في جعبته:

ـ لقد تحدّث مولاي منذ قليل عن قناصل الأغراب الذين تكرّموا يوماً فقدّموا لنا العون في إعادة تأثيث القصر. لقد تحدّثت إلى هؤلاء القناصل يا مولاي، وطرحت عليهم إمكانية مخاطبة دولهم لدفع الإتاوات المستحقّة سلفاً!

لاح الاهتمام في سيماء الباشا. سأل دون أن يحاول أن يخفي اللهفة في لهجته:

ـ تدفع دولهم الإتاوات سلفاً؟

ابتسم الدغيّس. حدج سيدي مليطان بنظرة قبل أن يجيب:

ـ بلى يا مولاي.

ـ وهل أبدى القناصل استعداداً لإبلاغ حكوماتهم؟

استمرّ الدغيّس يبتسم بغموض. أجاب:

ـ وهل أجرؤ على المثول بين يدي مولاي بيدين خاويتين؟

فزّ الباشا واقفاً. تخلّى عن عرشه فجأة. تسكّع ذهاباً وإياباً. في سيمائه تألّق فرح طفولي. غمغم كأنه يخاطب نفسه:

ـ هل سمعت يا مليطان؟ إذا كان ما يقوله الدغيّس صحيحاً فالأمل كبير في أن تنقذ هيبة الدولة مؤخراتنا من الدّنس! ها ـ ها ـ ها..

كتم ضحكته ليضيف:

ـ أليس مفارقة أن تنقذ هيبة مزعومة لدولة لا وجود لها الرعايا من الجوع؟

تدخّل الدغيّس:

ـ هذا ناموس الدول الذي سنّته الأجيال يا مولانا. هيبة الدولة تستمر حتّى بعد زوال الدولة، لأن قداستها مستعارة من روح الأسلاف يا مولانا. والدليل أننا نرى في الأسد أسداً حتّى إذا كان هرماً، بل إننا نرى في الأسد أسداً حتّى لو كان ميّتاً فلا نجرؤ على الاقتراب منه لأن من أين لنا باليقين الذي يؤكّد لنا أنه ميّت حقّاً؟

ضحك الباشا عالياً. ثم صفّق بيديه ابتهاجاً قبل أن يقول:

ـ هذه أمثولة. حكاية الأسد هذه تصلح أمثولة للتعبير عن وضعنا يا دغيّس! بلى، بلى. نحن اليوم جثّة هامدة. المملكة الطرابلسية جثّة أسد حقّاً. ولكن النكتة أن أمم النصارى تجهل أن مملكة القرمانليين جثّة. ها ـ ها ـ ها..

توقّف فجأة. استدار. مشى نحو الدغيس مهموماً. سأل:

ـ هل أنت على يقين أن أمم النصارى وافقت على دفع الإتاوات سلفاً؟

ابتسم الدغيّس مرّة أخرى. حدج مليطان بنظرة ذات معنى. دسّ يده النحيلة في جيبه. استخرج من الجيب قرطاساً مطوياً بعناية. تطلّع إلى الباشا قبل أن يقرأ:

ـ أسبانيا وافقت على دفع اثني عشر ألف قرش ذهباً، كما أرسلت البندقية الأدميرال «كوندولمير» بمبلغ مائة ألف قرش كقسطين سنويين من الإتاوة، وهو في طريقه إلينا. أمّا ما وعدت به بقية الدول كالسويد وهولندا والدنمرك ونابولي وأمريكا وراغوس فيبلغ في مجموعه ما يزيد على الثلاثمائة والعشرين ألف قرش!

ساد صمت تبادل فيه الدغيس مع مليطان النظرات. أمّا الباشا فقد تساءل فجأة:

ـ ولكن ماذا عن سلطانة الأمم النصرانية فرنسا؟!

سكت الدغيس لحظات. أجاب:

ـ فرنسا وعدت بشيء آخر أراه أعظم شأناً من المال يا مولاي!

ـ وهل هناك ما هو أعظم شأناً من المال في يومنا هذا؟

ـ بلى يا مولاي. هناك الأمان!

ـ الأمان؟

ـ بلى. لقد وعدت فرنسا بأن تحقّق لنا الأمان وهي أعلم الدول بحقيقة حالنا!

ابتسم الباشا. قال:

ـ تعني أن دهاتها على علم بحقيقة البعبع أكثر من غيرهم؟

أومأ الدغيّس إيجاباً في حين تمتم الباشا:

ـ أنت على حقّ. مهادنة العدوّ اللدود وهو يعلم أنّك مجرّد دمية أيضاً هبة!

أعقب الباشا عبارته بضحكة شرّيرة. تسكّع عاقداً يديه وراء ظهره. تمتم:

ـ دهاة هؤلاء الفرنسيس!

أضاف:

ـ ولكن علينا أن نعترف بنبل موقفهم من اغتصاب العرش لدى الصدر الأعظم.

ابتسم سيدي الدغيّس. أسبل جفنيه قبل أن ينتهز الفرصة:

ـ بلى يا مولاي. لقد بلغ بهم النّبل حدّاً جعل سفيرهم في الآستانة يغلظ للصدر الأعظم في القول على نحوٍ هدّد العلاقات بين البلدين.

ـ واجب الاعتراف بالإحسان يحتّم أن نوجّه لسعادته رسالة امتنان بدل أن نستجدي من بلده العون! ما اسم سفيرهم هناك؟ هل هو فرديناند؟

هرع الدغيّس لنجدة الباشا:

- بل فيرنيناك يا مولاي! إنه المسيو فيرنيناك!

أعلن الباشا:

- عجّل له برسالة امتنان منّي جزاء صنيعه. رسالة الامتنان أمانة في عنقك يا دغيّس!

تمتم الدغيّس وهو ينحني أمام الباشا إكباراً:

- يتمثّل مولاي بمواقف أسلافه العظماء عندما لا تنسيه المحنة تأدية الواجب!

4

حقول المنشية. اغسطس 1796م.

اللّقب الذي خلعوه عليه أخيراً راق له. راق له لأنه حصّنه من الفضوليين. لم يعد السابلة يحاصرونه بنظراتهم، أو يترصّدونه في حركاته وسكناته، أو يطوّقونه بأبدانهم. صاروا يكتفون بمخاطبة أنفسهم: «إنه والد الباشا!». جرّدوه حتّى من لقب الباشا ليخلعوه على الإبن حتى قبل أن يخلعه عليه الصدر الأعظم. كأنّ لقب الباشا لم يعد في ناموسهم من حقّه، وصار من حقّ ابنه، لأن لقباً كهذا هو حكرٌ في نظرهم على أصحاب العروش وحدهم. ولكنهم ما لبثوا أن بخلوا عليه حتى بلقب «والد الباشا» في الأشهر التالية. نسيوا اللقب الجديد كما نسيوا لقبه المهيب عندما كان صاحباً للسراي ومالكاً لرقاب الرعيّة وما امتلكت يد الرعيّة. ظنّهم قرّروا أن يتجاهلوه

عمداً، ولكنه اكتشف أنهم أنكروه نسياناً. كانوا ينحنون عند لقائه إكباراً في البداية، ثم صاروا يتهامسون فيما بينهم كلّما التقوه تالياً دون أن يجودوا عليه بالتحيّة، إلى أن انتهى بهم المطاف إلى إنكاره نهائياً أخيراً. كان يبتسم بغموض كلّما صدموه بمناكبهم في الأسواق، أو كلّما ارتطموا به في الطرقات دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء الاعتذار. لم يكن يكتفي ببسمة الغموض، ولكنه كان يستشعر راحةً خفيّةً بسبب هذا النكران. لأن الحرية التي عاشها بعد أن تطهّر من خطيئة العرش هي السرّ الذي يسمّيه الناس سعادةً. بلى، يستطيع أن يحتفي بهذا الفوز في كل خطوة دون أن يكون مضطرّاً لأن يحدّث به أحداً. وهو لا ينوي أن يخفي سرّه خوفاً على الفوز من الفرار (لأنه جرّب فساد كل أمرٍ حدّث به الأغيار كأنّ الخراب قدر الإفشاء)، ولكنه يعرف أن الناس لن يصدّقوه. بل الأفضل من أن يصدّقوه هو أن يكذّبوه. لأنه جرّب في سيرته الدموية الطويلة أن الأفضل من أن يراك الناس سعيداً هو أن يراك الناس شقيّاً. لأن البلية حصن من شرّ الحسود، أمّا النعمة فمبرّر كيد!

خرج عليّ باشا من بيت المنشية بعد الظهيرة مستعيناً بعكّازه المزبور بأحافير خاوية تجسّد حيّة تلتفّ حول ساق العكّاز كانت يوماً محشوّةً بحبيبات نفيس الجوهر قبل أن تمتد لها اليد لتجرّدها من هذا الكنز عندما طاب للباشا أن يتحرّر زمن غربته في ربوع تونس. في السماء احتجبت الشمس بغيوم جنوبية مهلهلة، ولكن ريحاً شرقية هرعت لاعتراض الأنسام الصحراوية اللافحة فغزت أنفه رائحة معشوقه البحر. سار عبر الدرب الذي يخترق غابات النخيل مخترقاً

نبوت العشب التي تستجير من هجير الأصياف بأرضٍ طينيّة ما زالت تحتفظ بنصيبٍ من رطوبات الليل. كانت نوبات الرعدة تنتابه من حينٍ لآخر فيتوقّف عن المشي ليستعين على النوبة بالاستناد إلى جذوع النخيل. ينتظر حتّى يستعيد قواه فيخطو من جديد مستعيناً بعكّازه المجيد. انحرف به السبيل شرقاً، ثم ما لبث أن أدّى الدرب إلى رابية متوّجة بضريح أحد الأولياء. سار بمحاذاة الرابية غرباً، فلم يقطع مسافة أمتار حتى أفضى الدرب إلى فوهة تشقّ الرابية إلى شطرين. هناك توقّف، لأن البحر تبدّى من هذه الفوهة كأنه كنز من كنوز السماوات لا كنوز الأرض. ملأ رئتيه بالهواء المشبع برائحة الأعماق ثمّ انطلق ببطء عابراً الفوهة المؤدية إلى البحر. اعترضته حشود الصخور فانحرف غرباً مرّة أخرى. اشتدّت هجمة الريح الشرقية قليلاً فطاردت في الأعالي فلول السحب الجنوبية، لأن سليقة الرياح الطرابلسية سليقة دائرية مثلها مثل كل شيء في هذه الدنيا: تهبّ جنوباً أوّلاً فتستفزّ غزوتها طبيعة الشمال فترسل لملاقاتها جندها في ريح الشرق، فإن أخفقت في صدّ الغزوة استنجدت بالمارد البحر ليسلّط على رياح الصحراء أنفاس الشمال. تطارد رياح الشمال فلول الريح الجنوبية أياماً ثلاثة قبل أن تسلّم زمام الأمر لرياح الغرب ثم تستسلم للسكينة. تتولّى رياح الغرب زمام الأمر أمداً لا يزيد على الثلاثة أيام أيضاً، ولكنها لا تجد مارداً يصلح لاستلام زمام الأمر غير الغريم الخالد ريح الجنوب فيستيقظ هذا المارد ليتولّى إحكام القفل في سيرورة الدائرة تماماً كما يتولّى الأخلاف إحكام القفل في الدائرة التي سطّر سيرورتها الأسلاف يوماً.

خاض في وعوثة رمال الشاطىء. سار بمحاذاة الشاطىء غرباً. أدرك صخرة تجاور مرفأ الصيادين. اعتلى الصخرة وسلّم زمام أمره للبحر. تبدّدت السحب فتحرّر قرص الشمس. رسمت الريح رموزها الأبدية على الغمر الأزرق الموشّى بنياشين البياض. مضت الأنسام الشرقية، في مسعاها نحو الشمال، تدغدغ حواس المارد النائم باستفزاز بدنه الرهيب بسيوفٍ تطارد سيوفاً، بحماس لجوج، فلا تتراجع حتّى تدفع برسالتها إلى صخور الشطّ. تابع الباشا طلسمات المجهول المبثوثة بيد الريح في لدن المياه، وسمع نبض قلب المارد في رطانات الموج اللجوج.

لا يدري كم استغرقت غيبته على الشاطىء عندما أيقظته هرجة. التفت فرأى في الجوار أحد الصيادين يصطحب غلاماً. أومأ له الصيّاد بالتحيّة برأسه، ولكن الولد انهمك في معاندة شبكة الصيد فلم يعره انتباهاً. كان الصيّاد طويل القامة، نحاسيّ البشرة، نحيل البُنية، في العقد الخامس من العمر، يرتدي جبّةً صوفية، وسروالاً كئيباً يستر فخذتيه حتّى الركبتين. أمّا الغلام فيبدو أقصر قامةً من عمره، مليح السيماء، وردي البشرة، لا يشبه الأب في شيء، كأنه يريد أن يقدّم البرهان على انتصار سلالة الأمّ على سلالة الأب.

تطلّع إلى عملهما لحظات قبل أن يلحظه الصيّاد فيحاول أن يشبع فضوله:

ـ كلّما خرجت إلى البحر وحيداً عدت بأسماك لا تزيد في حجمها عن عقلة الإصبع. وكلّما اصطحبت معي الولد فزتُ من البحر بسمكة تفوق في حجمها حجم هذا الولد. صدّق أو لا تصدّق!

ابتسم الباشا. سرح في البحر لحظات قبل أن يغمغم بصوت من يخاطب نفسه:

ـ جدير بك أن تحترس!

قفز الصياد إلى الماء. تناول من جوف القارب مجدافاً. تطلّع إلى الباشا بفضول قبل أن يتساءل:

ـ لا أعرف لماذا عليّ أن أحترس!

سكت الباشا. قطع شوطاً أبعد في رحلة البحر. اقترح:

ـ لو أخذتني معك إلى البحر!

انحنى الصيّاد. غاب في جوف القارب. أطلّ برأسه من جديد. قال:

ـ القارب لا يسع عدداً يزيد عن راكبين اثنين.

سكت الباشا. تمادى الموج. نثر اليمّ في وجهه قطرات مشبعة برائحة البحر: أملاح ممزوجة بروائح الأسماك وأعشاب الأعماق وعبير المجهول. قال بغموض:

ـ لو اصطحبتني إلى البحر فربّما استطعت أن أفتدي الطفل!

توقّف الصيّاد عن معاندة عمله. استنكر:

ـ تفتدي الطفل؟!

طاف الباشا المدى. بلغ في الطواف البرزخ المعلق في الأفق. قال:

ـ لو اصطحبتني فربّما نجوتَ بالطفل!

ساد صمت. دفع اليمّ إلى الشطّ برسالة جديدة. لاحق الصيّاد

الباشا بنظرة ارتياب. تقدّم نحوه خطوة ولكنه عثر في حجارة الأسافل فتوقّف. سأل بعجب:

ـ ولماذا على الطفل ألاّ ينجو؟

تابع الباشا النياشين الناصعة الموسومة بيد الريح. قال دون أن يعود من رحلة المدى:

ـ لأن البحر يطلب القربان ككل شيء في هذه الدنيا!

تطلّع إليه الصيّاد بدهشة. تطلّع إليه طويلاً قبل أن يومىء للفتى بدخول القارب. دفع القارب بالفتى مسافة وهو يتمتم:

ـ شيبة النحس!

ولكن الباشا لم ينتبه. وربّما لم يسمع عبارة الصيّاد. استمرّ يتشبّث بسفح الصخرة المغسولة في الحضيض برسالات البحر حتّى احتضرت الشمس وتأهب المدى الأبدي بارتداء مسوح الغيهب. في لحظات الاحتضار هذه يروق للمارد أن يتحمّم بالدّم دائماً. يتحمّم بالغلالات الدموية القانية التي يظنّها البلهاء ضياء الغروب، ولكن هو وحده الذي يدري أنّها دماء القرابين التي يجود بها المجهول لشراء سرّ البحر. لشراء سكون البحر. لشراء الحرية التي يعد بها البحر دائماً، ولكنه لا يهبها أبداً إلاّ بالصفقة التي يجود المريد بمقتضاها بنفسه قرباناً.

انتابته رجّة عنيفة، ولكنه لم يستسلم للنوبة. لم يستشعر عبء النوبة لأوّل مرّة. ربّما لأن بحر الدمّ ابتلع في عينيه بحر اليمّ فشلّ فيه الإحساس بالألم. ربّما لأن غيبة القربان غلبت غيبوبة البدن هذه المرّة فتوارى مع الطائر المتجه نحو الغرب (الذي رآه منذ قليل)

ليغيب في برزخ الغرب المخضّب بغمر الدّم لينطفىء في المجهول حيث انطفأ قرص الشمس.

عاد الصيّاد من رحلته ملفوفاً بغياهب المساء. نزل الشاطىء وحيداً. ترنّح وهو يخوض في المياه. سقط في المياه مراراً قبل أن يدرك الشاطىء. سقط على وجهه أرضاً وناح بفجيعة وهو يتخبّط ويضرب حصباء الشطّ. عضّ على حبيبات الرمل بأسنانه قبل أن يرفع رأسه نحو الصخرة ليبصر البدن المسجّى على سفحها. صاح بأعلى صوت:

ـ أنت قتلتَ ابني يا شيبة النحس! أنت قتلت ابني الوحيد بنبوءة النحس! السمكة التي تفوق ابني حجماً اختطفت منّي ابني وذهبت به إلى الأعماق، فهل سمعت؟

ناح مرّة أخرى، ثمّ نهض وتسلّق الصخرة. وقف فوق الشبح الملقى على سفح الصخرة. لفظ سباباً بذيئاً قبل أن يندفع نحو الشبح. أمسك به من منكبيه وهزّه بعنف، ولكن البدن الهامد، الهزيل ككوم من تبن، تداعى وسقط بين يديه. تخلّى عن البدن وهو يخطو إلى الوراء فتدحرج البدن الهزيل عبر الصخرة حتى هوى في الحضيض فهرع إليه البحر ليلثم الجسد البائس بقبلة الوداع!

5

خرج المسيو «غيس» قنصل فرنسا لدى المملكة الطرابلسية من دار القنصلية في طريقه إلى قصر السراي للمثول بين يدي الباشا. في الخارج كان الترجمان المالطي «دورو» يقف في الزقاق المؤدّي إلى

قوس «ماركوس أوريليوس» المنتصب في ساحة الرخام محاطاً ببعض أحراس القنصلية. تأمّل المسيو «غيس» شبح الحوذيّ وهو يتثاءب بخمول إلى جوار العربة فابتسم قبل أن ينطلق نحو الساحة مشياً. هرع إليه الترجمان بسيماء الاحتجاج، ولكن المسيو «غيس» أسكته قبل أن ينبس:

ـ سنذهب إلى السراي مشياً!

أومأ الترجمان للأحراس بإشارة، ولكن القنصل اعترض مرّة أخرى:

ـ سنذهب إلى السراي بلا عسس أيضاً!

اكتأب الترجمان وهو يخطو إلى جوار القنصل فأوضح القنصل:

ـ المشي في طقس كطقس هذا اليوم نزهة، وأمان البلاد هذه الأيام نعمة!

عبرا ساحة الرخام في طريقهما إلى باب البحر. تطلّع المسيو «غيس» إلى قوس «ماركوس أوريليوس». قال بصوت كدّرته نبرة حزن:

ـ يؤسفني أن أفارق هذه البلاد.

قال الترجمان:

ـ سمعتُ هذا من كلّ إنسان أقام في هذه البلاد ثمّ قُدّر له أن يهجرها يوماً.

اقتربا من بوّابة البحر فتراءت السفن في المرفأ. قال المسيو «غيس»:

ـ لن يصدّقني أحدٌ في باريس لو قلت إن أرض هذه البلاد تخفي سرّاً عظيماً برغم كلّ البلايا!

قال الترجمان بعد خطوات:

ـ عرفتُ رجل أغرابٍ يقول إن سحرها لا يُقارن إلاّ بسحر مسقط الرأس!

عقَّبَ المسيو «غيس»:

ـ ربّما لأن صحراءها مسقط رأس الإنسان كما يرى دهاة كثيرون!

تطلّع إلى سماء زرقاء، عميقة الزرقة على نحوٍ موجع، ثم أضاف:

ـ لا تصدّق كم كنتُ سعيداً عندما اعتقلني العدوّ في عرض البحر وأنا في طريقي لاستلام عملي الجديد في ربوع الشام!

سأل الترجمان:

ـ هل يريد سعادة القنصل أن يقول إن الإنجليز أسدوا له خدمة لأنهم استولوا على سفينته ليعيدوه إلى طرابلس؟

صحّح القنصل:

ـ لم يكن في نيّتهم أن يعيدوني إلى طرابلس لولا تدخّل الباشا.

علّق الترجمان:

ـ يجب أن نعترف لهذا الرجل ببعض المزايا برغم كل المساوىء!

سكت القنصل لحظات. قال:

ـ أنت لن تصدّقني إذا قلت لك إن هذا الرجل يخفي مخلوقاً آخر يختلف عن المخلوق الذي يتبدّى للناس.

ـ كلّ مخلوقات هذه الأنحاء تخفي مخلوقات أخرى!

ـ لم أعترف له بالدّهاء كما اعترفت له يوم حدّثني عن معنى الخصومة.

استفهم الترجمان بلهجة فضول:

ـ معنى الخصومة؟!

ـ تحدّثنا عن علاقات بلدينا المعقّدة مرّةً فقال إن الحياة بلا عدوّ لا معنى لها!

اختلس إليه الترجمان نظرة دهشة فأضاف:

ـ عبّرتُ له يومها عن دهشتي فحدّثني عن الخواء الذي استولى عليه بعد تخلّصه من شقيقه الأكبر حسن بك. لم يستشعر الندم لأنه فقد شقيقاً، ولكن لأنه فقد خصماً. لأنه فقد عدوّاً. ألا يبدو هذا الاكتشاف غريباً؟

تمتم الترجمان غائباً:

ـ جدّاً!

تطلّع المسيو «غيس» إلى البحر في سكونه. في المرفأ تزاحمت القوارب والسفن التجارية والحربية. قال:

ـ قال أيضاً إن الإنسان الحقيقي يحبّ بطبيعته عدوّه أكثر من حبّه لصديقه أو حتّى لشقيقه، لأن الخصم النقيض هو ما يستفزّنا لكي نحيا، في حين يقودنا الحميم إلى الموت!

ـ عجباً!

ـ قال ذلك قبل أن ينتهي إلى القول بأن هذه الطبيعة هي سرّ تعلّق

دولة عظمى مثل فرنسا ببلد مشاغب مثل طرابلس إلى حدّ كانت فيه البلد الوحيد الذي احتجّ بشدّة لدى الباب العالي يوم باركت الأستانة مكيدة علي برغل ضد دولة لم ترَ فيها فرنسا يوماً سوى وكرٍ لإيواء القراصنة!

أطلق الترجمان صَوتاً غريباً، ولكن المسيو «غيس» أضاف:

ـ وبرغم ذلك فإن طرابلس لا تلبث أن تعامل فرنسا كعدوّ كلما سنحت الفرصة لا لشهوتها إلى الغنائم كما يظن البلهاء حسب قوله، ولكن لتبرهن لنفسها أنها على قيد الحياة!

علّق الترجمان:

ـ هذا يذكّرني بالوصيّة التي تقول: «يجب أن نرى في العدوّ مخلوقاً يمكن أن ينقلب في أيّ لحظة إلى صديق، كما يجب أن نرى في الصديق مخلوقاً يمكن أن ينقلب في أي لحظة إلى عدوّ!».

في البعد لاح باب القلعة. حول الباب تزاحم الأحراس. قال القنصل:

ـ خبر إنهاء نابليون لحكم فرسان القدّيس يوحنّا سوف يسعد الباشا، كما سيهلّل لنبأ إطلاق سراح الأسرى الطرابلسيين المعتقلين في سجون الجزيرة، ولكني لا أعرف كيف سأنقل له تهديد نابليون المبطّن!

قال الترجمان:

ـ لم تخن الحكمة صاحب السعادة حتّى في زمن المحن التي هدّدت العلاقة بين البلدين بالأمس، فكيف تخونه اليوم وهو يقبل على الباشا حاملاً في جعبته بشارتين لا بشارة واحدة؟

ولكن القنصل ما لبث أن وسوس:

- لا أستطيع أن أتنبّأ بردّة فعل الباشا إذا علم بحقيقة نوايا نابليون باحتلال مالطا.

هوّن الترجمان:

- لقد تحدّثنا منذ قليل عن دهاء الباشا. هذا الدّهاء هو ما سيزيّن في عينيه الاستجابة ما دام نابليون ينوي بأساطيله احتلال مِصْر لا طرابلس!

شكّك القنصل:

- قد يستجيب الباشا بحكم غريزة الدفاع عن النفس، ولكنّي أخشى ألاّ يستجيب أهل الباشا!

- أهل الباشا؟

أوضح القنصل:

- لا يجب أن ننسى أن مصر في قلوب المسلمين كعبة أخرى إلى جانب الكعبة، وقيام الباشا بتزويد أساطيل نابليون المرابطة في مالطا بالمؤن سوف يستثير غضب الرعيّة ما إن تكشف الحملة عن وجهها الحقيقي بقصف منارة الأزهر بالقنابل!

حدجه الترجمان بمكر. قال:

- لن تعجز الباشا الحيلة في امتصاص غضبة الرعيّة إذا بَرَد نداء الجهاد في الآذان بسبب فوات الأوان!

أدركا باب القلعة فهرعت لملاقاتهما الأحراس.

6

صاح الباشا في وجه الدغيّس:

ـ لا أعرف لماذا لا تريدون أن تحرّكوا ساكناً لإسكات الأشياخ الذين ينعبون في المساجد نعيب البوم!

التفت الدغيّس نحو شيخ المدينة الذي وقف بالجوار فزعاً. ابتسم بغموض قبل أن يقول:

ـ لم أشأ أن أتدخّل يا مولاي في شأن المساجد حتّى لا أُتّهم بالتعدّي على شأنٍ ليس من شأني!

زأر الباشا:

ـ ليس من شأنك؟ ومتى كانت سكينة الوطن شأن إنسانٍ دون إنسان آخر؟

دبّ في البلاط لحظات. وقف إلى جوار المنضدة. تناول سكيناً لافتضاض ختم المظاريف. جرّد السكين من غمده قبل أن يلتفت ليلوّح به في الهواء مهدّداً:

ـ هل يظنّ هؤلاء البلهاء أنّهم أشدّ حرصاً منّي على مصير المسلمين؟ أم يظنّون أنهم يستطيعون أن يحرّروا الأزهر بدغدغة مشاعر الدهماء؟

ألقى بالنصل على المنضدة. عقد يديه وراء ظهره. صاح:

ـ هل استطاع هؤلاء الأوباش أن يحرّكوا شعرة في رأس فارس واحد من فرسان العصابة المسماة بفرسان القدّيس يوحنّا يوم كان هؤلاء يذيقون أهل هذه البلاد صنوف العذاب على مدى قرونٍ وقرون؟

تقدّم خطوات صوب رئيس البحرية الذي وقف في طرف البلاط الآخر. صاح:

- ستبعث في الغد شحنة أخرى يا ريّس مراد إلى جيوش بونابرت في مالطا. أمّا الدغيّس فسوف يتولّى تيسير وصول مكاتباته من الإسكندرية إلى قادة جيشه في الجزيرة. أسلافنا الحكماء يعلّموننا كيف نطفىء كراهة قومٍ يجاهرون لنا بالعداء، فكيف إذا تعلّق الأمر بقومٍ برهنوا لنا على ولاًء؟

سكت لحظة قبل أن يستدرك:

- هل توصلتم إلى اتّفاق مع أوغاد السويد؟

ركع ريّس مراد قبل أن يجيب:

- وافق أوغاد السويد يا مولاي على دفع المبلغ الذي أنكروه علينا بفضل وساطة بونابرت!

هلّل الباشا:

- هل سمعتم؟ هل سمعت يا شيخ المدينة ما يقوله الريّس مراد؟ لقد وافق أوغاد السويد على دفع المبلغ المطلوب بفضل وساطة بونابرت لا بفضل نعيق أشياخ مدينتك في المساجد!

أضاف الرئيس مراد:

- لم يكتفِ السويديون بدفع المبلغ المستحقّ فحسب، ولكنهم قبلوا التنازل عن السفن السبع التي غنمتها بحريتنا يا مولاي!

صفّق الباشا باستحسان. هتف بفرح طفولي:

- هل رأيتم؟ السويديون لم يقبلوا دفع المبالغ المستحقّة فحسب،

ولكنّهم تنازلوا عن السفن السبع أيضاً. بأي معجزة يا ترى؟ بفضل وساطة نابليون الذي تسبّه أشباحك في المساجد يا شيخ المدينة!

تقدّم نحو الشيخ خطوة. توعّده بسبابته:

ـ إذا لم تُخرس أصوات تلك الغربان اليوم فلن يخلفك شيخ آخر في المشيخة وحسب، ولكني لا أضمن أن أجدك في الغد مصلوباً على باب زنّاتة إلى جانب القتلة!

ثمّ استدار ليمضي بخطوات سريعة حتّى غيّبه أحد الأبواب الجانبية.

7

تونس. قصر الباي. 1795م.

التأم مجلس الديوان مبكّراً. تصدّر المجلس الباي حمّودة. على يمينه جلس الوزراء. قبالته جلس الوجهاء. في البلاط عمّ سكون قبل أن يفتتح الباي الجلسة:

ـ بين يديّ طلب لجوء!

لوّح في وجه المجلس بقرطاسٍ كئيب اللّون، ثم أضاف:

ـ تستطيعون أن تخمّنوا من هو صاحب الطلب؟

ابتسم وهو يطوف وجوه الأعيان ببصره. لم يدم الصمت طويلاً، لأن شيخاً نحيلاً، متوّجاً بطربوش أحمر اللون، شيّع في طرف المجلس يداً ملفوفةً بالعروق، ليقول:

ـ أراهن يا مولانا أنه سليل القرمانلي!

عمّت المجلس هرجة. علت ضحكات، تخلّل الهرج همهمات، فيما ظلّت سيماء الباي موسومةً ببسمة الغموض. انتظر حتى هدأت الهرجة ليقول:

ـ يبدو أن آل القرمانلي صاروا قدر تونس حقّاً في الأعوام الأخيرة. لقد ظنّنا أنّنا سننعم بالسكينة عندما وافقنا على إيوائهم منذ سنتين، ولكن أداءنا لذلك الواجب كلّفنا غالياً، لأن اللعنة التي استنزلتها الأقدار على رؤوسهم ما لبثت أن طالت رؤوسنا أيضاً. لقد خضنا حرباً لاسترجاع أرضنا، ثم خضنا حرباً أخرى لاسترجاع عرشهم من براثن المسخ المدعو برغل، فهل بلّغنا بعد كل هذا؟ لا بالطبع. فقد نشب نزاع الشقيقين على العرش لينتهي النزاع بفرار سيدي أحمد وتولّي سيدي يوسف الذي لم يكتفِ باغتصاب العرش، ولكنه أَبى إلاّ أن نكون له نحن لا سوانا الوسيط الذي سيشفع له لدى الصدر الأعظم. وقد قمنا بالوساطة بالفعل فاستجاب الباب العالي لالتماسنا سريعاً فبعث بقفطان الباشوية إلى سيدي يوسف. وها هو اليوم سيدي أحمد يبعث لنا، لا لسوانا مرّة أخرى، بطلب اللجوء من منفاه في جزيرة مالطا، فماذا ترون؟

هيمن هدوء لحظات. في طرف المجلس ارتفعت اليد الملفوفة بشبكة العروق ذاتها. تكلّم صاحب الطربوش الأحمر:

ـ هل من اللياقة يا مولانا أن نقبل لجوء سيدي أحمد اليوم بعد أن قمنا بالتوسّط لدى الباب العالي لتتويج سيدي يوسف بالأمس؟

في المجلس علت موجة هرج جديدة. اختلطت همهمات الاستحسان بعبارات الاستنكار. ولكن صاحب الطربوش الأحمر أضاف:

ـ إذا قبلتم لجوء أحمد بك اليوم فلن أضمن ألاّ نصير أضحوكة على الألسن غداً!

في ركن المجلس المجاور للباي نهض الوزير خوجة فعمّ الهدوء في الحال. طاف وجوه الوجهاء قبل أن يتولّى الأمر:

ـ لا يجب، يا سادة، أن نتخذ من قبول الوساطة حجّة تقعدنا عن واجب كان مقدّساً في كل العهود، اعترفت به كل النواميس، وكلّ الأمم، ألا وهو واجب الإجارة!

سَرَت في المجلس همهمات، ولكن الوزير أسكت الأصوات بإشارة من يده. أضاف:

ـ الشيخ بو جمعة على حقّ عندما رأى في توسّطنا لسيدي يوسف بالأمس لدى الباب العالي تناقضاً إذا قورن بقبولنا للجوء شقيقه أحمد لأن شيخنا يتحدّث من عين السياسة! ما معنى عين السياسة؟ عين السياسة هي عين المنافع. والمنافع لا تعترف لا بواجب، ولا بصيتٍ، ولا حتّى بأخلاق! فهل نضحّي بواجب الإجارة الذي تقتضيه الأخلاق في سبيل نفعٍ مؤجّل قد يأتي وقد لا يأتي؟

تعالت أصوات الاستحسان. هتف صوت:

ـ الله أكبر!

تبعه صوت آخر:

ـ من أجار صاحب مظلمة فقد أجار ملاكاً دون أن يعلم!

أسكت الوزير الأصوات بإشارة. أضاف:

ـ تستطيعون أن تسألوا مولانا الباي الآن: «ما النفع الذي رأى أنه

سيجنيه يوم أجار القرمانلي الأب وعائلة القرمانلي الأب؟». لا أشكّ في أن مولانا سيجيبكم بأنه لم يفعل ما فعل إلاّ أداءاً لواجب. ليس هذا فحسب، ولكن مولانا الباي سيلحق ضرراً بنفسه، بل وبالحقيقة، إذا اكتفى بهذا الجواب ولم يقل إنه لم يجن من هذا الموقف نفعاً فحسب، ولكنه ألحق بنفسه ضرراً. إذْ هل كان المسخ المدعو علي برغل سيجرؤ على مهاجمة جربة واحتلالها لو لم يرَ في إيواء صاحب تونس لعائلة القرمانلي عداوةً؟!

همهمت الصدور استحساناً، وتمايلت الطرابيش تأييداً، فأكمل الوزير:

ـ أعلم أن حرصكم على تونس وعلى سكينة أنعم بها الله على تونس، هو سبب تحفّظكم. ولكن العناية الإلهية التي أنعمت علينا بالنعم ووهبتنا السكينة كبّلتنا بفروض الواجب أيضاً.

قاطعه أحد الأعيان باعتراض:

ـ هل فرض الله علينا أداء الواجب إذا كان في أداء هذا الواجب تهلكة حذّرنا منها في الآية الكريمة؟!

ابتسم الوزير بتسامح. أوضح:

ـ لم يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها يوماً. كما حذّرنا من أن نرمي بالنفس إلى التهلكة حقّاً..

هبّ صاحب الطربوش الأحمر:

ـ ولكن تجربتنا في إجارة آل القرمانلي مريرة، فهي لم تفقدنا آلاف الشهداء فحسب، ولكنها عرّضت تونس كلّها لخطرٍ مبين!

ابتسم الوزير مرّة أخرى. أضاف:

- وهل تريد يا شيخنا أن تؤدّي الواجب الإلهيّ بدون تضحيات جسيمة؟ بلى، يا قوم! الواجب لا يهب نفسه بلا ثمن. ولكنه حصن يعصم من بلايا أخرى خفيّة لا يعلمها إلاّ العليم بالخفايا. ولكن. .

ارتفع صوت أحد الأعيان:

- ألا يجوز أن نقوم بأداء الواجب دون أن نعرّض أنفسنا لمهالك؟

أطلق أحد الأعيان ضحكة منكرة. أعقب ذلك صمت. ترافع الوزير:

- لا أعتقد أن في قبولنا طلب لجوء سيدي أحمد القرمانلي إشهاراً لعداوتنا لصاحب عرش سعينا له بالأمس لتمكينه من العرش!

سكت لحظة. أضاف:

- يمكن أن يُعتبر قبول لجوء أحمد القرمانلي عدواناً على المملكة الطرابلسية في حالة واحدة!

افترس الوزير خوجة وجوه الحاضرين بإمعان. أضاف بيقين:

- إذا سمحنا لأحمد بممارسة نشاط سياسي يهدّد عرش أخيه!

تدخّل الباي بعد صمت طويل:

- الخلاصة أن الوزير يرى أن نقبل طلب أحمد القرمانلي بشرط أن يتعهّد لنا بعدم ممارسة أي نشاط سياسي!

تعالت صيحات الاستحسان من جديد. انتظر الباي حتّى سكن الأعيان. أضاف:

- هل نستطيع تتويج هذا الرأي بالتصويت قبل أن ننتقل إلى البند التالي في جدول عملنا اليوم؟

في الركن انتصب صاحب الطربوش الأحمر واقفاً. استند على عكّاز مطوّق بحلقة فضيّة منقوشة برموز غامضة مثيلة للرسوم الهيروغليفية. حدّق صوب الباي بعينين شبه مغمضتين قبل أن يقول بصوت واهن:

ـ أخشى أن يخيّب الرجل ظنّكم إذا قبلتموه لاجئاً!

تأمّله الباي لحظات. سأل:

ـ وما الذي يحمل فضيلة الشيخ على هذا الظنّ؟

أجاب الشيخ:

ـ السياسة يا مولانا!

تعجّب الباي:

ـ السياسة؟

الشيخ لم يستسلم:

ـ السياسة، يا مولانا، ضربٌ من وباء!

عاد الباي يتعجّب:

ـ ماذا يعني فضيلة الشيخ بهذا النعت القبيح؟

سرت همهمة مكتومة في المجلس. تمتم أحد الأعيان بصوت مسموع:

ـ في قول العمّ بو جمعة تطاول على مولانا!

تشجّع آخر قائلاً:

ـ في هذا القول تطاول علينا جميعاً!

ولكن الباي ابتسم بتسامح، في حين تكلّم العمّ بو جمعة:

ـ أعني يا مولانا أن السياسة أفيون؛ من ذاق هذا الأفيون استحال عليه الصوم عنه!

علت هرجة، ولكن الباي أسكت الأصوات بإشارة. سأل:

ـ هل تعني أن أحمد القرمانلي لن يستطيع أن يتخلّى عن الكيد لشقيقه إذا قبلناه في ديارنا؟!

وافقه العمّ بو جمعة بهزّة من طربوشه، ثم تمتم:

ـ بالضبط!

قال الباي بحلم الدهاة:

ـ ليس على صاحب الواجب أن يفترض سوء النيّة، فإذا صدقت نبوءة فضيلة الشيخ وحدث ما يخلّ بالشرط، فإن التدبير سيُتّخذ عندئذٍ بضمير نقيّ!

زفر بإعياء قبل أن يضيف:

ـ فلنطوِ هذه الصفحة، ولننتقل إلى السيرة التي صارت لدنيانا قدراً مثلها مثل الموت!

تطلّع إلى الأعيان بنظرة ماكرة قبل أن يستبدل الاستعارة بالعبارة:

ـ سيرة المكوس!

8

القاهرة. مقرّ القيادة الفرنسية العامّة. 1798م (السنة السادسة للتقويم الجمهوري).

في البستان استسلم نابليون للاسترخاء: استلقى على كرسيّ

محبوكٍ من عيدان الخيزران، وطرح رجليه على كرسيّ آخر قبالته وطفق يرقب الشروق.

كان قد استيقظ للتوّ، فتلقّى نبأ هزيمة أسطوله شمال الإسكندرية للتوّ أيضاً فلم يرفّ له جفن، ولم يعلّق بكلمة. اكتفى برسم بسمة استخفاف على شفتيه، ثم نزع قبعته الغريبة التي تبدو عن بُعْد مثلثة الأضلاع، وجلس على الكرسي ليتأمّل الشروق دون أن تفارق بسمة السخرية مقلتيه.

حوله حام دهاة الجيش بمختلف الأعمار والرتب والنياشين، ولكن لا أحد منهم استطاع أن يجد في نفسه كفاءة تؤهّله لانتهاك صلاة نابليون بونابرت في ذلك الصباح المشئوم.

انتظرت زمرة الجنرالات طويلاً قبل أن يصحو بونابرت من غيبته ليأمر باستدعاء ترجمانه ومستشاره وكاتبه ومؤرخه الذي رافقه في كل رحلاته الملقّب بالمسيو «فينتور الفردوسي». هرع أحد الضباط إلى الداخل. عاد بعد لحظات مصحوباً بالمؤرخ الملقب بـ«الفردوسي» (ترجمةً من «De Paradis») فيما استمرّت تلّة الجنرالات تصطفّ بالجوار دون أن تجرؤ على الاقتراب من عرين الليث!

أومأ نابليون للفردوسي بالجلوس. قال دون أن تفارق بسمة السخرية شفتيه:

ـ لقد دعوتك لتناول وجبة الإفطار لأنّك في ظنّي الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يشاركني بهجة نصرنا في بحر الإسكندرية!

اختلس الترجمان إلى قادة الجيوش نظرة دهشة ممزوجة بإيماء فزع. عاد يتطلّع إلى نابليون المستلقي على كرسي الخيزران. سأل:

ـ هل يتحدّث سيدي الجنرال عن نصر في بحر الإسكندرية؟

ـ بلى!

ـ ولكن . . ولكن الكلّ يتحدّث عن هزيمة منكرة في بحر الإسكندرية يا سيّدي!

ـ لا يتحدث عن الهزيمة في «أبي قير» إلاّ البلهاء!

عاد الترجمان يتطلّع إلى صف القادة. تمتم بدهشة:

ـ البلهاء؟

قال بونابرت وهو ما يزال يطارد نبوءة في أفق الشرق:

ـ بالطبع بلهاء! كلّ من لا يؤمن بوجوب دفع القربان أبله!

غاب الترجمان بعيداً كأنه يطرد شكوكاً راودته في شأن قوى بونابرت العقلية. سأل:

ـ هل يتحدّث سيّدي الجنرال عن القرابين؟

ـ بلى. أتحدّث عن القرابين. أم أنّك نسيت سيرة الملك اليوناني مع الفرعون المصري الحكيم؟

سكت الفردوسي فأضاف نابليون:

ـ ما اسم ذلك الفرعون؟ هل هو مسيّس؟

صحّح صاحب التاريخ الفردوسي:

ـ أماسيس. علّ سيّدي الجنرال يقصد الحكيم أماسيس؟

هلّل بونابرت:

ـ أحسنت. أماسيس. لقد كتب إلى صديقه القديم ملك الجزيرة

اليونانية محذّراً من الخطر الذي يجلبه الحظّ إذا ابتسم في وجه المخلوق الفاني طويلاً، لأن انتقامه سيكون مميتاً يوم تأتي ساعة العبوس!

لم يجد الترجمان بدّاً من استكمال الشطر الثاني من السيرة كبرهانٍ على فهمه لفحوى الرسالة:

ـ بلى يا سيّدي. لقد هدّده بقطع علاقتهما إذا لم يذهب لاسترضاء القدر بأحبّ ما امتلكت يداه!

ـ ولكن الملك الأبله لم يجد ما يشتري به مرضاة القدر غير الخاتم المرصّع بالجوهر فما كان من القدر إلاّ أن رفض قربانه!

تطلّع إليه الفردوسي بذهول. سأل:

ـ هل يرى سيدي الجنرال أن استعادة الخاتم من بطن الحوت الذي تلقّاه هدية من صيّاد الأسماك هو بمثابة رسالة رفض للقربان؟

أجاب نابليون بلا مبالاة:

ـ بالطبع كان ذلك رسالة رفض. ولكن الملك الأبله لم يكلّف نفسه عناء قراءة الرسالة كما يجب أن تقرأ، في حين أفلح أماسيس في قراءتها ما إن بلغه النبأ، فما كان منه إلاّ أن تبرّأ من صداقته حتّى لا تطاله لعنته؛ وهو ما حدث بالفعل كما تعلم!

هيمن سكون. ارتفعت الشمس فوق قمم الأشجار. سحب نابليون قدميه من كرسي الخيزران. التفت إلى مستشاره لأوّل مرّة. قال:

ـ قربان الملك كان زائفاً. أمّا قربان نابليون فقربان حقيقي.

سكت لحظة. أضاف:

ـ قربان الملك اليوناني كان خاتماً مرصعاً بالجوهر، وقربان نابليون كان قرباناً بشريّاً. قربان الملك اليوناني فكان زائفاً، ولهذا استحقّ استنكار الآلهة. أمّا قربان نابليون كان حقيقيّاً، ولهذا استحقّ إكبار الآلهة! فلماذا لا تخبر هؤلاء الجنرالات البلهاء أن يبشروا ويفرحوا ويقرعوا طبول النصر بدل أن يعبسوا في وجهي كأنّهم عصابة البوم؟ لماذا لا تخبرهم بأن النصر لا يسكر إلاّ البلهاء؟

فزّ واقفاً. تقدّم إلى مائدة الإفطار. قال ساخراً:

ـ حكمة أماسيس، لا فطنة اليونان!

أطلق ضحكة. مال نحو رأس الفردوسي ليهمس:

ـ لهذا السبب اخترت مصر كمحطّة أولى في سبيل القبض على عنق العالم، لأن نيل العالم مشروط بنيل روح العالم!

سأل الترجمان:

ـ هل يرى سيدي الجنرال أن مصر هي روح العالم حقّاً؟

جلس نابليون إلى مائدة الإفطار. حوله تراكض ضبّاط ليتولّوا الخدمة. قال:

ـ لو لم تكن مصر روح العالم لما كانت قبلةً لأساطين الحكمة في كل الأزمنة وفي كل الأمكنة!

أقبل أحد الضبّاط بإبريق القهوة. صبّ السائل الكئيب في فنجان نابليون فارتفع البخار. استنشق نابليون عبير القهوة بعمق. قال:

ـ كم أعبد هذه الرائحة؟ لا أخالك ستفضح سرّي إذا قلت لك إنها نقطة ضعفي!

أطلق ضحكة. تناول رشفة من فنجانه. تلذّذ. أضاف:

ـ القهوة إفيوني، ولو علم نلسون بهذه الحقيقة لفضّل أن يبعث لي بجاسوسٍ ليدسّ لي فيها سمّاً بدل عناء تدمير أسطولي في «أبي قير» ها ـ ها ـ ها..

قال فينتور الفردوسي:

ـ يقولون إن الحرب بيننا وبين الإنجليز هي حرب بين مونتين وشكسبير!

تطلّع إليه نابليون بقلق. تمتم:

ـ هراء!

أضاف الترجمان:

ـ يقولون أيضاً إنها حرب بين روما وقرطاجنّة؟

تناول نابليون رشفة أخرى. سأل:

ـ من فينا يلعب دور قرطاجنّة؟

أجاب الفردوسي:

ـ فرنسا بالطبع.

تمتم نابليون:

ـ لحسن الحظّ!

سأل الفردوسي:

ـ لماذا يرى سيّدي في هذا حظّاً حسناً؟

ـ لأن الطرف المهزوم هو الذي يحقّق النصر، أمّا الطرف المنتصر فلا يحقّق نصراً لأنه يكتفي بنصره!

ابتسم الفردوسي فأضاف نابليون:

ـ ولكن الرأي الذي يقول إن حربنا مع يهوذا الأسخريوطي هذا هي حرب بين شكسبير ومونتين لا يروقني!

ـ لماذا؟

ـ لأن مونتين عقل، أمّا شكسبير فروح. والعقل طرف أضعف إذا دخل في نزاع مع الروح!

سكت. أضاف:

ـ أنا أعبد شكسبير آملاً أن يعبد الإنجليز مونتين نيابةً عنّي!

أطلق ضحكة مرّة أخرى. سكت لحظة. قال:

ـ على الفرنسيين أن يعلموا أن الإنجليز لن ينتصروا أبداً حتّى لو كسبوا ألف معركة وذاقوا حلاوة ألف نصر. هل تدري لماذا؟ لأن الأقدار حكمت عليهم بمعقل هو متاهة إذا قورن بالبرّ ألا وهو البحر!

تطلّع إليه الفردوسي بغموض قبل أن يسأل:

ـ ماذا يحدث لو قرّروا أن يحاربونا في اليابسة يوماً؟

حدّق نابليون في عيني جليسه طويلاً قبل أن يجيب:

ـ آمل ألاّ أضطرّ للدخول معهم في حرب على يابسة!

فرغ من إفطاره. قال:

ـ أمّا الآن فإلى العمل!

انتصب واقفاً. عقد يديه وراء ظهره. تمشّى في أرض البستان ذهاباً وإياباً. سأل:

ـ ماذا تمّ بشأن الحجيج الليبي؟

فزّ الفردوسي واقفاً. أجاب:

ـ لقد أحطناه برعاية استثنائية يا سيّدي تنفيذاً لتعليماتكم!

ـ كيف كانت ردّة الفعل؟

ـ لقد طلب منّي زعيمهم الحاج أبو القاسم أن أنقل لسعادتكم امتنانه العميق يا سيدي!

توقّف نابليون. تفكّر لحظات. قال:

ـ أريدك أن تعمل على دعوة الحاج أبي القاسم هذا باسمي ليشاركني مائدة العشاء. لا تنسَ أيضاً إعداد هدية مناسبة تليق بمقام الرجل. أعدّوا هدايا أيضاً لأعيان الحجيج. الشيخ أبو القاسم سيكون رسولنا إلى طرابلس. وطرابلس ستكون رسولنا إلى الجنرال فوبوا في مالطا. أريدك الآن أن تحرّر رسالة إلى قنصلنا في طرابلس تخبره فيها بانتصاراتنا كلّها بدايةً باحتلال مالطا ونهايةً بانتصارنا في «أبي قير» مروراً باستيلائنا على الإسكندرية والقاهرة ومصر كلها دون أن تنسى الإشارة إلى استئصالنا لسلالة المماليك!

كان أحد الضباط قد جاء للمستشار بدفتر بدأ يدوّن فيه ملاحظاته إلى أن جاء ذكر معركة «أبي قير». توقّف الترجمان عن التدوين. انتظر حتّى سكت الجنرال فاستفهم:

ـ هل يريد سيدي الجنرال أن أسميّ معركة «أبي قير» نصراً حقّاً؟

التفت إليه نابليون بسيماء صرامة. قال:

ـ وماذا تريد أن تسمّي معركة «أبي قير»؟ ألم نتفق منذ قليل أنها القربان الذي سيجيرنا من النحس؟!

تردّد الترجمان لحظات قبل أن يعبّر عن شكوكه:

- أخشى أن السلطات في باريس لن تفهم الحكمة كما يجب أن تُفهم!

صاح نابليون:

- وما حاجتنا لفهم السلطات في باريس؟ هل تحتاجنا الحكمة، أم أننا نحن من يحتاج إلى الحكمة؟ ثمّ ألا تدري أن الحكمة تكفّ عن أن تكون حكمة إذا فهمها البلداء؟ أكتب، أكتب ما أمليه عليك..

استدار مرّة أخرى. تسكّع صامتاً. سار الترجمان وراءه خطوات. عاد على عقبيه فالتقى الترجمان وجهاً لوجه. وقف. قال:

- أطلب في الرسالة من قنصلنا في طرابلس توجيه شخص موثوق لنقل بريدنا من طرابلس إلى مالطا، فإذا تعذّر الوصول إلى مالطا بسبب حصار قوات يهوذا الأسخريوطي لقوّاتنا في الجزيرة فآمل إرسال البريد إلى موانىء روما أو كاغلياري بجزيرة سردينيا حيث سيتمكّن من هذه الموانىء من الوصول إلى طولون. فإذا تعذّر فبالإمكان إرساله رأساً إلى طولون على المراكب التجاريّة متنكّراً في ثياب التجّار أو حتّى شذّاذ آفاق. كما يجب أن تبعثوا لي من طرابلس بساعي بريد ليطلعني على ما بحوزتكم من أخبار فرنسا، كما يتعيّن على القنصل أن يكتب إلى مالطا لتزويدنا بالصحف الصادرة بفرنسا. من المهمّ أيضاً أن يعمل القنصل بطرابلس على توجيه ناقل بريد مرّة كل عشرة أيام عن طريق درنة. من هناك يستطيع أن يعبر الصحراء إلى مصر. كما أطلب إرسال مبلغ ما لي قدرة ستة آلاف فرنك على

مسئوليتي الخاصة. كما أطلب من القنصل إبلاغ باشا طرابلس عن نيّتي في الاحتفاء بذكرى المولد النبوي الشريف احتفالاً لم تشهده هذه الديار حتّى في عهد الأدعياء المماليك. أمّا قافلة الحجيج الليبي فقد شملتها برعايتي وسوف ترحل غداً في طريقها إليكم. كما يتعيّن على القنصل إبلاغ يوسف باشا بامتناننا على تزويده لقواتنا في مالطا بالمؤن آملاً أن يتمكّن من تزويدنا بالخراف والأبقار في الإسكندرية. انتهى.

تقدّم إلى كرسي الخيزران بخطوات واسعة. تناول قبعته الغريبة. اعتمرها قبل أن يومىء إلى صفّ الضباط قائلاً:

ـ دوركم يا قادة الجيش!

9

يوم سئم يوسف باشا شئون المملكة وقرّر أن يلهو كما يلهو أهل الباطل أشار عليه دهاة الحاشية بمعانقة الأبكار. تردّد زمناً، ولكنه استسلم أخيراً. اشتروا له جوارٍ من الجنس الذي يعرض في الأسواق (زنجيات وأناضوليات وعلجيات) ولكنهنّ لم يَرُقن له جميعاً. اكتأب الباشا طويلاً قبل أن يهرع له أمين سرّه بيت المال بنساء تاجوراء. وقد منّى نفسه بنيل صنوف السعادة في أحضانهن لولا تدخّل المفتي. لقد صدّق هذا الأبله أنه مفتي ديار المملكة بالفعل يوم استصدر في حقّه فرماناً لحاجةٍ شاء أن يقضيها فما كان منه إلاّ أن صدّق الكذبة وتصرّف منذ ذلك الحين كمفتٍ حقيقي. والأنكى من كل سفالاته قدرته على بثّ الشائعات في آذان الرعية إلى حدّ فكّر فيه

أكثر من مرّة أن يعزله من منصب الإفتاء ويقضي بتعيينه بوقاً يجسّ به نبض الرعيّة قبل أن يستصدر فرماناً يستدعي جسّ النبض مثل الفرمانات التي تقضي بزيادة المكوس على سبيل المثال. وها هو هذا المخبول يتسكّع بين الوجهاء مردّداً فتاوي غريبة تحرّم على وليّ الأمر الدخول عى النساء دون عقد قران بحجّة أنهن رعية، والرعية في فتواه تعني أنّهن إماء. والأَمَة إذا أنجبت من مولاها سليلاً (سواء أكان ذكراً أم أنثى) فهو عبد إذا كان ذكراً، وأَمَة إذا كانت أنثى. والشرع لا يجيز صفة العبودية لأبناء صاحب السلطان ما لم يتنازل السلطان عن العرش! هذا المخبول الذي التقطه من قمامات الأزقّة يسمح لنفسه اليوم بالفتاوي التي تجيز للشرع أن تخلع يوسف القرمانلي عن العرش!

ولكن البليّة في أنه لا يستطيع أن يخلعه، ولا أن يقتله، ولا أن يسكته، بعد أن ملأ آذان الرعية بفتاويه المزعومة لأنه لو فعل لتيقّن الكلّ بأنه هو، يوسف باشا القرمانلي، الفاعل. سيقولون ذلك منذ اليوم سواء أفعل هو ذلك أم فعل أي مخلوق آخر. وبدل أن يبعث له بأحد المردة ليكتم أنفاسه كما اعتاد أجداده أن يفعلوا مع خصومهم، فعل العكس: بعث بعتاة المردة ليحموه بدل أن يكتموا أنفاسه. بعثهم ليجيروه من الأعداء حرصاً على سمعته لا حرصاً على حياة الوغد! وها هو يقف الآن في غرفة للاّحلّومة، في ربوع الصحن المسمّى في لسان العامّة بـ«الأسباني»، ينتظر هذا الدّعي نفسه ليعقد له على حسناء تاجوراء التي استقدمها بيت المال بالأمس. يقف في انتظار مراسم عقد القران الكريهة في الغرفة نفسها التي أطلق فيها

النار على شقيقه حسن بك ليرديه قتيلاً. وهي الغرفة نفسها التي أغلقت للاّ حلّومة أبوابها حزناً على فقيدها طوال أعوام.

سمع الباشا طرقاً على الباب. التفت فأطل الحاجب من ضلفة الباب. همس:

ـ المفتي ينتظر الإذن بالدخول يا مولاي!

أومأ له بالإذن فتنحّى ليفسح السبيل لثلّة الأوغاد: دخل المفتي بمعيّة عصابة أطلق عليهم الوغد اسم الشهود لم يستحِ أن يقدّمهم له بأسمائهم كأنه هو من دعاهم للمشاركة في مأدبة:

ـ هذا يا مولانا عبد الله محمد بن الحاج حسين القضاوي، شاهد أول. وهذا يا مولانا أحمد بن عبد الرحمن العسوس، شاهد ثانٍ، وهذا يا مولانا. .

أوقفه بنفاد صبر قائلاً:

ـ فلننهِ المهزلة فلا وقت لدي!

جلس فجلس فضيلة الشيخ، ولكن الشهود الثلاثة انتصبوا وقوفاً. بدأ الشيخ تلاوة نص القِران:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم. تمّ اليوم على منهج شرع الإسلام وسنّته عقد قران مولانا. .

قاطعه الباشا:

ـ دعك من هذا كلّه وحدثنا عن الصداق!

سكت الشيخ على مضض. تناول قرطاساً آخر. قرأ:

ـ قدر الصداق أربعمائة ريال عملة الوقت، وخمسة أرطال فضّة، وأربعون مثقالاً ذهباً، وأوقيتا جوهر. .

قاطعه الباشا:

ـ هذا يكفي! أم أنّك تظنّني قررت الاقتران بسليلة سلطان من السلاطين حتّى أغرقها بكنوز الأرض؟ عليك بشطب أوقيتيّ الجوهر!

تبادل الشهود نظرات الحرج. همّ الشيخ بمواصلة القراءة، ولكن الباشا أسكته:

ـ التوقيع!

انتهت المراسم على عجل فاختلى الباشا بعروسه في تلك الليلة. ولكن مقامه مع العروس لم يدم سوى ساعات خرج بعدها الباشا من المخدع كأنه يلوذ بالفرار. وقد روى شهود العيان من الخدم أن الباشا عاد على عقبيه ما إن خرج ليصرخ في عروسه بصوت عالٍ:

ـ أنت طالق! أنتِ طالق مائة مرّة!

وعندما اعترضه الحاجب وهو في طريقه إلى مكتبه صرخ في وجهه:

ـ عشرون جلدة لبيت المال، ومثلها لمفتي الديار الطرابلسية!

10

تونس. سيدي بو سعيد. 1796م.

وجد سيدي أحمد نفسه في تونس، في حيّ سيدي بو سعيد الذي يلثم البحر قدميه، بل في البيت ذاته الذي اختاره الباشا الأب ليكون له عشاً في أيّامه الأخيرة التي سبقت العودة إلى طرابلس. لقد سخر من إصرار الباشا يومها على ترك القصر الذي خصّصه الباي

حمّودة للعائلة، واستبداله بالدّار المؤلفة من بضع غرف كلّ مزاياها إشرافها على معشوقه البحر. ولم يدرِ يومها أن الأقدار سوف تسخر منه أيضاً فتدفعه للإقامة في المأوى الذي سخر منه مرّةً مطلقاً عليه اسم «الشقّ»! وها هي الأقدار تسخر منه أكثر فتعيده إلى تونس عارياً من العرش بعد أن خرج منها يوماً وهو صاحب عرش. جاءها في المرّة الأولى مقهوراً ليخرج منها قاهراً، وها هو يعود إليها اليوم مقهوراً مرّة أخرى، فهل يخرج منها قاهراً أيضاً؟ هل تصير له تونس تميمة حظّ كما في الماضي، أم أنها ستخيّب ظنّه هذه المرّة فتقلب له ظهر المجن؟

خرج للتجوّل على الشاطىء قبيل المغيب. قطع مسافة قبل أن يلتفت ليرى الرجل الذي أطلقه خلفه الباي حمّودة منذ أوّل يوم ليكون له بمثابة الملاك الحارس، وكذلك بمثابة الجاسوس عليه. لقد قطع على نفسه العهود القاضية باعتزال السياسة، ولكنه لم يستطع أن يفي بوعده. كان يعلم أن الباي نفسه لم يصدّق وعوده، لأن صاحب السياسة أدرى الناس بطبيعة هذه اللعنة. وقد ضبط نظرته الساخرة بعد نطقه بالوعد كأنها تقول: «أعلم أنّك تكذب، ولكن افعل ما بوسعك لئلاّ «تحرجني!». لم يفته في ذلك اللقاء أن يذكّره بمسلك أبيه زمن المنفى، وزهده في حطام الدنيا بعد انقشاع المحنة، كأنه يدعوه للاقتداء به. حاول بعدها أن ينسى هويّته صادقاً علّ نسيان الهوية يعينه على دفن ماضيه، ولكن هيهات! ربّما أفلح هو في نسيان الماضي، ولكن الماضي هو الذي ذكّره بنفسه. الماضي هو الذي رفض الصفقة فوجد رسول الماضي في انتظاره.

فبعد أيام من وصوله أقبل عليه زائر في إحدى الأمسيات قائلاً إنه رسول شيخ قبائل ورغمّة التي لعبت دوراً بطولياً في حشد القبائل زمن المحنة وسارت في طليعة جيش الباي في زحفه على طرابلس لتحرير البلاد من طغيان علي بن زول. الرسول نقل له رسالة شفوية من شيخ القبيلة عبّر فيها عن تعاطف المملكة بقبائلها وأعيانها ورعيّتها، وقال إن الكلّ لا ينتظر إلاّ إشارة منه للتخلّص من حكم الرجل الذي أقدم على اغتيال شقيق يستجير بحضن أمّه، فكيف يأمنه الناس على رقابهم ورقاب ذويهم؟ الرسول تحدّث طويلاً عن استياء الناس من مكيدة أخيه الأخيرة للاستيلاء على العرش، والرعيّة تلهج بذكره وتتمسّك بسلطانه الشرعي على عرش طرابلس لا سلطان المغتصب يوسف.

أنصت للرسول طويلاً، ثمّ طلب أن يمهله بضعة أيام. ذهب الرسول فافترسته الشكوك. ألن يكون الرسول دسيسة أخرى من دسائس يوسف؟ أم إنه رسول من رجالات الباي حمّودة بعث به دعيّاً ليجسّ النبض ويستكشف نواياه بشأن الوعد؟ أم إن الأمر لا يعدو أن يكون مؤامرة مدبّرة من الطرفين؟ بأي حيلة يستطيع أن يتحقّق من هوية الرسول؟ لا سبيل لمعرفة حقيقة الرسول إلاّ بالاتصال بشيخ ورغمة على نحوٍ مّا. قرّر أن يكتري رجلاً موثوقاً لإيفاده إلى شيخ ورغمّة، ولكن كيف السبيل للاهتداء إلى هذا الرجل إذا كان جواسيس الباي يقتفون أثره ويترصّدونه في كلّ خطوة؟

خيّم على الشطآن غيهب المغيب فعاد على عقبيه. سار على الضفاف المغمورة بحبيبات حصباء تتناثر فوقها القواقع الخاوية

بمختلف الأحجام والألوان. تلهّى بركل القواقع غائباً حتّى أدرك الطريق المؤدي إلى أعلى. في ركن بنيان سوق الأسماك شاهد صاحب الطربوش الناصع يستند إلى الجدار متظاهراً بمعاندة نعل بين يديه.

ابتسم وبدأ يصعد في طريقه إلى البيت.

هجع على الأريكة ليسترخي. ولكن أحد الخدم (الذين أقامهم الباي على خدمته) ما لبث أن استباح عزلته معلناً وصول أحد الأشياخ. فزّ من هجعته مستفهماً عمّا إذا كان الشيخ قد أقبل عليه رسولاً من شيخ قبيلة ورغمّة، ولكن الرجل هزّ رأسه نفياً قبل أن يقول:

- الشيخ قال إنه أحد أعيان تونس!

تعجّب:

- هل قلت إنه أحد أعيان تونس؟

ابتسم الرجل قبل أن يجيب:

- هو الذي قال يا سيّدي!

ابتسم أيضاً قبل أن يتساءل:

- ماذا يريد؟

- قال إنه يريد أن يحدّثكم على انفراد!

أومأ له فغاب لحظات قبل أن يأذن للشيخ بالدخول: كان عجوزاً نحيلاً، موسّماً بالغضون، يعتمر طربوشاً قانياً، يتوكّأ على عكّاز مطوّق بحلقة فضيّة مزبورة برموز شبيهة بالنقوش الهيروغليفية. مدّ له يداً هزيلة تكسوها شبكة عروق كأنها لحاء الشجر قائلاً:

ـ أنا بو جمعة! إسمي المنجي بوجمعة، شيخ طريقة!

تعجّب أحمد القرمانلي:

ـ هل قلت شيخ طريقة؟!

قال الشيخ وهو يتخذ مكانه على الأريكة:

ـ نعم. شيخ طريقة إذا شئت!

ـ عن أية طريقة يتحدّث الشيخ؟

نصب الشيخ عكّازه أمام وجهه. وضع على عقفته كلتا يديه. تفرّس في وجه جليسه بعينيه الكابيتين كأنه يتبيّنه ثم أجاب:

ـ أتحدّث عن الطريقة القادرية، أو العيساوية، أو الشاذلية، لأن كل الطرق في النهاية أسماء مختلفة لحقيقة واحدة!

تابعه سيدي أحمد بفضول. سأل في النهاية:

ـ هل يظنّ فضيلة الشيخ أن الطرق الصوفية أسماء مختلفة لحقيقة واحدة حقّاً؟

أجاب الشيخ بصوت واهن مشوب ببحّة:

ـ لو لم تكن الطرق الصوفية أسماء مختلفة لحقيقة واحدة لما سُمّيت طرقاً! ولكنّنا سنرتكب خطأً جسيماً إذا قلنا إن الحقيقة (المستعارة من اسم مذكّر هو الحقّ) يمكن أن تنقلب «حقائق» كما ينعتها النحاة البلهاء في صيغة الجمع!

ابتسم سيدي أحمد. تأمّل ضيفه بفضول. قال:

ـ هل يريد فضيلة الشيخ أن يقنعني بأن جمع كلمة حقيقة خطأ لغوي؟

أجاب الشيخ وهو يرمقه بحدقتيه الصغيرتين فيبدو كأنه يرنو إلى الجدار وراء جليسه لا إلى جليسه:

- جمع كلمة حقيقة ليس خطأً لغوياً فحسب، ولكنه خطيئة أخلاقية!

تعجّب سيدي أحمد:

- خطيئة أخلاقية؟!

- خطيئة أخلاقية تستوجب الرجم بالحجارة قصاصاً!

حدّق سيدي أحمد في وجه ضيفه كأنه شبح، ثم ابتسم. سأل:

- هل يَرِدُ هذا في ناموس طريقتكم؟

- يرد هذا في ناموس كلّ الطرق، أو يجب أن يرد في ناموس كل الطرق!

هيمن صمت. استمرّ سيدي أحمد يتطلّع إلى ضيفه دون أن يخفي فضوله. على شفتيه ارتسمت ابتسامة امتزج فيها الحِلْم بالحُلُم بالاستخفاف. قال الشيخ:

- يؤسفني أن أقتحم عليكم خلوتكم، ولكني على يقين أنكم سوف تجدون لي العذر عندما تسمعون من فمي الوصيّة!

استغرب سيدي أحمد:

- الوصيّة؟!

قبض الشيخ على عقفة عكّازه بكلتا يديه. أغمض عينيه كأنه كاهن يستحضر من الغيوب نبوءة. قال مغمض العينين:

- الوصيّة تقول إن الخطيئة التي تقترفونها أسوأ مائة مرّة من

الخطيئة التي يقترفها دهاة اللغة عندما يبيحون لأنفسهم جمع اسم الحقيقة في كلمة حقائق!

أفلتت من فم سيدي أحمد ضحكة مباغتة. ضحكة مكتومة، ولكنها طاغية. ترجرج صدره زمناً قبل أن يفلح في قمع ضحكته ليقول:

ـ هل لي أن أعلم ما هي طبيعة هذه الخطيئة؟

أجاب الشيخ بلهجة تسامح:

ـ ما كان يجب أن تستنكروا عمل الخطيئة لو تذكرتم أنّنا كلّنا في هذه الدنيا خطاة!

استعاد وجه سيدي أحمد سيماء الجدّ. قال:

ـ أرجو المغفرة يا فضيلة الشيخ. كلّ ما في الأمر أن التهمة فاجأتني!

سكت ثم أضاف:

ـ هل يستطيع فضيلة الشيخ أن يعلمني بحقيقة الخطيئة التي يرجمني بها؟

أجاب الشيخ بلهجة كاللامبالاة:

ـ خطيئة السلطة!

عبس سيدي أحمد طويلاً قبل أن يتململ في جلسته. سأل وهو يفترس الشبح بعينيه:

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول إن ممارسة الحكم هو ممارسة للمنكر!

ساد سكون. في الخارج انطلق صوت المؤذن من صومعة الجامع المجاور فتمتم الشيخ:

ـ صدق الحقّ!

ثم أضاف:

ـ ستقول إنّكم هكذا وجدتم آباءكم. ستقول إنكم ورثتم هذا الوباء عن أسلافكم القدماء. ستقول إنكم لا تجدون ما يمكن أن يلهيكم في دنياكم غير ممارسة هذه الدمية الشريرة. ولكن عليكم أن تعلموا أن هذه الحجج لا تقنعكم حتّى أنتم، فكيف تريدون أن تقنعوا بها أصحاب الطريقة؟!

سكت سيدي أحمد لحظات قبل أن يقول:

ـ الحقّ يا صاحب الفضيلة أننا لا نريد أن نقنع أحداً لأننا بهذه اللعبة (كما تسمّيها) إنما نمارس عملنا كما يمارس كلّ إنسان في هذه الدنيا عمله!

ـ هل تستطيع أن تسمّي قتل الناس مثلاً ممارسة لعمل؟

ـ كلاّ بالطبع!

ـ هل تستطيع أن تسمّي قيام الإنسان الفاني بانتحال دور الحقّ الخالد فعلاً من قبيل ممارسة العمل الدنيوي؟!

استنكر سيدي أحمد:

ـ بأيّ حقّ يسمح فضيلة الشيخ لنفسه بعقد مقارنة بين عملنا وبين انتحال المخلوق لدور الخالق؟!

ابتسم الشيخ لأوّل مرّة كاشفاً عن فمٍ خاوٍ من الأسنان. قال مغمض العينين:

ـ إذا كنت تعتقد أن ممارسة السلطان الأرضي لا علاقة لها بممارسة السلطان السماوي فأنت لست واهماً فحسب، ولكنّك غرّ!

صاح سيدي أحمد مستنكراً:

ـ غرّ؟!

ـ بالطبع غرّ! ولو لم تكن غرّاً حقّاً لما أفلح أخوك يوسف في انتزاع الغنيمة من بين يديك!

عقدت الدهشة لسان سيدي أحمد، فأضاف الشيخ:

ـ لو آمنتَ كما آمن هو بأن تولّي أمر الناس ما هو إلاّ انتحال لدور هو دور الربّ لما أفلح في انتزاع الغنيمة من بين يديك!

غمغم سيدي أحمد:

ـ ماذا تقول؟

ـ بلى، بلى، أنت أخفقتَ في الاحتفاظ بالغنيمة لأنّك لم تدرك حقيقة الغنيمة التي سقطت بين يديك. لقد ظننتَ أنها عمل لا يختلف عن أي عمل كما اعترفتَ منذ قليل، في حين أدرك شقيقك يوسف حقيقتها كخطيئة منذ البدء. وقد عامل العرش (أو فلنقل الفوز بالعرش) كخطيئة منذ أوّل يوم. كان الوغد منذوراً لهذه الخطيئة منذ البدء. ولو لم يكن الأمر كذلك لما تمكّن من الإجهاز على شقيقكما الأكبر حسن بك!

برطم سيدي أحمد غائباً:

ـ عجيب!

ـ ما أريد أن أقوله لك يا بني هو إن الأقدار طوّقت كلاّ منّا

برسالة منذ الولادة، ولكنّنا كثيراً ما نخطىء في قراءة هذه الرسالة فنمارس أعمالاً لم تُخلق لنا ولم نُخلق لها. ولا نستيقظ من غيبوبتنا إلاّ بعد فوات الأوان. أعني بعد أن نخفق في دنيانا!

تساءل سيدي أحمد باهتمام:

ـ هل تريد أن تقول إنني أمارس عملاً لم أُخلق له عندما أتطلّع لاستعادة عرش هو من حقّي؟

زفر الشيخ بإعياء. أجاب بصوت أشد ضعفاً:

ـ أنت لا تمارس عملاً لم تُخلق له بالتطلّع إلى استعادة العرش فحسب، ولكنّك ترتكب في حقّ نفسك إثماً منكراً قبل أن ترتكبه في حقّ رعيتك! هل تدري لماذا؟

لم ينتظر جواباً. أجاب:

ـ لأنّك لم تدرك حتى الآن أنّ خطيئتك ليست وليدة اليوم، ولكنّها وليدة ذلك التاريخ الذي أعقب مصرع شقيقك الأكبر حسن بك!

ـ أنت تومىء إلى قبولي للبكوية في ذلك اليوم المشئوم بدل أن أتخلّى عنها لأخي يوسف، أليس كذلك؟

أجاب الشيخ بلهجة نصر:

ـ ها أنت تستعيد كنزاً أضعت إليه السبيل طويلاً.

ـ كلاّ يا فضيلة الشيخ! لم أضيّع السبيل إلى هذا الكنز يوماً، ولو كانت حرمي بجواري في هذا البيت لأدلت بالشهادة التي ستبرىء ساحتي من هذه التهمة؛ لأني قلت لها عقب مراسم التتويج إني خسرت في ذلك اليوم نفسي!

هتف الشيخ:

ـ مرحى! مرحى! هذا ما شئت أن أسمعه. ولكن ماذا فعلت يا أحمد بن علي القرمانلي كي تستعيد ضميرك؟ لم تفعل شيئاً. تجاهلتَ النبوءة واستمرأت الخطيئة التي لم تُخلق لها ولم تُخلق لك بدل أن تتركها لصاحبها الذي خُلق لها وخُلقت له!

ـ لصاحبها؟

ـ بلى. لصاحبها. لشقيقك يوسف! أم إنّك ما زلت تشكّ أن هذه اللعنة هي من نصيبه وحده؟

ساد صمت. قال سيدي أحمد غائباً:

ـ ما هو، يا فضيلة الشيخ، مجمل الوصيّة؟!

تحسّس الشيخ الطوق الفضّي الذي يلتفّ حول عكّازه. قال بصوت كالهمس:

ـ مجمل الوصيّة يقول: كفّ عن مطاردة الخطيئة إذا شئت أن تنجو!

قال سيدي أحمد:

ـ ألا يظنّ فضيلة الشيخ أن الأوان الآن قد فات؟

أجاب الشيخ بلهجة يقين:

ـ الأوان لا يفوت أبداً لمن قرر أن يفوز بالتوبة!

زفر سيدي أحمد بيأس، ولكنه لم ينبس. أضاف الشيخ:

ـ إنسان لم يفلح في الإقلاع عن شيء أَدْمَنه لن يضمن ألاّ يخذل من أحسن إليه!

هَمَّ سيدي أحمد بأن يستفهم، ولكن شيخ الطريقة دقّ عكازه في سجّاد الأرض ليضيف:

ـ لا تحسبنّ، يا بنيّ، أن الإنسان الذي أجارك مرّتين بالأمس في غفلة عمّا تفعل اليوم!

سأل سيدي أحمد بدهشة:

ـ ماذا أفعل؟

ابتسم الشيخ بغموض. عاد يقرع السجّاد بعكّازه. قال بلهجة ذات معنى:

ـ استقبال رسل القبائل خيانة للعهد!

تطلّع إلى جليسه بعينين شبيهتين بشقّين ثم أضاف:

ـ واهم من ظنّ أن خافيةً يمكن أن تُخفى عن مخلوقٍ تولّى أمر الناس!

مال سيدي أحمد نحو الشيخ. حدّق في عينيه. حشرج:

ـ هل يريد فضيلة الشيخ أن يقول إن الرجل الذي زارني منذ أيام هو رسول زعيم قبائل ورغمّة حقّاً؟

تساءل الشيخ بشكّ:

ـ وهل حسبته رسولاً مزوّراً؟

ـ ليس لشريدٍ مثلي أن يصدّق كلّ من هبّ أو دبّ!

ـ هذا من حسن حظّك!

ـ أعترف أني ظننته جاسوساً من جواسيس سيدي يوسف، أو عميلاً من عملاء الباي أراد به امتحاني!

تضاحك الشيخ بو جمعة مستلقياً إلى الوراء. عبث بطوق عكّازه المزبور بالطلسمات السحرية قبل أن يقول:

- أبشر فأنت حميم أقدار!

استنكر أحمد القرمانلي:

- أيحسبني صاحب الفضيلة حميم أقدار بعد كلّ ما فعلته بي الأقدار؟

- نحن حميمو أقدار ما لم تدفعنا مشيئة الأقدار للإخلال بالواجب!

توجّع سيدي أحمد بأنين. قال:

- ما أشقى صاحب الواجب يا فضيلة الشيخ!

وافقه الشيخ:

- بلى. صاحب الواجب مخلوق شقيّ بناموس الدنيا، ولكنه سعيد بناموس رب السماوات والأرض!

سخر سيدي أحمد:

- أين نحن من ناموس الربّ؟ ألا يحقّ لصاحب الواجب أن يحيا كما يحيا الناس؟

استنكر الشيخ:

- كلاّ! صاحب الدنيا صاحب قربان، وسعادة صاحب القربان في إحساسه بأنه قربان!

سرح سيدي أحمد. قال بلهجة من اغترب بعيداً:

- أذكر أن إنساناً جاءني يوماً كما جئتني الآن ليحذرني من

البكوية. قال إني منذور لأمرٍ آخر أيضاً، ولكن لم يخطر ببالي يوماً أنّي كبش تحت نصل سيدنا إبراهيم!

تمتم الشيخ:

ـ كلّنا أكباش فداء في هذه الدنيا!

اعترض سيدي أحمد بلهجة استهزاء:

ـ يوسف باشا لم يكن كبش فداء يوماً!

حاججه الشيخ:

ـ لا معنى لوجود الضحيّة إذا عدم وجود الجلاّد!

غمغم سيدي أحمد بحزن:

ـ لا أعرف ماذا أفعل بنفسي أنا الذي لم يتقن في دنياه عملاً غير البكوية!

أغمض الشيخ عينيه. ترنّح كأنّه يستجيب لنوبة وَجْد. قال:

ـ لك في أبيك علي باشا قدوة: عاش شقيّاً بالعرش، ولم يعرف السعادة إلا يوم تحرّر من العرش!

ـ لقد سخرتُ من مسلكه يومها، ولم أدرك حقيقته إلاّ اليوم!

تمتم الشيخ:

ـ السعادة هي الحرية!

ردّد سيدي أحمد:

ـ السعادة هي الحرية، ولكن. .

تردّد لحظات. تساءل:

ـ ولكن أليست الحرية وجهاً من وجوه الموت؟

قال الشيخ بلهجة عرّاف يروّض نبوءة:

ـ جميل هو الموت الذي يأتي لنا بالحرية!

11

صمّم الباشا على استئصال ورم اسمه «خواء الخزينة» فلم يجد سبيلاً سوى البحر. استدعى ربابنة السفن بحضور الريّس مراد ليلقي لهم بسؤال: «عندما تذهب قوافلنا لتأتي لنا بالبضائع من برّ «برنو»، أو «كانو»، أو «تينبكتو»، ألا يدفع أرباب هذه القوافل إتاوات لأهل الصحراء الذين تمرّ هذه القوافل بصحاريهم؟». أجاب جمع الربابنة بصوت جماعي: «بالطبع يدفع أرباب قوافلنا لأهل الصحراء إتاوات يا مولانا!». سكت الباشا لحظات. أضاف للسؤال سؤالاً آخر: «أليس هذا البحر الذي يترامى أمامكم الآن هو صحراؤنا كما الصحراء بحر أهل البراري التي تستلقي جنوباً؟». أجاب الربابنة: «بلى يا مولانا: البحر هو صحراؤنا كما الصحراء بحر أهل الصحراء!». عاد الباشا يتساءل: «لماذا لا نسمّي أهل الصحراء قطّاعاً للطرق بأخذهم للإتاوات على القوافل التي تعبر أوطانهم، في حين يبيح النصارى لأنفسهم أن يطلقوا علينا اسم القراصنة عندما نبيح لأنفسنا أن نأخذ منهم تلك القروش المزرية، مقابل أن نتخلّى لهم عن الكنوز المجزية، كأننا نتلقّى من أيديهم إحساناً هو حقّ أباحه لنا وطننا المسمّى في معاجم كل الأمم «بحر ليبيا» منذ القدم؟».

علت في البلاط همهمات الاستحسان قبل أن يتولّى الريّس مراد الإجابة بالنيابة عن ربابنته: «يأبى استكبار النصارى إلاّ أن ينكروا علينا حقّنا يا مولانا!». طاف الباشا يومها وجوه الربابنة. كانت سيماء الوجوه شرسة، تنطق بالانفعال والحماس والعنف، لأنها لم تألف يوماً لهواً سوى الانفعال والحماس والعنف. قال الباشا: «إذا أنكر علينا النصارى حقّاً كالحقّ الذي أباحته الشرائع لأهل الصحراء منذ أقدم زمن، أفلا يحقّ لنا أن ننتزع هذا الحقّ انتزاعاً؟». زعزعت هتافات الربابنة أركان البلاط. أسكتهم الباشا: «عليكم أن تؤمنوا في غزواتكم أنكم تنتزعون حقّاً مغتصباً، لأن من شأن الشكّ أن يثبط عزيمتكم في استرداد هذا الحقّ!».

عمّ الهرج مرّة أخرى، ولكن الباشا دفع بحجّة أخيرة: «أنتم أبطال جهاد ولستم قراصنة بحار!».

خرج ربابنة البحار من البلاط في ذلك اليوم وهم يتصايحون كالغوغاء ليدفنوا غلّهم في حملة تاريخية على البحر غنموا فيها سفناً هولندية، ودنمركية، وسويدية، وروسية، وسفينة للبندقية، وسفينتين أمريكيتين اثنتين. وما إن بلغ نبأ وقوع السفينتين الأمريكيتين في الأسر حتى هرع المستر «لوكاس» قنصل أمريكا إلى قصر السراي طالباً المثول العاجل بين يدي الباشا. ولكن الباشا لم يأذن بالمثول بين يديه إلاّ بعد أن استحضر الوزير الدغيّس والريّس مراد وزير شئونه البحرية. كان الدغيّس يقف على يمين الباشا، في حين وقف الريّس مراد على يساره بكبرياء الملوك الذين استنزل عليهم ملك الحظوظ سيادة.

قال الباشا:

ـ تلكّأت حكومتكم في توقيع المعاهدة، وها أنتم تدفعون الثمن!

تطلّع القنصل إلى الدغيّس، ثم إلى الريّس مراد كأنه يستنجد بهما. ولكنه لم يقرأ في سيماء الدغيّس سوى البرود، في حين أبصر في نظرة رئيس البحرية خبثاً لم يبذل الريّس مراد جهداً كي يخفيه. خاطب الباشا قائلاً:

ـ لم نكن لنتأخر عن توقيع المعاهدة، يا سعادة الباشا، لو لم نرَ في أحد بنودها شرطاً تعجيزيّاً!

قال الباشا ببرود:

ـ كل القناصل يرون في المعاهدات التي يزمعون توقيعها معنا شروطاً تعجيزية في البداية، ولكنهم سرعان ما يكتشفون خطأهم فيما بعد كما اكتشفتم أنتم أيضاً هذا الخطأ اليوم!

عمّ وجوم. في سيماء الرجال لم يرَ القنصل «لوكاس» سوى البرود. قال:

ـ لم نطلب، يا سعادة الباشا، سوى اتفاقية مثيلة للاتفاقية التي وقعتموها مع دولة مثل سردينيا!

علا صوت الباشا مستنكراً:

ـ دولة مثل سردينيا؟ ولماذا علينا أن نعاملكم كما نعامل دولة مثل سردينيا؟

غزا الشحوب سيماء القنصل. اختلس نظرة خاطفة إلى الوزيرين قبل أن يقول:

ـ لا أعرف، يا سعادة الباشا، سبباً يمنع من معاملتنا معاملة دولة مثل سردينيا؟

أطلق الباشا ضحكة استخفاف. انتصب واقفاً. تخلّى عن جوف العرش. خطا في البلاط بقامته القصيرة فتبدّى مثل دمية مثيرة للضحك. سأل دون أن يتوقّف عن التسكّع ذهاباً وأياباً:

ـ هل يعلم السيد قنصل الولايات الأمريكية المتحدة أين تقع سردينيا هذه التي يتحدّث عنها؟

تنقّل القنصل ببصره بين الوزيرين حائراً. أجاب:

ـ ما أعلمه، يا صاحب السعادة، أن سردينيا تقع على الشاطىء الآخر للبحر!

الباشا: الشاطىء الآخر لأيّ بحر؟

القنصل: الشاطىء الآخر لهذا البحر!

الباشا: ما اسم هذا البحر؟

القنصل: ما أعلمه أن أسماءاً كثيرة حملها هذا البحر في تاريخه بدايةً باسم «بحر ليبيا»، ونهايةً بـ«البحر المتوسط» مروراً باسم «بحر الروم» إن لم تخذلني الذاكرة!

الباشا: ها أنت تعترف بـ«بحر ليبيا» كأوّل اسم لهذا البحر، فشكراً لك لأنك لم تشأ أن تنكر علينا بحرنا كما يروق للكثيرين اليوم أن يفعلوا!

القنصل: ولكني ما زلت لم أفهم سرّ العلاقة بين اسم البحر وبين امتياز تتمتّع به سردينيا دون غيرها من الدول!

الباشا: لقد اعترفتم منذ قليل بموقع سردينيا على شاطىء بحر ليبيا الآخر. وهو ما يعني أن سردينيا هذه تقع على بحر ليبيا وليس على أي بحر آخر. هذا الموقع يعطي سردينيا حقوقاً لا نستطيع أن نتجاهلها: أوّلها حقوق الجوار التي تروّج لها ديانتنا، وربّما كل الديانات. ثاني هذه الحقوق الشراكة؛ لأن وجودها على الضفة الأخرى من هذا الوطن الذي تسمّونه أنتم بحراً يعطي سردينيا امتيازاً إضافياً تحرّم الأعراف المساس به مثله مثل حقّ الجوار. أمّا الحقّ الثالث فهو حقّ الدمّ، لأن لا أحد يستطيع أن ينكر أن الجوار إذا صار تاريخاً يحتّم وجود ذلك الرباط المقدّس الذي نسمّيه تصاهراً أو تزاوجاً أو اندماج السلالات. ونحن لا نستطيع أن نشكّك في حقيقة هذا الرباط أو نعطي لأنفسنا الحقّ في أن ننفي عنه صفة القداسة حتى لو حدث نتيجة خصومات أو نزاعات أو حروب. فهل يستطيع السيد قنصل الولايات الأمريكية المتحدة أن يفهم منطقنا هذا؟ أعني ألا تعدّ هذه الحجّة مبرراً كافياً لفهمنا عندما نفرّق في بنود الاتفاقيات بين دولة ودولة أخرى؟

القنصل: يستطيع سعادة الباشا أن يقنعني بهذا المنطق، ولكن يؤسفني ألاّ أستطيع إقناع أولئك الذين يتولّون الأمر في بلادي بهذا المنطق!

الباشا: هل رأيت؟ عجزكم في إقناع أولئك الذين يتولّون أمر بلادكم بهذا المنطق يعجزني أيضاً عن توقيع معاهدة تماثل المعاهدة التي تمّ التصديق عليها مع سردينيا!

تطلّع القنصل إلى الدغيّس مستنجداً، ولكن وزير الشؤون

الخارجية فرّ ببصره إلى السقف. اختلس نظرة نحو الريّس مراد فضبط على شفتيه بسمة شماتة بدل إيماء التعاطف. قال:

ـ ولكن سعادة الباشا قد لا يدري أن إحدى السفينتين الأمريكيتين تحمل أوراقاً ثبوتية من «داي الجزائر»!

ساد وجوم مضى الباشا ينتهكه بصوت ارتطام حذائه برخام البلاط قبل أن يتوقّف ليستفهم بلكنة دهشة:

ـ هل قلت أن إحدى السفينتين تحمل هوية «داي الجزائر»؟

في سيماء القنصل تألّق الأمل:

ـ السفينة، يا صاحب السعادة، تحمل الجزية إلى حسن باشا تنفيذاً للصلح الذي تمّ إبرامه بين حكومة الولايات المتحدة والجزائر!

تطلّع الباشا إلى الريّس مراد حانقاً، ثم التفت إلى القنصل:

ـ إذا ثبت ما تقول فإن سراح السفينة سوف يُطلق في الحال!

كوّر قبضته وزمّ شفتيه قبل أن يضيف:

ـ أمّا السفينة الأخرى فسوف يتمّ تهيئتها بأنسب الأسلحة لتتمكّن من اختطاف سفن الولايات المتحدة الأخرى، آملاً التفضّل بإبلاغ حكومة بلادكم بأن الحملة لن تتوقّف ما لم يتمّ التوقيع على المعاهدة بيننا!

خطا الباشا نحو المنضدة. تناول جرساً ذهبياً صغيراً من على المنضدة. قرع الجرس إيذاناً بانتهاء المقابلة.

خرج القنصل فالتفت الباشا إلى صاحب البحريّة. تطلّع إليه طويلاً قبل أن يزأر:

ـ الخنزير مراد!

انكمش الريّس مراد في وقفته دون أن يجرؤ على مواجهة الباشا بعينيه. صاح الباشا:

ـ كيف تجرؤ على إحراجي في كل مرّة أمام أغراب بلاد الأغراب يا خنزير الإنجليز؟

زفر بوحشية قبل أن يضيف:

ـ أم أنّك تظنّ أن احتضانك لبنت الباشا في مخدع الليل يمكن أن يشفع لك استهتارك بي في كل مرّة؟

قرع الجرس مرة أخرى فاقتحم الحاجب المكان. أمر الباشا:

ـ خمسون جلدة سوط على ظهر هذا الخنزير الكريه، وخمسون قرعة فلقة على حافريه القبيحين!

12

في نهارٍ مغسول السماء من السحب خرج المستر «لوكاس» إلى ضاحية المنشية كأنه يفرّ من سجن. تطلّع إلى السماء العارية ما إن عبر باب هوّارة، فأدهشته زرقتها كأنه يراها لأوّل مرّة. قطع به الجواد مسافة أخرى فتنفّست الأرض في وجهه بعطر الحقول: رائحة العشب المبلّل، وشذى زهور البريّة، والطين المغمور بالمياه.

توجّع بأنين قبل أن يخاطب مستشاره:

ـ إذا لم تحدث معجزة فسوف أختنق في هذا المعتقل!

كان مستشار القنصلية يمتطي جواداً نزقاً أشبه في عناده بالبغل منه

بسلالة الجياد ظلّ يروّضه منذ تحرّرا من أزقّة المدينة في طريقهما إلى بوابة السور، يتقدّمهم أحراس مدججون بالبنادق والخناجر والسيوف، تنفيذاً لتنبيهات الباشا التي تحذّر قناصل الدول الأجنبية من لؤم الرعية وغدر اللصوص.

فزّ الجواد بالمستشار، ولكنه أفلح في كبح جماحه مرّة أخرى قبل أن يخاطب القنصل:

ـ أنت ستختنق بسبب فساد هواء المدينة، أمّا أنا فسوف أختنق بسبب فساد طبع هذا الجواد!

ولكن القنصل لم يستجب للملحة. قال غائباً:

ـ فساد طبع هذا الجواد أهون من فساد طبع الباشا!

ابتسم المستشار وهو يشدّ اللجام. قال:

ـ فساد طبع الباشا تسبّب في مرض قنصل هولندا!

ـ المرض بليّة هيّنة إذا قيس بما يقال عن تسبّب الباشوات في هلاك قناصل كثيرين في تاريخ هذه البلاد!

تضاحك المستشار فانتهره القنصل:

ـ هذه ليست نكتة!

ساد صمت. علّق المستشار:

ـ ولكن يجب أن نعترف بأن شمس هذه البلاد بلسم يا سعادة القنصل.

قاطعه القنصل:

ـ كان بإمكان شمس هذه البلاد أن تكون لنا بلسماً أقوى لو لم يكدّرها وجود الباشا!

تضاحك المستشار مرّة أخرى ففزّ به الجواد مرّة أخرى. ركض به مسافة قصيرة قبل أن يتمكّن من كبحه. قال:

- وصيّتي لك أن تلجأ إلى قنصل إسبانيا يا سعادة القنصل.

- قنصل إسبانيا؟

- قنصل إسبانيا هو المفتاح الذهبي الوحيد لفتح قلب الباشا!

عاند جواده لحظة ثم أضاف:

- أعني إذا تعلّق الأمر بقضاء الحوائج!

في وجه القنصل تبدّت سيماء اشمئزاز:

- الحمد للربّ الذي أغناني عن الباشا في قضاء الحوائج!

صحّح المستشار:

- أعني إذا تعلّق الأمر بتيسير التوقيع على المعاهدات!

صمت القنصل زمناً ثم قال:

- ما يشغلني الآن ليس المعاهدات. ما يشغلني الآن هو السبيل لتحرير السفينة الثانية!

انطلق المستشار بجواده مسافة طويلة، ثم عاد من سباقه حتى كاد يصدم جواد القنصل. كان الجواد النزق يلوك اللجام بشهية وحشية ويلفظ الزبد. في عينيه رأى القنصل إيماء الجنون.

قال:

- يحسن بك أن تستبدل هذا الوحش اليوم قبل الغد!

ولكن المستشار عاد إلى سيرة القنصل الإسباني:

- السبيل لتحرير السفينة الثانية في يد القنصل الإسباني!

ـ لا أدري ما الذي يجعلك تثق في تأثير القنصل الإسباني على الباشا إلى هذا الحدّ؟

ابتسم المستشار وهو يعاند جواده المجنون:

ـ حدس! لا أثق يا سعادة القنصل إلاّ في الحدس!

ـ أمّا أنا فلا أستطيع أن أعوّل على الحدس!

حاجج المستشار:

ـ الحدس ليس وسوسةً يا سعادة القنصل، ولكنه نبوءة إذا نال الدعم من جلالة الحكمة!

ـ عن أية حكمة تتحدّث؟

مال نحو القنصل. سأل:

ـ ألم يلحظ سعادة القنصل اللغة التي يخاطب بها الباشا قنصل إسبانيا؟

استفهم القنصل بإيماءة، ولكن الجواد فزّ بالمستشار بعيداً، فابتسم وانتظر. عاد المستشار بجواده الجنونيّ الذي نثر على معصمه الأيسر لطخة كبيرة من الزبد. قال المستشار:

ـ الباشا ما زال يخاطب القنصل الإسباني بلقب: «قنصل إسبانيا والهند»!

تعجّب القنصل:

ـ الباشا يخاطب قنصل إسبانيا بلقب «قنصل إسبانيا والهند!»؟

ـ الباشا يخاطب ملك إسبانيا في مراسلاته بلقب «ملك إسبانيا والهند» أيضاً!

سأل القنصل بدهشة:

ـ هل تريد أن تقول إن الباشا ما زال يرى في أمريكا هنداً؟

ـ يهون الأمر لو اكتفى الباشا بأن يرى في أمريكا هنداً، ولكنه ما زال يرانا رعايا ملك إسبانيا!

تطلّع إليه القنصل مأخوذاً. أضاف المستشار:

ـ ولو لم يكن الأمر كذلك لما أباح لنفسه تفضيل سردينيا الشقية على قارّة كأمريكا في استقباله لك آخر مرّة!

تساءل القنصل كأنه يخاطب نفسه:

ـ أيعقل أن يعاملنا كرعايا لأسبانيا؟

بلغ الموكب أحراش المنشية. توارى المستشار بجواده عن الأنظار. ولكنه لم يلبث أن عاد ليجاور بجواده جواد القنصل.

قال القنصل:

ـ هل تعتقد أن الباشا سيرفض وساطة داي الجزائر المدعومة بأربعين ألف قرش؟

أجاب المستشار بلا تردّد:

ـ حدسي يقول إن الباشا لن يرفض وساطة حسن باشا المدعومة بأربعين ألف قرش كثمن لتحرير السفينة في حالة واحدة!

فزّ به الجواد، ولكنه أعاده على عقبيه بعد أن قطع في أدغال المنشية مسافة قصيرة. واجه القنصل ليستكمل العبارة:

ـ إذا تدخّل وسيط آخر هو القنصل الإسباني!

أضاف قبل أن يطلق العنان لجواده:

ـ لا تنسَ أننا، في نظر الباشا، رعايا القنصل الإسباني!

13

اليوم استقبل الباشا الرسول الذي لم يَرُق للباشاوات أن يستقبلوه في بلاطٍ يوماً لسببٍ بسيط وهو أنه لم يحدث أن حمل لبلاطٍ في عبّه البشارة أبداً. وحتّى لو حدثت معجزة وحمل لبلاطٍ بشارةً فلا بدّ أن ينال مقابل هذه البشارة ثمناً جسيماً كثيراً ما يحيل البشارة خسارةً: ذلك كان رسول السلطان الأعظم!

هذه المرّة حمل رسول الباب العالي إلى بلاط يوسف باشا القرمانلي الخسارة أيضاً. فما إن انتهى من مراسم الإكبار في المرفأ وهرع لاستقباله الأكابر والوزراء وقادة الجيش البرّي والبحري وقناصل الدول الأجنبية وكاهية الباشا الكبير وحشود الأهالي وأئمّة المساجد ومفتي الديار الطرابلسية ودراويش الطرق الصوفية وحتّى أهل الرباط التقاة، حتّى توجّه إلى القلعة للاجتماع بالباشا. هناك حاول الباشا أن يرشوه بمراسم استقبال أخرى، ولكنه أمر بوضع حدّ للمراسم دون أن يجد حرجاً في أن يطلق عليها اسماً مهيناً هو «المهزلة» مضيفاً إلى هذه الإهانة حجّة واهية اعتاد رسل الأستانة دائماً أن يبرّروا بها استهانتهم بالولاة وهي ضيق الوقت.

أمّا الباشا فقد أومأ للأعوان بإنهاء المراسم ليجتمع بضيفه الكبير على انفراد نزولاً عند رغبته. فعل الباشا كل ذلك دون أن تفارق البسمة شفتيه: بسمة غامضة حسبها رسول الباب العالي علامة سرور، في حين عرف الأعوان وحدهم ما تخفيه من استهانة بل واستهتار!

كان الرسول رجلاً في العقد الرابع أو الخامس من العمر، يميل

إلى بدانة لا تتناسب مع قامته القصيرة، يرتدي طربوشاً قانياً، بسحنة مستديرة قانية أيضاً كطربوشه، يتخذ صولجاناً من منسأة عاجية الساق، مطوّقة بنمنمة تومض بحبيبات الجوهر. لوّح بالمنسأة في وجه الباشا قبل أن يبرّر مسلكه الفظّ بعبارة:

ـ التسلية خطيئة لا تُغتفر زمن الحرب!

لفظ العبارة مرفوقةً برذاذ الزبد فسقط الرذاذ على كفّ الباشا. تأمّل الباشا بصقة الرسول التي استقرّت على معصمه، ولكنه تجاهلها. سأل بدهشة:

ـ حرب؟!

زعق الرسول:

ـ لا أعرف كيف تسمحون لرعاياكم أن يرقصوا في الطرقات ويقرعوا طبول الفرح في وقتٍ تسمعون فيه ولولات الثكالى بالجوار!

استولت سيماء الطفولة على وجه الباشا كما يحدث دائماً عندما تنتابه الدهشة. سيماء طفولة ممزوجة بشقاوة الطفولة أيضاً. سأل:

ـ ولولات الثكالى؟

لوّح الرسول المهيب في وجهه بصولجانه المرصّع بحبيبات الجوهر قبل أن يزار:

ـ في بلاد الأزهر يموت الخلق كل يوم في حين تؤوون في دياركم أعداء أمّة الإسلام التي تسفك دماء إخوتكم في الدمّ والدين!

ابتسم الباشا بغموض، فأضاف الرسول:

ـ ولا تريدون أن تكتفوا بهذا الاستهتار، ولكنكم تضيفون إلى

الاستهتار استهتاراً آخر برفضكم الامتثال لفرمان وليّ نعمتكم الذي نصبكم باشا على هذه البلاد!

غزا الشحوب سيماء الباشا. همّ بأن يتكلّم، ولكن رسول السلطان الأعظم أسكته بخشونة:

ـ أين الجيش الذي توجّب عليكم أن تمدّوا به يد العون لإخوتكم في مصر لتفكّوا به الأزهر من الأسر؟

ساد صمت تبادل فيه الرجلان المتواجهان نظرة طويلة. أجاب الباشا على سؤال الرسول دون أن تفارق بسمة الغموض شفتيه:

ـ في طرابلس لا وجود لأي جيش!

ـ ماذا؟!

ـ لا أمتلك جيشاً أستعين به على قمع عصاة الدواخل، فكيف بجيشٍ أغزو به مصر لأحارب عدوّاً أعجز جيوش الأمم النصرانية؟!

حدّق فيه الرسول بعينيه العسليتين الماكرتين، ثمّ قبض على ساق منسأته المرصّعة بحبّات الجوهر بانفعال قبل أن يقول بلهجة سخرية:

ـ ظننت أن القادة المدججين بالنياشين الذين أقبلوا لاستقبالي عند رصيف الميناء يقودون جيوشاً تكفي لإنزال الهزائم بالإسكندر وقيروش وهانيبال وقيصر مجتمعين!

أعقب الرسول عبارته بضحكة عالية كفيلة بنثر قطرات زبد سخيّة في وجه الجليس. ثم أغمض عينيه الماكرتين ليتمتم بعبارة مبهمة كأنها تعويذة فقال الباشا:

ـ لا يُخفى عليكم أنّنا بلاد كانت تخوض حرباً أبادت في الأرض أهل الأرض فكيف تنتظرون منها وجود جيش؟

- ما أعلمه أن الحروب هي التي تخلق الجيوش كما تخلق الجيوش الحروب، لأن أهل الأرض زمن الحرب ينقلبون جميعاً جنوداً لتغذية الجيش!

حاجج الباشا:

- ولكن أهل الأرض الذين ينقلبون جنوداً لتغذية الجيش سرعان ما يجدون أنفسهم حطباً لتغذية الحرب يا صاحب السعادة!

- ولكن لماذا لا تستنجدون بزعماء القبائل لمدّكم بالرجال كما فعلتم دائماً عندما ضربت مدافع أمم النصارى قلاع مدينتكم بالقنابل؟

تأمّله الباشا طويلاً دون أن يكفّ عن الابتسام. قال:

- تتنازل القبائل لمدّنا برجالها في الأزمنة التي تُضرب فيها المعاقل بالقنابل، ولكن القبائل لا تتنازل لتمدّنا برجالٍ نذهب بهم في حملات الغزو خارج حدودنا!

احتجّ الرسول:

- ولكنكم تخرجون في حملات لغزو البحور كلّ يوم!

- في حملات غزو البحور لا نستعين بفرسان القبائل، يا صاحب السعادة، ولكننا نجنّد الأعلاج!

سكت الرسول لحظات. أغمض عينيه. شدّد قبضته على صولجانه الصغير. قال:

- الأستانة ليست في حاجة إلى جنود الحرب بقدر حاجتها إلى جنود الجهاد، لأن حروب الفتوحات أثبتت أن الفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة بالإيمان!

تطلّع إليه الباشا طويلاً. قال:

ـ علي برغل لم يترك لي في هذه البلاد سوى الجوعى والحفاة والخراب، فإذا رأيتم في هؤلاء الحفاة الذين رقصوا وغنّوا وضربوا الدفوف عند الميناء ابتهاجاً بوصولكم منذ قليل فسأعمل على تزويدكم بفرقة أو فرقتين من جموعهم!

تطلّع إليه الرسول باستخفاف، شدقه الأيمن ارتجّ برجفة عصبية. قال فجأة:

ـ إذا كنت لا تملك إلاّ فرق الحفاة التي تتحدّث عنها فلن تعدم جنداً يأخذون الفرنسيس الذين يرتعون في كلأ هذه المدينة كرهائن!

تعجّب الباشا:

ـ رهائن؟

أجاب الرسول ببرود:

ـ فرمان الباب العالي يقضي بزجّ كل فرنسي يطأ قدم أرض تمت بصلة للإمبراطورية في غياهب السجن. يسري هذا الفرمان منذ اليوم التالي لصدوره!

ـ هل يريد الباب العالي أن أزج في السجون رعايا بلدٍ منحتهم الأمان بمعاهدات ممهورة بتوقيعي؟!

ـ أنت تنسى أن إعلان الحرب يَجُبّ في بطنه كل عهد أو اتّفاق!

ـ ولكن فرنسا لم تعلن على طرابلس حرباً!

ـ فرنسا أعلنت الحرب على الإمبراطورية يوم أقدم ورم البشرية المدعو بونابرت على تدنيس الأزهر الشريف بسنابك خيله!

فزّ الباشا واقفاً. شبك يديه وراء ظهره. تسكّع في أرض البلاط كما اعتاد أن يفعل دائماً كلّما جاهد في فكّ طلسم استعسر. قال:

ـ تستطيع الأستانة أن تعلن الحرب على فرنسا، ولكن من أين لبلدٍ خرج محطماً من أنياب التنّين للتوّ أن يعلن حرباً على بونابرت؟!

ـ هذا البلد عندما يعلن الحرب على فرنسا إنما يعلنها باسم الإمبراطورية لا باسم المملكة الطرابلسية!

ابتسم الباشا. توقّف في سعيه. قال ساخراً:

ـ يوم أعلنتْ فرنسا الحرب على هذه المملكة وقصفت قلاع هذه المدينة بالقنابل لم تحرّك الأستانة ساكناً حتّى من باب التضامن!

لوّح الرسول بصولجانه في الهواء كأنه يهشّ ذباباً. قال:

ـ الأستانة لم تحرّك يومها ساكناً لأنكم لم تستشيروا أحداً يوم أقدم سلفكم على استفزاز فرنسا!

سكت الرسول ثم أضاف فجأة:

ـ أريد أن أخبركم بأن فرمان الباب العالي لا يستثني القناصل ولا بقية أعضاء السلك القنصلي من معاملة رعايا فرنسا كرهائن!

أطلق ضحكة أخرى فنفث بشدقيه المنفوشين فوجاً آخر من رذاذ الزبد. أضاف:

ـ هكذا ترون، يا سعادة الباشا، حرص السلطان الأعظم على الانتقام لكم من أعدائكم القدماء جزاء قصفهم لمدينتكم بالقنابل زمن أحمد الأكبر!

ثم.. هبّ واقفاً. تقدّم نحو الباشا خطوتين قبل أن يعلن:

ـ سأهجع قبل أن أواصل سفري إلى تونس. تستطيعون أن تروا في هجعتي مهلة مناسبة للتفكير في أمر الرهائن!

خرج بقامته القصيرة كأنه لا يخطو خطواً، ولكنه يتدحرج كالكرة.

أمّا الباشا فتسكّع في خلوته لحظات، ثم استدعى الحاجب ليأمره باستدعاء الدغيّس. كان ما يزال يتبسّم بغموض عندما مثل الدغيّس بين يديه. انتصب بجوار مكتبه. التفت نحو وزير شئونه الخارجية. قال:

ـ أريدك أن تبعث بشحنة العجول إلى جيش نابليون في مالطا حسب الاتّفاق المبرم بيننا وبين الجنرال «فوبوا»، كما أريدك أن تؤكّد له أن حمولة الحبوب المطلوبة سوف تصله في غضون أيام قليلة حسب الوعد الذي قطعناه على أنفسنا في رسالتنا إلى بونابرت!

14

ـ يؤسفني أن يفلح يوسف باشا في استدراجك إلى الشَّرَك!

قالها الوزير مصطفى خوجة قبل أن يوجّه لأحمد بك شكوكاً أخرى:

ـ لا أعرف كيف خذلتك الفراسة فنسيت صلة زعماء النوائل القديمة بأسلافك لمجرّد أن أحد زعماء هذه القبيلة خذل أباك مرّة!

قال أحمد بك بنبرة استحياء:

ـ لقد ظننتُ أن فعلة زعيم النوائل بأبي أيام المحنة برهان على خيانة تستوجب القطيعة مع ورثة الأب إلى الأبد!

الوزير خوجة: ولكن زعيم النوائل لم يتخلّ عن علي باشا القرمانلي إلاّ يوم تخلّى عنه القَدَر. وهو ما يعني أن خطيئته تستحقّ الغفران في شرع الأعراف!

أحمد بك: قد تغفر الأعراف الخطايا، ولكن ما أعلمه أن الغفران لم يكن من شيم يوسف باشا يوماً!

الوزير خوجة: أنت تنسى أن يوسف الذي عرفته بالأمس ليس هو نفسه يوسف باشا الذي يتربّع على عرش أبيك اليوم!

أحمد بك (بلهجة يقين): يوسف لن يغفر! يوسف لن يتغيّر!

ابتسم الوزير بغموض. قال:

ـ يوسف ينبغي أن يغفر إذا شاء ألاّ يفقد العرش!

تعجّب أحمد بك:

ـ يفقد العرش؟

ـ بلى. سلطان لا يغفر، سلطان مهدّد؛ لأن بالغفران وحده يستقيم السلطان! ويوسف باشا ليس هيّناً إلى حد يستهين فيه بحقيقة الغفران!

ـ يريد صاحب السعادة أن يقول إن يوسف اشترى بالغفران ولاء قبائل النوائل من جديد؟

ـ بالطبع!

تطلّع أحمد بك إلى الوزير. قال:

ـ هل يريد صاحب السعادة أن يقول إن رسول زعيم النوائل لم يكن في الحقيقة سوى رسول يوسف باشا؟

ـ بالطبع!

تمتم أحمد بك:

ـ يبدو أن المكيدة صارت في عنقي قدراً!

قال الوزير:

ـ من قرّر المطالبة بالعرش فعليه أن ينتظر مصيراً أسوأ من المكيدة؛ لأن العروش سرّ تحرسه الأبالسة!

تطلّع أحمد بك إلى الوزير، ولكن سيماء الوزير كانت خرساء. قال:

ـ ما يؤلمني يا صاحب السعادة أنّني لم أختر مصيري!

ـ هذا ما نتحجّج به جميعاً عندما تحيق بنا البلايا!

حدجه أحمد بك مستفهماً، فأضاف الوزير:

ـ لقد حدثتني مرّة، في زمن منفاكم الأوّل، كيف رفض الباشا الأب أن يخلع عليك قفطان البكوية (عقب مصرع شقيقك الأكبر) إلاّ بعد موافقة يوسف. كانت تلك إهانة للعرف قبل أن تكون إهانةً لك. وقد احتقرتَ يومها نفسك، كما حدّثتني، كما لم تحتقرها يوماً لأنك قرأت في تلك الصفقة خيانة لأعظم ما دسّته العناية الإلهية في قلوبنا: الضمير!

ساد سكون. تمتم أحمد بك:

ـ بلى! قبولي للبكوية في ذلك اليوم لم يكن إهانة للضمير،

ولكنه إماتة للضمير يا صاحب السعادة. وهو ما لم أغفره لنفسي أبداً، كما لم تغفره لي أمّ ذريّتي التي زلزلتها الخسارة أكثر مما زلزلتني!

ساد سكون من جديد. تكلّم الوزير:

ـ ستحيا في الغد المنفى من جديد. وهو منفى تستطيع أن تراه ظلاً لمنفى آخر أعظم شأناً من منفاك اليوم، ومن منفاك في الغد، ومن كل منفى ستحياه إلى يوم الممات، إذا قورن بفقدان الضمير!

سكت أحمد بك. قال الوزير:

ـ أريدك أن تعلم بأن الباي حمّودة الذي آوى عائلة القرمانلي بالأمس ولم يبخل عليها بالدعم في سبيل استرداد عرشها لا يدفع بك إلى المنفى اليوم إكراماً ليوسف باشا القرمانلي، ولكنه يفعل ذلك إكباراً للناموس الذي حرّم الخيانة بكل أجناسها. وهو إن أباح لنفسه اقتراف هذا الإثم، فإنّما يخون نفسه وهو الذي ضحّى بجنده بالأمس في حربه ضد الغاصب علي برغل حتّى ينصّب آل القرمانلي على عرش طرابلس، فكيف يسمح لنفسه بالدخول طرفاً في نزاع بين شقيقين كلاهما سليل القرمانلي؟!

طأطأ أحمد بك أرضاً. قال بذات النغمة المعبّرة عن نبرة كالحياء:

ـ ليس من حقّي، يا صاحب السعادة، أن أستاء، بل الواجب يحتّم عليّ أن أطلب من عمّي الباشا الغفران، لأن الطيش الذي دفعني للإخلال بالعقد خطيئتي أنا لا خطيئته هو. وشجاعته في قبولي ضيفاً في دياره دَيْن في رقبتي إلى الأبد.

هيمن سكون ثقيل قبل أن يتكلّم الوزير:

ـ الباشا حمّودة لم ينسَ أن يأمر لك بمالٍ يكفيك سنوات فيما إذا أحسنتَ إنفاقه!

تطلّع إلى أحمد بك بنظرة ذات معنى. أضاف:

ـ أنت تدري ماذا يعني مولانا الباشا بحسن الإنفاق!

ابتسم الوزير في حين استفهم أحمد بك بإيماءة. أوضح الوزير:

ـ الباشا أوصاني أن أحذّرك من سوء مصيرٍ هو قدر كلّ من أتّخذ من القوارير قريناً!

15

على مائدة الإفطار أمر نابليون باستدعاء مستشاره الفردوسي. كان الجنرال يجلس إلى مائدة البستان حاسر الرأس، يتأمّل الأفق المغمور بفيوض الشروق غائباً عندما مَثُل بين يديه ترجمانه الفردوسي. أومأ له بالجلوس ثمّ ابتسم بغموض قبل أن يتساءل:

ـ كيف تسير قافلة «لجنة العلوم والفنون»؟

حدج المسيو فينتورا سيّده خلسةً قبل أن يجيب:

ـ شؤون لجنة العلوم والفنون يا سيّدي الجنرال تسير على نحوٍ أفضل قليلاً من سير العمليات الحربية!

في مقلتي نابليون تألّق إيماء كالفضول قبل أن يقول:

ـ حقّاً؟

ثم بخيبة أمل مفتعلة:

ـ هذا يعني أنكم ما زلتم تستهينون بالقربان الذي نحرته قوّاتنا على مذبح البحر!

ابتسم الفردوسي أيضاً. قال:

ـ المسيو مونج يكاد ينتهي من مسودة تأسيس المجمع العلمي!

أقبل الخدم بأطباق ملآنة بالفاكهة، وأرغفة الخبز، وقطع الزبد، وفناجين القهوة. قال نابليون:

ـ المجمع العلمي حجر الزاوية للحلم القديم قدم الصراع بين الشرق والغرب!

أنصت الفردوسي باهتمام، ولكن الجنرال رشف جرعة من فنجان القهوة ثم تمطّى بشفتيه متنشياً قبل أن يضيف:

ـ زواج عقل الغرب بروح الشرق!

همّ الفردوسي أن يعلق، ولكن نابليون انتقل إلى الثناء على القهوة:

ـ القهوة! القهوة! نستطيع أن نهجر مخادع الحسان، ولكنّنا لا نستطيع أن نتخلّى عن القهوة. ألا يعني هذا أن القهوة أقوى حجّة من أحسن حسناء؟

أعقب العبارة بقهقهة عالية، ثم ابتلع ضحكته فجأة ليميل على الفردوسي بهمسة:

ـ أعترف لك بأن حضن فنجان القهوة أعظم لذّة من أحضان أرملة دي بوهارنيه!

استلقى إلى الوراء في ضحكة غريبة. قطعها فجأة أيضاً. تطلّع إلى جليسه بنظرة ماكرة. قال بلهجة وعيد:

ـ إيّاك أن تدّعي الجهل بما تردّده الشائعات!

اغتمّ الفردوسي. تجنّب نظرة الجنرال. تمتم:

ـ لا أعرف عن أية شائعات يتحدّث سيّدي الجنرال!

تابعه نابليون بفضول. قال: بلهجة الوعيد ذاتها:

ـ ها أنت تدّعي الجهل بما تعلم، فاحترس!

عمّ سكون. انكفأ الفردوسي على فنجان قهوته كأنه يقرأ في قاعه نبوءة. قال بعد تردّد:

ـ هل يليق بنا، يا سيّدي، أن نعبأ بما تردّده الشائعات في زمن الحرب؟

ـ لا تنسَ أن جبهة النساء أيضاً جبهة حرب في كلّ الأعراف!

ـ ولكن سيدي أعلم الناس بظمأ أهل باريس للقيل والقال.

سكت نابليون. عاد يرتشف القهوة. قال:

ـ المحارب المطعون في شرفه لا ينتصر في حرب. طعنة الشرف طعنة في الظهر!

سكت. سكت الفردوسي أيضاً. ابتسم نابليون. سأل:

ـ هل تظنّ أن مدام دي بوهارنيه سابقاً تجرؤ على الارتماء في أحضان «هوش» و«بارّاس» قبل أن تصبح مدام بونابرت كما تروّج الشائعات؟!

تمتم الفردوسي:

ـ آمل أن تعفيني يا سيّدي من الإجابة على هذا السؤال!

ـ ولماذا تحاول أن تتنصّل من الإجابة على هذا السؤال؟ هل

تتحرّج من الإجابة على هذا السؤال لكي تتحصّن من الإجابة على السؤال الذي سيلي هذا السؤال؟

تمتم الفردوسي:

ـ لا أعرف عن أي سؤال يتحدّث سيّدي!

ـ أتحدّث عن السؤال الذي يجب أن يلي. أتحدّث عن السؤال الذي يجب أن يُسأل. أتحدّث عن السؤال الذي تخفيه عنّي، ويخفيه معك جنرالات الحملة وضبّاطها وعلماؤها وشعراؤها وفنانوها وحتّى جنودها، والقائل: هل مدام دي بوهارنيه سابقاً، مدام بونابرت حالياً، من الاستهتار بحيث ترتمي في أحضان الرجال بعد أن صارت مدام بونابرت؟

طأطأ الفردوسي. أضاف نابليون ببرود غريب:

ـ نستطيع أن نقول في صياغة أخرى للسؤال: هل مدام بونابرت عاهرة كما تدّعي الشائعات؟

غزت الفردوسي سيماء شحوب. تمتم:

ـ ما يحيّرني يا سيّدي هو الشائعات لا ما تقوله الشائعات!

مال نحوه نابليون مغمض العينين. سأل همساً:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول إننا نحيا في عزلة منذ شهور عديدة، بل نحيا حياة حصارٍ أعجزنا أن نتلقّى أصغر خبر من باريس برغم كلّ الجهود التي بذلناها، في حين لا نعدم تلقي سيول الشائعات الباريسية كأنّ أوباش الإنجليز هم الذين يجلبونها ليحطّموا معنويات جنودنا!

ابتسم نابليون. هبَّ واقفاً، تسكّع في أرض البستان عاقداً يديه وراء ظهره فتبدّى أقصر قامة. تبدّى قزماً. قال:

ـ نعدم تلقّي أخبار باريس لأننا نستخدم الرسل. ولكنّنا لا نعدم سماع شائعات أهل باريس لأنها فضائح: رسالة الرسول وصيّة مختومة في قرطاس، ورسالة الفضيحة وصيّة مدسوسة في اللسان لا القرطاس. لقد أخفقنا في إبلاغ رسائلنا إلى باريس لأنها وصايا محمولة بالأيدي، كما أخفقنا في تلقّي أخبار باريس لنفس السبب!

قال الفردوسي:

ـ ولكن طبيعة رسائلنا هي التي حتّمت اللجوء إلى الرسل!

ـ طبيعة رسائلنا؟

ـ أعني الطبيعة السريّة لرسائلنا يا سيّدي!

استخفّ نابليون بابتسامة. قال:

ـ إذا شئتَ أن تذيع سرّاً فجاهد في إخفائه، وإذا شئت أن تجرّد سرّاً من طبيعته كسرّ فجاهد في إظهاره!

ـ هل يريد سيّدي أن نجري أخبارنا على ألسنة الرسل بدل القراطيس التي يحملها الرسل؟!

سكت نابليون. دبّ في أرض البستان ذهاباً وإيّاباً. قال:

ـ سأتولّى التدبير هذه المرّة بنفسي على أن تأتيني في الغد بذلك الترجمان.. ما اسمه؟ هل هو أرنو؟!

ـ بينوا أرنو يا سيدي!

سكت نابليون. قال الفردوسي:

- الفنّان جودان ينتظر الإذن بالدخول يا سيّدي ليريك تحفته في الاستيلاء على مالطا!

غمغم نابليون غائباً:

- تحفة جودان عن احتلال مالطا! لقد حدّثني بروتان عن هذه اللوحة، ولكن. .

توقّف. أضاف:

- ولكن ألا ترى في الأمر لعنة؟!

تمتم الفردوسي:

- لعنة؟!

- بلى، بلى. لقد بدأنا مراسلاتنا مع باشا طرابلس مع رئيس الحجيج الليبي، ولكننا لم نتلقَّ ردّاً. ثم بعثنا برسائل إلى قنصلنا دون أن نتلقّى ردّاً. ثم رسائل أخرى مع التجّار، بلا جدوى أيضاً. ثم تلقينا وصيّة من تاجر فرنسي يزعم أن الإدارة في فرنسا بعثت لنا بعشرات الرسائل مع عشرات المخلوقات دون أن نتلقّى هذه الرسائل. لقد قيل إن آخر هذه الرسائل أرسلت من الجزائر مع يهوديين يملكان وكالات تجارية في مرسيليا، كما أُرسلت نسخة ثالثة مع يهودي مرّاكشي، كما أرسلت النسخة الرابعة مع الفرنسي ميشيل ماجلّون، أمّا النسخة الخامسة فقد حملها التاجر الفرنسي المدعو. . فينو أومينو. . .

صحّح الفردوسي:

- فينو مورفو يا سيّدي!

ـ ولكن نسخة واحدة من هذا الخطاب لم تصلنا أيضاً كما لم تصل الإدارة في باريس رسالة واحدة من رسائلنا، كما لم تصل قنصلنا في طرابلس أية رسالة من رسائلنا، فهل يُعقل أن يكون جواسيس العدو بهذه اليقظة؟

زفر بضيق قبل أن يضيف:

ـ لن يكون هؤلاء جواسيس الإنجليز، ولكنهم في ظنّي جواسيس القدر. وهو ما يعني أنّنا يجب أن نقرأ في هذه اللعنة رسالة!

تساءل الفردوسي:

ـ رسالة؟

ـ رسالة القدر التي لا يجب أن نتجاهلها إذا شئنا ألاّ نلوم أنفسنا!

قال الفردوسي:

ـ ولكن الواجب يقضي أن أذكّر سيّدي الجنرال بالرسالة اليتيمة التي وصلتنا!

تطلّع إليه نابليون. سأل:

ـ هل تدري يا عزيزي فينتورا لماذا وصلتنا تلك الرسالة دون الرسائل جميعاً؟

لم ينتظر على سؤاله جواباً. خطا في أرض البستان قليلاً. قال:

ـ لأنها رسالة مخطوطة بيد القدر نفسه لا بيد الإدارة في باريس!

هأهأ بضحكة قصيرة. أضاف:

ـ وإلاّ ما معنى أن تطرح الإدارة بلا مناسبة ثالوث الخيارات

المدهش على نابليون فتقترح عليه البقاء في مصر، أو الانطلاق شرقاً لاحتلال الهند، أو التوجّه بالجيوش إلى الأستانة لاعتمار طربوش السلطان الأعظم؟!

عاد يتضاحك ساخراً، ثم أضاف فجأة:

ـ لقد قرأت في تلك الخيارات المدهشة رسالة القدر أيضاً، لأن حقيقة القدر، كما تعلم يا عزيزي فينتورا، ليست في ما يجاهر به، ولكن في ما يخفيه!

توقّف عن سعيه. التفت إلى ترجمانه. أضاف:

ـ فهل تدري، أيها العزيز فينتورا، ماذا أخفى القدر في هذه الرسالة؟

تطلّع إلى الفردوسي بفضول. في مقلتيه تلألأ ألق شقيّ. قال:

ـ الوصيّة المفقودة التي تعمّد القدر أن يخفيها في رسالته تقول إن أمام نابليون يوجد الخيار الرابع!

تمتم الفردوسي:

ـ الخيار الرابع؟!

ـ هل تعلم ما هو هذا الخيار الرابع أيها العزيز فينتورا؟

حدّق في عيني الفردوسي. تقدّم نحوه خطوتين، انحنى فوق رأسه. حشرج بصوت بحيح:

ـ الزحف غرباً لاحتلال باريس!

16

تساءل نابليون عن العزلة مراراً، ولكنه لم يدرك حقيقتها إلاّ أخيراً. أدركها في المكان الذي لم يخطر له يوماً على بال، وفي الزمان الذي لم يخطر له يوماً على بال، وفي الظرف الذي لم يخطر له يوماً على بال. أدرك حقيقة العزلة في مصر، بعيداً عن الوطن. أدرك حقيقة العزلة في الزمن الذي ظنّه خروجاً من قمقم العزلة، الزمن الذي يجب أن يجهل فيه العزلة، لا أن يعرف فيه العزلة. أدرك حقيقة العزلة في الظرف الذي يجب أن ينفي العزلة بدل أن يأتي بالعزلة ألا وهو ظرف النصر! فهل يعني هذا أن صاحب الغلبة أكثر خلق الأرض إحساساً بالعزلة لا صاحب الهزيمة كما يظنّ الكلّ؟

بلى. الغلبة دائماً عزلة. الغلبة هي العزلة، لا الهزيمة. ولكن.. هذا ليس كل شيء فيما يتعلّق بلغز العزلة. فقد أثبتت له تجربة إخفاقاته في التواصل مع الوطن أن العزلة ليست أن نحتجب عن الخلق، ولكنها في عجز الإنسان في الاتصال بأخيه الإنسان. ليست في عجز الإنسان في الاتصال بأخيه الإنسان فحسب، ولكنّها في عجز الإنسان عن تلقّي خطاب الإنسان. فالمعتزل حقّاً هو من لا يتلقّى خطاباً. من لا يتلقّى وصايا، من لا يتلقّى رسائل، سواء أكان ذلك إجباراً، أم خياراً. ولقد حاول أن يتمرّد على هذا القدر ففعل كل ما بوسعه لكي يخرج من القمقم. ولم يعلم إلاّ بعد زمن طويل أن كفاحه ذاك لم يكن سوى خطيئة لأن كل حياته التالية، وحروبه الدموية التي خاضها، والأمم التي كان عليه أن يستعبدها، ونفوس الملايين التي كان عليه أن يزهقها، بل ووسوسته الخفيّة في امتلاك

الدنيا، كلّها لم تكن في حقيقتها الأخيرة سوى محاولة يائسة للتحرّر من شبح العزلة!

أدرك، بعد فوات الأوان، أن تلك الدودة التي نهشت قلبه في مقرّ الحملة بمصر، كانت بذرة الكابوس الذي جعل من معشر الغزاة أكثر خلق الأرض عزلةً.

أدرك، بعد فوات الأوان، أن الغزاة لا يغزون المدن، ولا يدكّون الحصون إلاّ ليتحصّنوا من عزلتهم.

أدرك أن الغزاة لا يستعبدون الأمم إلاّ ليحرّروا، أنفسهم.

ففي ذلك اليوم من أغسطس عام 1798م، بعد حديثه مع ترجمانه الملقّب بالفردوسي، اعتزل نابليون في مقرّ إقامته زمناً لم يدم سوى ساعة واحدة ليخرج بعدها إلى الفناء حاسر الرأس، أشعث الشعر، جاحظ العينين، شاحب الوجنتين، يجاهد لالتقاط الأنفاس، كأنه يعاني من نوبة ربو. هرع إليه الأعوان والخدم والضبّاط من كل الأركان. ولم تستغرق نوبته لحظات حتّى صار مطوّقاً بالأجناد وزحام الخلق. أجلسوه على كرسي في الفناء وأقبلوا عليه بأكواب الماء. ولكنه تطلّع إلى الزحام بذهول قبل أن يدفع عنه كوب الماء. حشرج في وجوههم بوعيد:

ـ اذهبوا عنّي جميعاً وجيئوني بالفردوسي!

تلكّأوا ولم ينفضّوا من حوله إلاّ بعد أن رأوا إيماء الوعيد في مقلتيه. ذهبوا ليقبل الفردوسي.

تطلّع إليه فأبصر الترجمان في عينيه إيماءاً أفزعه. أبصر إيماءاً كاليأس. أدهشه أن يهجره منذ قليل بأجمل مزاج ليستدعيه بعد ساعة وهو في أسوأ حال. مال عليه ليتمتم:

ـ هل أصاب سيدي مكروه؟

لوّح نابليون بيده في الفراغ فسأل الفردوسي بقلق:

ـ هل نأمر باستدعاء الطبيب؟

بدأت أنفاسه تنتظم. بدأ الشحوب ينقشع. أغمض عينيه لحظات ثم فتحهما ليخاطب الترجمان:

ـ لقد حدّثتني عن صداقة قديمة بينك وبين المسيو بوسييه قنصلنا الجديد بطرابلس. أريدك أن تخاطبه بضرورة. .

انتابته نوبة سعال، في حين انحنى عليه الفردوسي ليسأل:

ـ هل آتي سيّدي بجرعة ماء؟

أومأ نابليون بيده نفياً. أضاف:

ـ اختفاء الرسل عمل مشبوه. تستطيع أن تقول إنها مكيدة! لا بدّ أن نحتكم إلى السريّة في مبعوثينا الجدد. أذكر أنّك حدثتني عن ذلك الترجمان في دائرتك. هلا ذكّرتني باسمه؟ هل هو أرنو؟

ـ بلى يا سيدي، بينوا أرنو!

ـ أريدك أن تكتم الأمر بيننا. سنبعث بالرسالة إلى بوسييه. سنبعث برسالة أخرى إلى القرمانلي. أريدك أن تبعث بالرسالة إلى الإسكندرية سرّاً لتتولّى بحريتنا هناك تحويلها إلى طرابلس، أو فلنقل إلى درنة. سنصدر أمراً إلى الجنرال جانتوم بتوجيه سفينة شراعية إلى درنة للاتصال بك هذه المدينة. أريدك أن تحرص على ألاّ يطلع حتى أرنو هذا على طبيعة المهمّة التي سنوكله بتنفيذها. لقد كلّفنا الاستهتار في الماضي ثمناً باهظاً هو تبديد الوقت. لا يجب أن يعلم

أحد سوانا بأي شيء إلاّ بعد انطلاق السفينة. أرنو هذا لا يجب أن يفتح المظروف الحاوي للتعليمات إلاّ بعد أن يقطع في البحر مسافة نصف يوم على الأقل. يجب أن تحرص أيضاً على ألاّ يعلم ربّان السفينة عن مهمّة رسولنا أيّ شيء. بل يجب أن يجهل وجهته الحقيقية إلاّ بعد أن يقطع مسافة في عرض البحر. هناك فقط يستطيع أن يفتضّ المظروف الحاوي للتعليمات التي ستحدّد وجهته. أمّا أرنو هذا فلا يجب أن يصعد إلى ظهر السفينة إلاّ قبيل إقلاعها بساعة أو ساعتين على أكثر تقدير. سنأمر الجنرال مارمون بأن يحسن تسليح السفينة. كما سأصدر تعليمات صارمة بألاّ يطّلع أي من ركّاب السفينة على طبيعة مهمّتها. كما سآمر بإبلاغ الربّان بأن يعود من رحلته في مدّة لا تزيد على الأسبوعين، وألاّ يتجه إلى أوروبا مهما كانت الأسباب!

كان يلهث أثناء إلقائه لسيل تعليماته في أذن مستشاره فينتورا الملقّب بالفردوسي. وعندما انتهى زفر بإعياء ثم تمدّد باسترخاء قبل أن يضيف:

ـ آن الأوان لبتر اليد الخفيّة التي تكتم أنفاسنا!

17

في خلوة المساء وجد يوسف باشا نفسه يتمتم بصوت مسموع:

ـ ما أسرع ما تبيد النساء!

ثم ابتسم. كان يتلذّذ بالجلوس في جوف عرشه الذهبي المهيب، يتطلّع إلى النافذة المشرفة على بحرٍ راكد تطفو فوق مياهه السفن

الراسية في المرفأ، يعاند وسوسةً لئيمةً عن وباء للآحوّاء الذي لا شفاء منه إلاّ بالموت، والمرأة لا تريد أن تموت فتشفى من وباء الشيخوخة، ولا تريد أن تحيا أيضاً بسيماء الشيخوخة. إنها كالرجل الذي يريد أن يحيا عمراً مديداً، ولكنه يستنكر العلل التي يأتي بها العمر المديد. خلاصة الأمر أن الإنسان (سواء أكان امرأةً أم رجلاً) يريد أن ينال بالمجّان. الإنسان يريد أن يحيا دون دفع الأثمان ودون أن ينحر القرابين. منذ يومين توسّلته أن يبعث رسولاً إلى سلطان «فزّان»، أو سلطان «كانو» لكي يأتي لها بمرهم مستخرج من قيعان نهر «كوكو» تروي النساء عن مفعوله الأساطير. قالت إنه سحر يزيل الغضون في ثلاثة أيام. أمّا دوام استعماله فيذهب بشبح الشيخوخة ويعيد للسيماء نضارة الشباب.

أنصت لها غائباً، ولو خمّنت في تلك اللحظة سرّ غيبته لمزّقت وجهه بأظافرها. كتم ضحكة وهو يمضي في حلم يقظته: فسليلة حسن بك القرمانلي (شقيق أبيه المنفي في الربوع المصرية منذ سنوات طويلة) صارت ربّة من ربّات الحسن في ديار المماليك. وقد تساءل مراراً عمّا إذا كان عليه أن يترك ابنة العمّ تتمرّغ في مخادع هؤلاء الأنذال مقابل الوفاء لموقف والده من شقيقٍ له كان عليه أن يعاني حياة المنافي لا لجرمٍ اقترفه في حقّ المملكة أو صاحب المملكة، ولكن كان عليه أن يشقى تلبيةً لمخاوف علي باشا الخالدة من أشقائه الذين حدثته الوساوس دائماً بانهماكهم في تدبير المكائد!

هل يترك حسناء الخرافة تُبتذل في أحضان ملّة العبيد التي تحكم مصر الشقيّة، ليرتمي في أحضان غانيات تاجوراء وغير تاجوراء؟ لقد

فكّر مراراً في حيلة للاستيلاء على حسناء العمّ تلك فلم يجد سبيلاً غير استدراج العمّ بفرمان العفو. ولكن فرمان العفو سيبقى سبباً للشكوك إذا لم يسبقه تمهيد، إذا لم تسبقه مفاوضات، إذا لم يسبقه إقناع. ولا حيلة لإقناع الإنسان بحسن نوايا الإنسان غير التلويح له بالولاية. التلويح له بالمنصب. المنصب وحده حجّة. المنصب وحده طُعم. المنصب وحده البرهان على حسن النيّة. ولا منصب أنسب لرجلٍ كهذا غير توليته أمر بنغازي. لقد أسرّ لمستشاره مليطان بالأمر. ويبدو أن هذا البليد ثرثر بالنيّة لامرأته. والدليل ما لمسه في تصرّفات بك بنغازي الحالي الأخيرة التي تكشف عن مخاوفه من فقدان منصبه. لقد اعتقل رسل نابليون ليصادر رسائلهم طمعاً في أن يعثر في تلك الرسائل على ما يشفي غليله. لم يكتفِ بهذا ولكنه حرّض الأعيان ضد حملة نابليون على مصر كي يسمّموا عقول بلهاء الأهالي ليغطّي على جرائمه في اغتيال الرسل محواً للأثر. ولكنه عرف الآن ما يجب عليه فعله لردع هذا الوغد. عرف في خلوة هذا المساء ما أعجزه أن يعرفه في خلوته مع للاّ حوّاء حلاً للغز. عرف الآن بنبوءة: نابليون!

بلى، بلى. سوف يستعين بنابليون لإقناع العمّ حسن بتولّي بكوية بنغازي. وهو سيقبل وساطة نابليون لسببين أوّلهما: اللهفة إلى المنصب. ثانيهما: الثقة في نابليون. نابليون سيلعب لا دور الوسيط فحسب، ولكنه سيلعب دور الكفيل!

فزّ يوسف باشا في مساء ذلك اليوم من جوف العرش. هرع ليقرع الجرس. دخل الحاجب في الحال. أمره باستدعاء مليطان

فوراً. دبّ في البلاط ذهاباً وإياباً. دبّ عاقداً يديه وراء ظهره كعادته. لا يعرف كم من الوقت استغرق سعيه في البلاط، ولكنه لم يستيقظ من غيبته إلاّ بدخول مليطان الذي حيّاه بركعة إكبار طويلة. توقّف الباشا عن سعيه. حدج مستشاره بنظرة وعيد. قال:

ـ دعوتك لتسمعني اعترافاً!

في عين مليطان لاح قلق ممزوج باستفهام. أضاف الباشا:

ـ هل يليق بالمستشار الذي يجب أن يكون قدوة للأغيار في كتم الأسرار أن يثرثر في مخادع النساء؟

غزت وجنتي مليطان سيماء شحوب. همّ بأن يتكلّم، ولكن الباشا لم يمهله:

ـ لقد حدّثتك منذ أشهر عن نيتي في تعيين عمّي حسن بك القرمانلي بكاً على بنغازي فما كان منك إلاّ أن ثرثرت بالسرّ لامرأتك، أم لمحظيّتك لا أدري، فهل تنكر؟

طأطأ مليطان. أضاف الباشا:

ـ ها نحن نفقد وسائل الاتصال بنابليون الواحدة تلو الأخرى بسبب طيش لا يليق بمن حسب نفسه مستشاراً للباشا!

همَّ مليطان أن يتكلّم، ولكن الباشا استوقفه بحزم:

ـ لا أريد أن تسمعني كلمة واحدة، بل أريدك أن تسمعني لتضع ما تسمع موضع التنفيذ!

ركع مليطان تعبيراً عن امتثال. قال الباشا:

ـ أريدك أن تعدّ العدّة لقطع الحبل مع بك بنغازي إلى الأبد!

تبادل مع مستشاره نظرة ذات معنى. عاد الشحوب يغزو سيماء مليطان. قال الباشا:

ـ يظنّ هذا الأبله أنه يستطيع أن يكون خصماً ليوسف باشا، ولا يدري أن الكيد ليوسف باشا أعجز من هم أدهى منه عشر مرّات على الأقل!

عقد يديه وراء ظهره. دبّ في البلاط ذهاباً وإياباً. أضاف:

ـ تستطيع أن تكتري أحد القتلة للقيام بهذا العمل، أو تأمر أحد العسس، والأنسب استخدام أحد الخدم لدسّ السمّ في الطعام. يجب أن يختفي هذا الوغد من ربوع بنغازي قبل صدور العفو على حسن بك القرمانلي بوقت مناسب، فهل فهمت؟

انحنى مليطان امتثالاً. تمتم بعبارة مبهمة، ولكن الباشا تجاهله قائلاً:

ـ سأخاطب صديقنا بونابرت للقيام بوساطة. نابليون وحده يستطيع أن يقنع حسن بك بالعودة إلى الوطن لا بوصفه الوسيط الذي يعوّل عليه فحسب، ولكن ليقين حسن بك بأن بونابرت يستطيع أن يجبره على العودة إجباراً إذا لم يقبل العودة اختياراً!

توقّف عن المشي. التفت إلى مستشاره. أمر:

ـ تستطيع أن تضع الأمر موضع التنفيذ اليوم قبل الغد!

انحنى مليطان أرضاً. تراجع إلى الوراء مطأطئاً. ولكن الباشا استوقفه قبل أن يدرك الباب بسؤال:

ـ أصدقني القول: هل أفشيت سرّنا في المرّة الماضية في فراش القرينة، أم في مخدع المحظية؟!

احمرّ وجه مليطان استحياءاً، في حين دمدم صدر الباشا بضحكة خبيثة!

18

كان بينوا أرنو مخلوقاً ضئيل الحجم، قصير القامة مثل قزم، إلى حدّ شجّع الربّان «سينيكا» بأن يختلق الأساطير، ويلفّق الوصايا التي تدين مخلوقات الأقزام وتلصق بهم كل الشرور التي سمّمت حياة الخليقة منذ التكوين. فخلافاً للتعليمات التي تلقّاها هذا الربان في المظروف المغلق الذي تلقّاه من رئيس البحرية «مارمون» راق له أن يتخذ من ضيفه الغامض هدفاً لسهام سخريّته المميتة دون أن يفلح أرنو الشقيّ في تفنيد حججه أو الدفاع عن نفسه. فما إن صعد رسول نابليون هذا على ظهر السفينة الشراعية «لودي» حتّى تلقّفه الربّان اللئيم «سينيكا» بعبارة قرأ فيها كل من سمعها من الركّاب استفزازاً سافراً:

ـ مكتوبٌ في الصحف الأولى أن خراب الأرض سيكون بيد أمّة الأقزام!

شحبت سيماء أرنو حرجاً، ولكنه لم يجد حيلة لإخفاء هذا الحرج إلاّ الاستنجاد بالبحر الممتد إلى الأبد كأنه الحرية مجسّدةً، الساكن سكون صحراء الجوار كأنه يستعير سكونه منها. ولكن الربّان الخبيث لم يرحم فراره:

ـ أراهن أن هذا الرجل يخفي في سرّه مكيدة ضدّ كل مخلوق على هذه السفينة لا لشيء إلاّ لأنه قزم ونحن رجال!

أعقب سينيكا عبارته بضحكة ثم أضاف:

ـ كأنّنا أذنبنا في حقّه بكمالنا!

ويبدو أن أرنو أعياه الفرار فقرّر أن يتولّى الدفاع عن النفس لأوّل مرّة منذ صعوده على ظهر السفينة:

ـ ليس كمالاً، أيها السيّد سينيكا، ذلك الكمال الذي لا فضل لنا فيه، كما أنه ليس نقصاً ذلك النقص الذي لا ذنب لنا فيه!

همهم بعض الركاب استحساناً، ولكن الربّان اللئيم لم يعدم حيلة للسخرية من الحكمة أيضاً:

ـ إسمعوا! إسمعوا! قزمٌ ينطق حكمةً! ألا ترون أن هذه علامة سوء أخرى؟!

قال أرنو ببرود:

ـ ينطق القزم بالحكمة التي غابت عن من هو جدير بأن ينطق حكمةً!

تضاحك الركاب في حين تطلّع سينيكا إلى خصمه حانقاً. سأل:

ـ لا أعرف ماذا تريد أن تقول بهذا يا سلالة النحوس!

ابتسم أرنو. ويبدو أن تعاطف جمع الركّاب أعاد له ثقته بنفسه فحمّل جوابه نبرة سخرية:

ـ ما قلته ليس في حاجة إلى إيضاح اللّهم إلاّ إذا كان المدعو «سينيكا» يجهل حقيقة الاسم الذي يحمله!

على متن السفينة «لودي» علا صخب تخلّلته عبارات مديح، وعبارات أخرى في ذمّ العدوان.

كتم سينيكا غيظاً قبل أن يقول:

ـ ما أعلمه أن «سينيكا» الذي تعيّرني بإنكار حكمته كان سيفاً مسلّطاً على كلّ شذوذٍ عن ناموس الخُلُق، والقزم ليس شذوذاً عن القاعدة فحسب، ولكنه مسخ مسوخٍ أيضاً!

أطلق ضحكة غريبة ارتجّ لها كل بدنه البدين. أضاف بنبرة حقد أخفق في إخفائها:

ـ القزم لهذا السبب منكر! القزم خطيئة تدبّ على قدمين! ها ـ ها ـ ها..

استلقى سينيكا على قفاه كأنه يتلذّذ بضحكة الشماتة التي ترجرج بها صدره ففاضت لتستولي على كل بدنه.

عمَّ صمت مزموم قبل أن يسمع الركّاب تمتمةً من فم المسكين أرنو:

ـ ولكن نابليون أيضاً قزم!

هيمن سكون مريب حوّل ارتطام المياه بجرم السفينة صخباً عنيفاً. تبادل الركاب النظرات المزمومة. تبادل أرنو مع خصمه نظرات أعظم توتّراً. نطقت مقلتا سينيكا بكراهة لم يبذل لإخفائها جهداً. حشرج بغلّ:

ـ لم أرَ نابليونك هذا إلاّ مسخاً! نابليونك هذا ليس مسخاً فحسب، ولكنه ورم! ورم الأورام أيها الأبله أرنو! والشيطان وحده يعلم ما ستعانيه البشرية من ويلات حميمه هذا!

تقدّم أرنو نحو الربّان خطوات. سأل بألم:

ـ لماذا تناصبني العداء مسيو سينيكا؟

أشاح الربّان بوجهه بعيداً، فأضاف أرنو:

ـ أريدك أن تعلم أنّي لا أرافقك في هذه الرحلة إلاّ لتأدية واجب، كما لا ترافقني إلاّ لأداء واجب كما بُلّغتُ!

زأر الربّان باستهزاء:

ـ كلّنا نتعلّل بأداء الواجب عندما ننوي ارتكاب فظائع!

تعجّب أرنو:

ـ ارتكاب فظائع؟

ـ فظائع كل ما متّ أو يمتّ لنابليون بصلة!

ـ ما أعلمه أن دورك أن تيسّر لي مهمّتي لا أن تضع في وجهي العراقيل!

زفر الربّان في وجهه أنفاس الحقد ثم برطم:

ـ أريدك أن تعلم يا قزم النحس أنّي إنسان لا يتلقّى الأوامر من أحد، ودوري ليس أن أسهّل لك مهمّتك المشبوهة كما تعتقد، ولكن أن ألقي بك على رصيف أقرب مرفأ. هذا إذا كنتَ لا تريد أن تضطرّني أن ألقي بك في جوف البحر!

تأمّله أرنو طويلاً. قال بيأس:

ـ أريدك أن تعلم أنّي لم أختر لنفسي هذه المهمّة، فلماذا تكرهني؟

سكت الربّان. التفت نحو البحر. تمتم بصوت كالهمس:

ـ ليتني أستطيع أن أكره!

سكت ثم أضاف:

ـ من يكره نفسه لا يستطيع أن يكره أحداً!

اقترب أرنو خطوة. سأل:

ـ لا أحسبك جاداً في التخلّي عنّي في منتصف الطريق!

أجاب سينيكا ببرود:

ـ كل الجدّ!

ـ هذا خرق لناموس الأخلاق الذي تحدّثت عنه منذ قليل قبل أن يكون خرقاً لتعليمات نابليون!

سكت الربّان. مضى يتطلّع إلى البحر المغمور بسيوف موشاة بالشيب أبدعتها الريح في غمر اليمّ. قال سينيكا:

ـ لن أعود إلى الإسكندرية، ولن أذهب إلى موانىء طرابلس. تستطيع أن ترافقني إلى مرافىء طولون إذا شئت!

ألحّ أرنو:

ـ ولكن ما أعلمه أن التعليمات تقضي باجتناب الذهاب إلى شواطىء فرنسا مهما كانت الأسباب!

قال سينيكا بلهجة لا مبالية:

ـ يستطيع نابليون أن يصدر تعليماته إلى جنرالاته، أو إلى الأقزام أمثاله، لا إلى الربّان سينيكا. فهل تفضّل أن تطأ اليابسة في صحراء سرت، أم تفضّل الغوص في مياه البحر لتنام في بطون الحيتان؟!

كشّر عن أسنانٍ حادّةٍ كمخالب الجوارح، ثم أضاف:

- حمل الأقزام على متون السفن، كحمل جثث الأموات، عمل يجلب النحس!

19

السراي الحمراء. 1799م.

تطلّع يوسف باشا من إحدى نوافذ الصحن الإسباني بقصر السراي ما إن زعزعت سكون المرفأ أوّل قذيفة تنطلق من برج الفرنسيس تحيّةً لوصول «قبوجي باشي» جديد رسولاً من صدر الأستانة الأعظم سليم الثالث على متن بارجة حربية مهيبة لم يشهد الباشا لحجمها مثيلاً.

على رصيف الميناء شاهد جنود الحرس الملكي الطرابلسي وهم يصطفّون لتحية الضيف المهيب يتقدّمهم رئيس البحرية العلج مراد، ووزير الشؤون الخارجية الدغيّس، ومستشار القصر للشؤون الداخلية مليطان، ومفتي الديار الطرابلسية، وأعضاء الديوان الملكي، والأعيان، وأكابر القبائل، وأهل الرباط، وأولياء الأضرحة، ودراويش الطرق الصوفية، وأشياخ المدينة، وجموع دهماء تهتف بسقوط بونابرت وتدعو أمّة المسلمين للجهاد في سبيل الله!

أنصت الباشا للهتافات ببسمة سخرية، ثمّ دبّ في المكان ذهاباً وإياباً على رسم اعتاده منذ الطفولة. دبّ عاقداً يديه وراء ظهره كعادته أيضاً. تذكّر احتجاج قنصل الإنجليز الذي وقف بين يديه منذ

يومين ليعبّر له عن استياء حكومته (الحليفة للباب العالي في حربه مع المغامر بونابرت) عن موقفه المتساهل إزاء الفرنسيس. قنصل الإنجليز وصف موقفه بكلمة «تساهل» في حين وصف الغوغاء موقفه بكلمة «تخاذل» في مجادلاتهم (كما أخبر الجواسيس). أمّا الخبثاء فقد تجاسروا فنعتوا موقفه بكلمة أقبح هي: «المخزي». فهل موقفه من حملة نابليون موقف مخزٍ حقّاً؟ هل أقبل رسول السلطان الجديد ليعبّر له عن استياء الباب العالي من «موقفه المخزي» أيضاً؟ أم جاء الرسول بوعيد جديد؟

توقّف عن سعيه. أطلّ من النافذة. بدأ عسس المندوب الجليل في النزول من البارجة. تزلزل الصحن بقذيفة جديدة. في المرفأ هيمن سكون. ولكن الرسول لم يظهر. انتظر لحظات قبل أن يبصر الدغيّس.

اجتاز المرفأ وبدأ يصعد سلالم البارجة الرهيبة. غاب في جوف البارجة زمناً قبل أن يظهر من جديد برفقة الضيف الجديد. توالت القذائف تحيةً للضيف في حين صمّت أذنيه هتافات الأهالي. انطلقت من آلات الفرقة الملكية معزوفة. ولكن النشيد الموسيقي اختنق بفعل ضجّة الأهالي. من شرفات المنازل المجاورة انطلقت الزغاريد من حناجر النساء أيضاً.

تخلّى عن النافذة ليفكّر في تهمة الخزي. كلمة خزي تهمة تعني الجبن، فهل يوسف القرمانلي ملك جبان حقّاً؟ هل يليق بالملك أن يكون جباناً؟ لقد أثبت شجاعته في الحرب الأهلية. وقبل أن يبرهن على هذه الشجاعة في زمن الحرب الأهلية برهن عليها في حربه مع

حسن بك. وهي حرب أشرس من الحرب مع أحمد بك، ومن الحرب مع الأب، ومن الحرب ضد أهل مصراته أيضاً. وعلّ البرهان الأقوى على شجاعته هو حربه ضد صاحب الزور علي برغل باشا. والأهالي الذين يعيّرونه بالجبن اليوم لا يدرون أن علي برغل هذا هو سبب إحجامه عن محاربة نابليون لا الخوف من نابليون نفسه. هؤلاء البلهاء لا يدرون أن من أجار هذا الوغد لم يكن إلاّ المماليك الذين يحاربهم نابليون اليوم. البلهاء لا يدرون أن صاحب الزور هذا لم يتخلَّ عن أطماعه في عرش طرابلس، ولكنه تخفّى بتلابيب خشارة الخلق المسمّاة مماليكاً لكي يتفرّغ للتآمر. المماليك هيّأوا له المناخ المناسب كي يدبّر المكائد لاستعادة عرشٍ لم يطمع في نيله يوماً؛ هذا العرش الذي أغرقه بالأموال الخرافية، وساق لأحضانه الكريهة أجمل حسان الأرض، وكلّل جبينه بأمجاد أنسته حقيقته. وهو الذي لم يصدّق الفوز بالأمس لم يكن له أن يصدّق فقدان الفوز اليوم. وإيواء المماليك لرسول الشرّ هذا لم يكن سوى صفقة. صفقة ينال فيها الأمان ليخلو لمؤامراته مقابل أن يتخلّى عن الفرمان السلطاني القاضي بتعيينه والياً على مصر. لم يكتفِ هؤلاء الأوغاد بتهيئة الأجواء لصاحب الزور هذا، ولكنهم وعدوه بالعون في استعادة عرش طرابلس. بلى، بلى. البلهاء الذين يتشدّقون برفع رايات الجهاد والزحف على نابليون لا يدرون أن مخطّطات برغل، ومخططات المماليك الذين يقفون وراء برغل، لم تفشل إلاّ بقدر اسمه نابليون. هذا القدر المسمّى نابليون هو الذي يريد السفلة أن

يحاربه. الغوغاء يريدون أن يرفع السلاح في وجه القدر الذي أنقذه من كيد برغل المتحالف مع المملوك مراد بك ليكون بهذا العمل المخلّص لمراد بك ولحليفه برغل باشا!

أطلق ضحكة استخفاف عالية في اللحظة التي دخل فيها الحاجب معلناً وصول رسول السلطان الأعظم.

20

كان الرسول رجلاً هزيلاً، قصير القامة، مستطيل الوجه، متوّج الرأس بعصابة أنيقة مرصّعة بجوهرة. من ذقنه تدلّت لحية طويلة مخضّبة بالحنّاء. أمّا بدنه فيغرق في كنوزٍ سخيّة من النياشين الذهبية والأسلحة المرصّعة بفصوص الأحجار الكريمة: سيف تدلّى من جنبه الأيمن، وآخر تدلّى من جنبه الأيسر. خنجر معقوف، وآخر مستقيم الغمد. غدّارة نفيسة مدسوسة في غمد مرصّع.

تكلّم فسمع الباشا صوتاً بحيحاً كفحيح الحيّة:

ـ بخل الباشا علينا بكنوزه فقرّرنا أن نلقّنه درساً في السّخاء!

قال العبارة مغمض العينين فتساءل الباشا بدهشة:

ـ السّخاء؟!

ـ بلى. بلى. السّخاء! البارجة التي تراها راسية في مياه مملكتكم تضيق بأصناف الكنوز!

كان ينفث الألفاظ مغمض العينين، ولم يدرك الباشا أن ما تبدّى إغماضة العين لم يكن سوى ضيق شديد في فتحة العينين.

تأمّله الباشا بفضول محاولاً أن يتبيّن الإيماء في العينين ليعرف عمّا إذا كان هذا المخلوق الغامض يتكلّم جادّاً أم هازئاً. سأل:

ـ هل تكلّم صاحب السعادة عن أصناف الكنوز؟!

ـ بالطبع أتكلّم عن أصناف الكنوز! أم إن الباشا لا يرى في أصناف الذخيرة الحربية كنوزاً في أزمنة مثل الأزمنة التي كُتب علينا أن نعيشها هذه الأيام؟!

سكت الباشا. عاد يتفحّص ضيفه بإمعان لا يليق بناموس الضيافة. سأل:

ـ يريد صاحب السعادة أن يقول إنّ الكنوز التي يعنيها ما هي إلا ذخيرة حربية؟!

استنكر «قبوجي باشي»:

ـ أليست الذخيرة الحربية هي كنز الكنوز في زمن الحرب، كما أن كنوز الذهب وصنوف الأحجار الكريمة هي ذخيرتنا زمن السلم؟

تطلّع إليه الباشا غائباً فسأل الرسول:

ـ اللّهم إلاّ إذا كنتم ما تزالون تحيون حياة السلم في وقتٍ تتآكل فيه إمبراطورية الإسلام من حولكم!

تمتم الباشا:

ـ الحقّ أن هذه المملكة لم تنعم بالسلم في تاريخها يوماً!

ولكن الرسول الهزيل مسّد لحيته الطويلة بأصابعه ثمّ قال متجاهلاً جواب الباشا:

ـ لقد بلغتنا أنباء كثيرة تحدّثت عن تردّد منكم لا يصدّق في أداء الواجب، وقد جئت اليوم لأقف على الخبر اليقين وقوف العيان!

قال الباشا ببرود:

- لم نكن لنتردّد أبداً لو لم يكن في الإمكان أبدع ممّا كان!

نفث الرسول في وجه الباشا أنفاساً سخيّة قبل أن ينفث الفحيح:

- ليس في الإمكان أبدع ممّا كان؟

- نحن أمّة أنهكتها الحروب كما لم تنهك أمّة في هذه الدنيا. أنتم لا تعلمون أنّنا نخوض حرباً مستمرّة منذ قرون في هذا البحر. كما نخوض حروباً قبليّة لم تنطفىء يوماً إلاّ ليشتعل فتيلها من جديد. كما قد لا تعلمون أننا نخوض حروباً أهلية داخلية لا تهدأ إلاّ لتتجدّد مثلها مثل حروبنا مع قبائل الدواخل. وأنتم أكثر من يجب أن يعلم إنّنا خضنا حرباً ألعن من كل الحروب ضدّ قرصان انتحل فرمان الباب العالي انتحالاً ليغتصب بموجبه عرش هذه المملكة اغتصاباً. هذا الأفّاق ما زال يختبىء في أحضان المماليك ويراهن للعودة لأحضان هذا العرش مدعوماً بدسائس سوسة السوء التي تريدونني أن أحشد جموع هؤلاء الحفاة الذين استقبلوكم بالهتافات منذ قليل لأكوّن منهم جيشاً بائساً يذهب ليحارب جيوش نابليون لاسترداد عرش مصر لا لتجلس سلالة الأخيار في جوف هذا العرش كما يجب أن يحدث، ولكن لتتربّع فيه مسوخ الدنّس!

عاد المبعوث السلطاني يمسّد لحيته المسربلة بخضاب الحنّاء. لحظتها فقط لاحظ الباشا كيف انجدل شعر اللحية في ضفائر دقيقة، متناهية الدقّة، بحيث تبدو خيوطاً رفيعة لا تختلف كثيراً عن خصلات الشعر.

قال المبعوث:

ـ أفهم، يا سعادة الباشا، سبب حنقك على المدعو برغلاً، كما أفهم حقدك على المماليك الذين آووا خصمك الذي اغتصب زوراً عرش أسلافك. كما قد أفهم أيضاً وأيضاً حنقك حتّى على الأستانة بسبب يقينك بأن بعض الأيدي في البلاط لعبت دوراً مشبوهاً في تدبير مكيدة علي برغل ضدّ بلادك. ولكنّي لا أستطيع أن أفهم لماذا تتشبّث برأيك تشبّث الأطفال، وتنسى أن من أعجزه أن يغفر، هو أعجز الناس عن أن يحكم؟

ردّد الباشا بنبرة دهشة:

ـ من أعجزه أن يغفر هو أعجز الناس عن أن يحكم؟

ـ بلى. من أعجزه أن يغفر خطايا الناس أعجز الناس عن تولّي أمر الناس!

سَرَت في كفّ الباشا رجفة. تساءل:

ـ آمل ألاّ يريدني مبعوث السلطان الأعظم أن أجود بالغفران على مجرم لم يكتفِ باغتصاب عرش، ولكنه بالغ في ارتكاب الكبائر!

ـ الأكابر وحدهم يغفرون ارتكاب الكبائر!

ـ تريد أن تقول إن الناس خُلقوا ليخطئوا، وخُلق رب الأرباب لكي يغفر خطايا من خلقوا؟

حدّق المبعوث في وجه الباشا بعينيه المغمضتين الشبيهتين، من فرط ضيقهما، بعيون جنس المغول. قال:

ـ ومن هم الملوك في ظنّك إن لم يكونوا أخلافاً لربّ الأرباب؟

سكت لحظة ثم أضاف فجأة:

ـ أردت أن أقول إن الملك لا يفلح في ملكه ما لم يتعلّم كيف يفعل ما لا يريد بدل ما يريد.

ـ يفعل ما لا يريد بدل ما يريد؟

تجاهل الرسول سؤال الباشا. أضاف مغمض العينين نهائياً:

ـ لو لم يخالف هانيبال هواه ويصعد جبال الجليد بجيش الفيلة لبقي أسير بلاد الفرنجة الواقعة على شطآن الأوقيانوس ولما صار هانيبال هانيبالاً أبداً!

انتفضت كفّ الباشا مرّة أخرى. مضى مبعوث السلطان الأعظم:

ـ لو لم يخالف يوليوس قيصر هواه ويفعل ما لا يريد لا ما أراد لبقي أسير جزائر الكلت، ولما زحف على روما ليصير يوليوس قيصر قيصراً على الدنيا!

أفلت الباشا ضحكة استهزاء. قال ساخراً:

ـ لا أخال السلطان الأعظم بعث بك رسولاً لتصنع من يوسف القرمانلي هانيبالاً أو قيصراً!

تبدّى في عيني الرسول المسبلتين شقّ صغير كخيط القماش ثم قال:

ـ ولماذا لا يصير يوسف القرمانلي هانيبالاً، أو قيصراً أو حتّى الإسكندر الأكبر؟ هل يدري سعادة الباشا أن هؤلاء لم يصيروا أسطورة تتردّد في ذاكرة الأجيال إلاّ لأنّهم قرروا يوماً أن يخالفوا أهواءهم؟!

تابعه الباشا بفضول، فأضاف الرسول:

ـ سوف تقول إن أمر أمثال هؤلاء كان رهين الأقدار من البداية إلى النهاية. وأقول إن أمر هؤلاء كان رهين قدرٍ ليس أعمى كما يظنّ الغوغاء، ولكنه قدر حكيم يعين كل مخلوق قرّر أن يتمرّد على المكتوب إذا أعان هذا المخلوق نفسه!

تساءل الباشا مبهوتاً:

ـ وكيف يعين هذا المخلوق نفسه؟

ـ يعين المخلوق نفسه بالتخلّي عن هواه. التخلّي عمّا نريد سرّ الفوز بالكنز الأعظم من كلّ كنز: العظمة! وهي عظمة ليست مجداً أجوف، ولكنّها محاكاة لربّ السماوات والأرض فاحترس!

زفر الرسول أنفاس الفحيح. أضاف:

ـ أنت لا تدري، يا سعادة الباشا، أن صاحب الحظوظ ليس من أغدقت عليه الحظوظ، ولكن صاحب الحظوظ هو من بخلت عليه الحظوظ وحرمته هباتها. لأن الشجاعة سوف تتولّى الأمر بعدها لتحقّق المعجزة التي أخفقت الحظوظ دائماً في تحقيقها لمريديها!

هيمن صمت. قال الباشا:

ـ مهما خالفت هواي فإنّي لن أفلح في إنزال الهزيمة بجيوش نابليون بونابرت بهؤلاء الحفاة!

ـ هذا لأنّك لا تريد أن تتخلّى حقّ التخلّي، أم إنّك نسيت أن هانيبال الذي أباد جليد جبال الألب ثلاثة أرباع جيشه استطاع أن ينزل الهزيمة بجيوش روما التي تزيد عن المليون جندي بحفنة من الفرسان لا يزيد تعدادها عن العشرين ألفاً؟

صمت. هيمن السكون طويلاً قبل أن يتساءل الباشا:

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟!

أجاب الرسول على الفور كأنه كان يتوقّع هذا السؤال:

ـ أن تنتصر على ضعفك!

تمتم الباشا:

ـ ماذا تريدني أفعل كي أنتصر على ضعفي؟

ـ يجب أن تمحو خرافة الحلف مع فرنسا من رأسك كخطوة أولى في طريق الانتصار على تنّين الضعف!

أطرق الباشا، ثمّ هبَّ واقفاً. دبَّ في بلاط القاعة ذهاباً ثمّ إيّاباً عاقداً يديه وراء ظهره. تابعه الرسول بعينيه المسبلتين. في سيماء الرسول لاح إيماء مريب. مدّ يده ليمسّد ضفائر لحيته السريّة صامتاً. أمّا الباشا فتوقف عن سعيه فجأة ليعلن:

ـ لم يكن حرصي على العلاقة مع فرنسا في الماضي خوفاً من بطش فرنسا، ولكن سرّ حرصي كان إكبار الناموس الذي قضى بتقديس العهد أوّلاً، والوفاء لوصيّة ورثتها عن أسلافي ثانياً. فإذا كان رسول السلطان الأعظم يرى أن فرنسا خانت هذا العهد بعدوانها على بلدٍ شقيق هو مصر، فإني أستطيع أن أقرأ في هذا العدوان رسالة تحرّرني من العهد!

تقدّم من الرسول خطوتين. أضاف:

ـ أعلم أن من يحاول أن يُرضي معشوقتين اثنتين مهدّد بفقدهما كليهما. وعندما أعلن اليوم تنصّلي من المعاهدات المبرمة بيني وبين

فرنسا فإنّي لا أفعل ذلك إرضاءاً للمعشوقة الأخرى، ولكنّي أفعل ذلك استجابةً لواجب آخر هو الدفاع عن الأخ حتّى لو كان ظالماً، فكيف به مظلوماً؟!

21

يوم تلقّى سيدي مليطان أمر الباشا بتحطيم صاري القنصلية الفرنسية، إيذاناً بقطع العلاقة مع فرنسا، لم يصدّق ما سمع. ولكن الباشا لم يرحمه: فقد أضاف قائلاً إن تحطيم الصاري (الدّال على قطع العلاقات) لا يكفي. حدّق في وجهه طويلاً قبل أن يضيف للأمر الصارم فرماناً آخر أسوأ: «احصوا تجّار فرنسا! اعتقلوا رعاياها وزجّوا بهم في السجون!».

هَمَّ أن ينصرف يومها، بل همّ أن يفرّ، حتّى لا يسمع أمراً آخر، ولكن الباشا استوقفه قبل أن يدرك باب الخروج بأمر ثالث: «لا تنسوا أن تبلّغوا المسيو بوسييه أن يلزم بيته إلى حين إشعار آخر!».

لم يحتمل سيدي مليطان أكثر مما احتمل بعد سماع الأمر الأخير فواتته الشجاعة لكي يستفهم: «هل يستطيع مولاي أن يرحمني فيفهمني ماذا يحدث؟». ولكن الباشا لم يرحمه. اكتفى بالذهاب إلى النافذة. هناك وقف ليتطلّع إلى البحر المزروع بالسفن عاقداً يديه حول صدره دون أن يجيب، فلم يجد سيدي مليطان مفرّاً من الفرار. انسلّ من هناك ليهرع إلى سيدي الدغيّس. حدّثه بما حدث همساً كأنّه يفشي لزميله بسرّ خطير لا بأمر من أوامر الباشا التي يوجب تنفيذها التحلّي بروح العلن لا الاستسرار. أنصت سيدي

الدغيّس لروايته صامتاً. وعندما تساءل مليطان قائلاً: «هل تستطيع أن تفيدني ماذا يعني هذا؟!»، تطلّع الدغيس إلى زميله طويلاً قبل أن يقول:

ـ هذا يعني أن الباشا قرّر أن يقلب للفرنسيس ظهر المجن!

ولكن هدوء الدغيّس استفزّ مليطان لأنه فسّره بروداً، ولا مبالاةً، فما كان منه إلاّ أن هبّ واقفاً ليصيح:

ـ ألا تدري أن تنفيذ أمر كهذا هو بمثابة إعلان حرب؟!

أجاب الدغيّس ببرود أشدّ:

ـ بالطبع هو إعلان حرب!

تفحّصه مليطان بذهول قبل أن يقول:

ـ تقول هذا بلهجة إنسان يجهل معنى أن تعلن مملكة مثل طرابلس الحرب على إمبراطورية مثل فرنسا!

خطا في القاعة خطوات. توقّف ليضيف:

ـ هذا عمل لم يقدم عليه حتى أحمد الأكبر الذي أبت حكمته إلاّ أن يعمل كل ما بوسعه ليجعل فرنسا هي التي تعلن الحرب، لأن دروس الأجيال علّمته أن من يحتكم إلى السلاح أوّلاً هو من ينال الهزيمة أوّلاً!

التفت نحو الدغيّس فأبصر إيماء سخرية في سيماء وجهه الميّتة. لحظتها أومأ له الدغيّس بسبّابته أن يقترب. مال نحوه فتمتم الدغيس في أذنه:

ـ الباشا قرّر أن يعلن الحرب على فرنسا لأنّه قرّر أن يصير قيصراً!

تنحّى مليطان كأنه لدغته أفعى. ثم ابتسم فجأة ليتساءل:

ـ هل هذه نكتة؟

عاد الدغيّس يتقنّع بحجابه المبهم. قال وهو يحدّق في الفراغ بسيماء الجمود:

ـ رسول السلطان استطاع أن يدسّ في رأسه هذه الجرثومة كما أخبرني أحد المخبرين في القصر يوم أمس!

تطلّع مليطان إلى رفيقه مشلولاً. برطم:

ـ رسول السلطان؟

ـ رسول السلطان أقنع الباشا بأن ينتصر على ضعفه مرّة ليصير هانيبالاً، أو قيصراً، أو إسكندراً أكبر، أو حتّى رسولاً!

مضى مليطان ينحني على الدغيّس طويلاً. حشرج بلا إرادة:

ـ ما هذا الهراء؟

قال الدغيس بسيمائه الجامدة التي تذكّر بسكون كهنة الأجيال عندما ينهمكون في قراءة نبوءة من النبوءات:

ـ من يحيا طويلاً لا يجب أن يسيئه إذا سمع هراءاً كثيراً!

ـ إذا صدق ما تقول فإن رسولك هذا رسول بهتان، وليس رسول سلطان!

غاب الدغيّس في ملكوت الفراغ. سأل:

ـ ألم يستفهم بشأن بك بنغازي؟

جلس مليطان في مواجهة الدغيّس. زفر. أجاب:

ـ لقد انتهى من الاستفهام عن مصرع بك بنغازي في لقاء الأمس.

سكت لحظة ثم أضاف:

ـ لقد انتابه فرح لم أعرفه إلاّ في الأطفال عندما أخبرته أن ميتته بالسمّ لم تُثر شكوك الرعيّة!

قال الدغيس وهو ما زال يفتّش عن بُغْية مجهولة في الفراغ:

ـ ولكن ميتة الضحيّة التالية لن تجلب له السعادة لأن تنفيذها بتجرّع السمّ مستحيل!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

عاد الدغيّس من غيبته. تطلّع إلى جليسه بنظرة مطفأة. قال:

ـ أعني رسول نابليون المدعو أرنو!

تبادلا نظرة ذات معنى. سأل مليطان:

ـ هل أمر بالتخلّص من رسول نابليون أيضاً؟

في مقلتي الدغيّس تبدّى الخواء. الدغيّس نفسه تبدّى لمليطان جلموداً مسبوكاً من شمع. تكلّم جلمود الشمع فقال:

ـ لقد وقع الرسول الشقيّ في يد أتباع سيف النصر عقب نزوله في سرت فاعتقلوه وذهبوا به إلى الشيخ الذي كبّله بالقيود يقيناً منه بأن ابن النصارى لا ينزل أرض سرت بلا سبب، سيّما إذا ارتدى لباس البدو واستعار لسان العرب!

ـ هل يتقن أرنو هذا لسان العرب حقّاً؟

تجاهل الدغيس السؤال. عاد إلى سيرة أرنو:

ـ سيف النصر بعث برسول إلى الباشا بشأن الأسير فما كان من الباشا إلاّ أن أمر بإطلاق سراحه، ولم يكتفِ بهذا الأمر، ولكنه طلب من سيف النصر أن يقدّم له العون اللازم لمواصلة رحلته.

ـ إلى أين يريده الباشا أن يواصل رحلته؟

ـ إلى طرابلس بالطبع.

سكت الدغيس. سكت مليطان أيضاً. ولكنهما استمرّا يتبادلان النظرات. في النظرات قرأ كل منهما أفكار الآخر كعادتهما. قال مليطان بلهجة ذات معنى:

ـ هل تريد أن تقول إن الباشا لم يأمر زعيم سرت بإطلاق سراح رسول نابليون إلاّ ليتمكّن من التخلّص منه؟

ازداد الخواء في المقلة المستقرّة في شعفة جلمود الشمع. تكلّم جلمود الشمع:

ـ الأمر بالتخلّص من رسول بونابرت صدر بالفعل ولم يبقَ إلاّ التنفيذ!

ـ هل يدلّ هذا على جديّة نوايا الباشا بشأن الحرب مع فرنسا؟

سكت الدغيس فعمّ سكون إلى أن سأل مليطان:

ـ والآن بماذا تشير عليّ أن أفعل؟

في سيماء الجلمود الخرساء لاح ظلّ ابتسامة. قال الدغيس وهو يعود لتأمّل الفراغ:

ـ يجب أن تفعل ما قدّر لك أن تفعله دائماً!

ويبدو أن الجواب لم يقنع مليطان فتمتم:

ـ ماذا تعني؟

لم يجب الدغيّس فأضاف مليطان:

ـ هل تريدني أن أحطّم صاري السفارة الفرنسية حقّاً لا لشيء إلاّ

لأن رسول السلطان المزعوم أقنع الباشا بأن ينقلب بين يومٍ وليلة قيصراً أو هانيبالاً، أو.. أو لا أدري من قرّر أن يصير أيضاً؟

قال الدغيس:

ـ أهل السلطان دُمى تتحرّك بيد القدر، أمّا نحن فدُمَى تحرّكها يد أهل السلطان!

22

وجد أحمد بك نفسه من جديد مهاجراً.

لم يجد نفسه مهاجراً فحسب، ولكنه وجد نفسه، هذه المرّة، طريداً أيضاً.

فما إن تأهّب لامتطاء متن إحدى السفن المتجهة إلى جزيرة مالطا حتّى أقبل عليه رسول الوزير خوجه محذّراً. قال له الوزير على لسان الرسول إن ذهابه إلى مالطا مجازفة بعد أن وقعت الجزيرة في قبضة صديق يوسف باشا نابليون؛ والأنسب له أن يتجه إلى أي بقعة في أرض الله الواسعة باستثناء بقعتين هما مالطا ومصر. ضحك يومها حتّى فاضت مقلتاه دموعاً ثم التفت إلى رسول الوزير قائلاً إنه لا يعرف في هذه الدنيا بقعة يستطيع أن يأوي إليها باستثناء هاتين البقعتين: مالطا ومصر! ولكن الباي حمّودة هرع لنجدته في محنته هذه أيضاً. أمر باستصدار هويّة تونسيّة له تمكّنه من العبور إلى البلدان، كما أمر له بأحد الأعوان ليسير بمعيّته إلى أن يبلغ برّ الأمان على حدّ تعبير رسول السلطات الذي أقبل عليه بهذه البشارة.

ثم غادر.

غادر إلى صقلية على ظهر سفينة ترفع علم سردينيا، لينطلق من هناك إلى مصر على متن سفينة أخرى بالأوراق الثبوتيّة التونسية تجنّباً للوقوع في قبضة أصدقاء شقيقه يوسف الفرنسيس، يرافقه في الرحلة ذلك المخلوق الكئيب الذي شاء له الباي أن يكون له في السفر رفيقاً، وفي قضاء الحوائج معيناً.

ولكن حكمة باي تونس لم تكتفِ بتحصينه من الأخطار بالهويّة التونسية وحدها، ولكنها لم تنسَ أن تبدع له تميمة أخرى لم يكتشفها إلاّ ساعة عبست في وجهه الأقدار مرّة أخرى فسخّرت الرياح لتعصف بسفينته فتجبرها على الرسو في مرافىء مالطا التي حاول أن يتجنّبها. ساعتها استخرج رفيق الرحلة من جيبه أوراقاً مشبوهة دفع بها إلى السلطات الفرنسيّة قائلاً إنها شهادة سيّده التجارية. بفضل هذه الأوراق لم ينجُ من أشراك الفرنسيين وحسب، ولكنه استطاع أن يستبدل خط سيره فيغادر إلى الإسكندرية مباشرة (على متن سفينة تجارية إسبانية) بدل السفر إلى صقلية ومنها إلى الإسكندرية.

في مرافىء الإسكندرية أيضاً تولت شهادة الزور هذه الأمر فأعمت السلطات الفرنسية عن حقيقته، فدخلها بسلام، كأنّ الأقدار أرادت أن تلقّنه درساً يقول إن ما يجلب لنا الخلاص ليس ما نعقد عليه الآمال، ولكن خلاصنا فيما نستهين به ولا نعوّل عليه عادةً!

في الإسكندرية لم يمكث سوى ليلة واحدة ليجد نفسه يمتطي صهوة جوادٍ في اليوم التالي متجهاً مع رفيقه الكئيب إلى الدواخل بدل أن يتجه إلى العاصمة. وعندما عبّر عن دهشته لرفيق الرحلة قال

صاحب الكآبة إن المهمّة الملقاة على عاتقه هي التخفّي عن الأنظار، لا التبختر أمام الأغيار، والعاصمة ساحة تعجّ لا بجواسيس الفرنسيس فحسب، ولكنها الأرض التي يرتع في رحابها جواسيس شقيقه يوسف القرمانلي أيضاً! صاحب العبوس سافر به عبر أراضي الدواخل، ولم يتوقّف حتى بلغ به حقول الصعيد قائلاً إنها المكان الوحيد الآمن من فضول الخلق.

في هذه الأرياف اعتزل في بيت استأجره له صاحب الكآبة، فلم يجد حيلة لإماتة الوقت سوى القوارير. نسي وصيّة الوزير خوجة، وربّما تناساها، فغرق في القوارير كما لم يغرق من قبل. لم تدفعه الشهوة إلى السلطة للغرق في مستنقع القوارير، ولكن العلّة كانت في الحنين: الحنين إلى حياة السكينة مع أفراد العائلة، مع الشقيّة للاّحسنيّة التي جنى عليها باقترانه بها كما أدرك متأخراً. وهي جناية لم تستحقّها يوماً. جنى عليها كما جنى على الأطفال الذين أتى بهم من المجهول ليضع رقابهم في يد طاغية لا يرحم هو الدنيا قبل أن يجني عليهم بوضعهم رهائن في يد طاغية آخر هو يوسف. لأنهم لم يكونوا ليقعوا جميعاً ضحايا في كف الطاغية يوسف باشا لو لم يرهنهم في كف الطاغية الأرذل (وهو الدنيا) بإنجابهم من بطن المجهول. ولهذا لم يكن له أن ينجب الأطفال، كما لم يكن له أن يقترن بامرأة. صاحب السلطان بالذّات يجني على نفسه قبل أن يجني على الأسرة عندما يبتني أُسرة. لأن مريد السلطان، أو صاحب السلطان، مخلوق لا يحيا حياة الناس، ولكنه يحيا قاب قوسين أو أدنى من فم التنّين. صاحب السلطان مخلوق مستهدف منذ ميلاده

حتى مماته. مستهدف من الخلق قاطبة. مستهدف من القدر أيضاً حتى لو أفلح في تحقيق معجزة تعصمه من كيد الخليقة. مستهدف من ربّ الأرباب أيضاً لأن ربّ الأرباب تخلّى عنه وغسل يديه من أمره منذ اللحظة التي اختار فيها السلطة بديلاً للربّ. لأن إرادة السلطة ليست خطيئة في حقّ الربّ فحسب، ولكنها استعارة لسلطة الربّ. اختلاس لسلطان الربّ من ملكوت الربّ. ومن تخلّى عنه الربّ لا بد أن يدفع ثمن خياره. وأسوأ ثمن عليه أن يدفعه ليس أن يدفع حياته ثمناً للمجازفة، ولكن أن يرى امرأته تتسلّل إلى مخدع صاحب الغلبة، وولده يُساق إلى اصطبل البهائم وهو يرتدي أثواب العبيد. بلى، بلى. الخسارة ليس أن نهلك بفقدان السلطة، ولكن الخسارة أن نعجز في فكّ الرهن عن رقاب أولئك الذين جسّدوا في الدنيا عارنا. عار صاحب الهزيمة لا يكمن في الهزيمة، ولكن في التنكيل بالفئة التي تمثّل عار صاحب الهزيمة.

الإحساس بالعار هو ما دفعه إلى رحاب القوارير منذ أوّل يوم ذاق فيه طعم السائل المخبّأ في زجاج القوارير. وهو لم يدرك ذلك يومها، ولكنه أدرك ذلك بمعاشرة القوارير. فما إن يستحضر حال الذريّة، وحال أمّ الذرية، حتّى يتزلزل بألم لا يطاق. هذا الألم لم يفلح في مداواته إلاّ ترياق القوارير. ففي إحدى الليالي عندما جلس لاحتساء كأس في بستان البيت أقبل عليه زائر أنكره بادىء الأمر. ولكنه ما لبث أن تبيّن فيه سيماء الوليّ المنجي بوجمعة بطربوشه الأحمر المهيب، وعكّازه التقليدي القديم، وجبّته التونسية الفاخرة.

عانقه بحرارة، ثم أجلسه قبالته على كرسي محبوك من أعواد الحقول قبل أن يرحّب به قائلاً:

ـ أنت لا تدري كم افتقدتك يا شيخنا. أكاد أقول إنني لم أفتقد في غربتي عن تونس سواك باستثناء شيء واحد سوف تعذرني عليه ألا وهو.. البحر!

تضاحك الوليّ عن فم نضيد الأسنان فما كان منه إلاّ أن مال نحو ضيفه ليقول:

ـ هل تدري يا مولانا الشيخ أنّك ازددت شباباً؟

ضحك ثم أضاف:

ـ هل اكتشف صاحب الفضيلة عقاراً لمداواة الشيخوخة؟

تشبّث بوجمعة بعقفة عكّازه كعادته قبل أن يجيب:

ـ بلى. لقد اكتشفت هذا العقار منذ زمن بعيد، ولكنني لم أفلح في استخدامه إلاّ أخيراً!

فسأله أحمد بك بلهفة:

ـ هل يستطيع مولانا أن يفشي لي سرّ هذا العقار؟ أنت تعلم أن هذا الغول شبح يهدّدنا جميعاً!

ابتسم الشيخ قبل أن يجيب:

ـ أعجوبة هذا العقار ليست في الحصول عليه، لأنه في متناول اليد، ولكن في كيفيّة استعماله!

تناول أحمد بك جرعة من كأسه قبل أن يمضي في مزاحه:

ـ خبرني عن العقار أوّلاً قبل أن نتحدّث عن الاستعمال!

سكت الشيخ لحظات، ثم قال فجأة:

ـ الروح!

ثم أضاف:

ـ عقار الشيخوخة هو الروح!

ساد صمت قبل أن يطلق أحمد بك ضحكة عالية. قال:

ـ الروح؟ هل قال مولانا إن عقار الشيخوخة هو الروح؟ الحقّ أني انتظرت أن أسمع من فم الشيخ اسماً آخر لهذا العقار غير هذه الكلمة الغامضة التي لم أفهم لها يوماً معنى. ها ـ ها ـ ها..

جعجع بضحكته طويلاً قبل أن يستوقفه الشيخ بعبارة:

ـ عقار الشيخوخة هو الروح، أمّا مفعول العقار فلا يستقيم إلاّ بتغليب الروح على قمقم البدن!

عاد أحمد بك يجعجع بضحكه الهستيري. ردّد:

ـ تغليب الروح؟ ما معنى تغليب الروح على البدن يا مولانا؟

اندفع إلى الكأس في حين أجاب الشيخ بوجمعة بصوت غريب:

ـ تغليب الروح على البدن يعني الحرية!

استنكر أحمد بك:

ـ الحرية؟

ـ بلى. الحرية!

ـ ماذا يمكن أن تعنيه هذه الكلمة أيضاً؟

سكت الشيخ طويلاً قبل أن يتمتم:

ـ الحرية تعني الموت!

هيمن بعدها سكون طويل لم يدنّسه سوى نحيب الجنادب في الحقل المجاور. احتسى أحمد بك من كأسه جرعة أخرى. ردّد:

ـ الموت!

ولكن الشيخ تململ في جلسته قبل أن يقول:

ـ الحقّ أني لم أعرّج عليك في رحلتي لأحدّثك عن الموت.

تساءل البك:

ـ هل يتحدّث الشيخ عن رحلة؟ هل لي أن أعلم إلى أين يذهب الشيخ؟

تطلّع بوجمعة نحو البك في عتمة ذلك المساء قبل أن يجيب:

ـ أقبلت عليك بوصيّة وأنا في طريقي إلى الأراضي المقدّسة!

ـ وصيّة؟

ـ وصيّة قديمة، ولكني قررت أن أعيدها عليك، ليقيني أن الاستهانة بالوصايا ليس إثماً في حقّ الله وحده، ولكنه جرم في حقّ النفس أيضاً!

هتف أحمد بك:

ـ إيّاك أن تحدّثني عن التخلّي مرّة أخرى!

اختطّ الشيخ على الأرض رمزاً مبهماً بعكازه ثم قال:

ـ سأخون ضميري إذا لم أحدّثك عن التخلّي!

تطلّع إليه أحمد بك طويلاً قبل أن يقول:

ـ ماذا يقول الضمير لإنسانٍ اختارت له الأقدار مصيره ولم يختر هو مصيره لنفسه؟

ـ الأقدار لا تختار للإنسان مصير الهلاك أبداً، ولكنّنا نحن من يختار لأنفسنا مصير الهلاك!

ـ لقد قلت لك يا مولانا في تونس إنني لا أحسن عملاً في دنياي غير السلطة.

ـ لا أريدك أن تنسى أن الله لا يغيّر ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم!

تناول أحمد بك ثمالة كأسه. قال:

ـ تغيير ما بالنفس هو ما أعجزني دائماً!

هتف الشيخ:

ـ إذا لم تغيّر ما بالنفس هلكت!

قال أحمد بك بلا مبالاة:

ـ إذا هلكت فلست أنا من قرّر لنفسي التهلكة!

سكت الشيخ طويلاً قبل أن يقول:

ـ يحزنني أن أسمع هذا!

انتصب السكون. في الحقول احتدّ نحيب جوقة الجنادب. من الشمال هبّت نسمة مشحونة بالرطوبة. قال الشيخ:

ـ لم يبقَ لي إلاّ أن أستأذن للرحيل!

شيّعه أحمد بك عبر دربٍ يلتفّ حول البيت ويؤدّي إلى النيل. رافقه في العتمة خطوات ثم عانقه قبل أن يترنّح في طريق العودة إلى

البستان. هناك وجد رفيق الكآبة يجرجر بعض الأحمال التي جاء بها من السوق.

استلقى على أريكته قبل أن يقول:

ـ ما أغرب أشياخكم في تونس!

تناول القارورة. ملأ كأسه حتى الحافة قبل أن يضيف:

ـ لم يكتفِ الشيخ بو جمعة بمطارتي بخرافة الخلاص في تونس، ولكنه لاحقني بهذه الخرافة حتّى في الصعيد، كأنّ الإنسان يستطيع أن يحقّق خلاصاً لإنسانٍ آخر!

توقّف صاحب الكآبة عن معاندة أحمال المؤونة التي أتى بها من السوق. تعجّب:

ـ الشيخ بو جمعة؟!

تناول أحمد بك جرعة من كأسه قبل أن يجيب:

ـ بلى أبو جمعة! الشيخ المنجي بو جمعة عضو مجلس الأعيان. هل تذكره؟

تعجّب صاحب الكآبة:

ـ هل تريد أن تقول إن. .

قاطعه أحمد بك:

ـ بلى. لقد زارني وهو في طريقه إلى الحجاز لأداء فريضة الحجّ. .

تطلّع الرجل إلى البك بذهول. تمتم:

ـ آمل ألاّ تكون القوارير قد أصابت في مولاي قواه العقلية!

حدجه البك:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

حدّق الرجل في العتمة ليتبيّن مولاه طويلاً. قال أخيراً:

ـ أردت أن أقول إن الشيخ المنجي بو جمعة الذي تحدّثني عنه قد مات قبل انطلاقنا من تونس بشهور، فكيف يستطيع أن يزورك وهو في طريقه لأداء فريضة الحجّ؟!

23

«من بينوا أرنو بالصحراء الليبيّة إلى قرينته المصونة بالديار المصرية المحروسة: سوزان!

ملاكي!

ستتعجبين بلا شكّ من وصول رسالة من أرنو الذي لم يكتب لك يوماً حرفاً واحداً برغم حياته المنسوجة كلّها من أسفار تتلوها أسفار، ولكن الأمر مع السفر اختلف هذه المرّة لا بسبب البلايا التي حاقت بي، ولكن بسبب إحساسي المجهول بدنوّ الأجل. لقد عبّرت لك دائماً عن امتناني للأسفار لا لأنها تهبنا ذلك العمق الذي يتحدّث عنه الفلاسفة فيقولون إنه شرط السعادة، ولكن لأن في السفر إلهام لا يختلف عن إلهام النبوّة. بل أستطيع أن أتجاسر فأقول إن السفر يجود علينا بأنفس كنوز دنيانا وهي الحرية. واسمحي لي أن أعترفِ لكِ اليوم بأني لم أكن لأحترف التجارة لو لم تعلّمني السفر. بل أجرؤ فأقول إن فضيلة التجارة الوحيدة هي هبة السفر هذه حتى إني لا أستطيع أن أتخيّل حال أولئك التجّار الذين يمارسون تجارة الاستقرار.

بلى، يا ملاكي!

الآن بعد أن وقفت وجهاً لوجه مع الحقيقة الأخيرة في دنياي أستطيع أن أدرك أن سفري طوال السنوات الماضية لم يكن مطاردة لغنيمة أو مال، ولكنه لم يكن سوى مطاردة لقدر. مطاردة لقدري. لأن السفر، بما أنه بحث، ما هو إلاّ طلب لحقيقتنا الخفيّة. حقيقتنا البعيدة التي تفرّ منا بسبب فرارنا نحن منها. نفرّ منها بأوهام نختلقها. نصنع لأنفسنا أحلاماً بديلة لنغترب عنها برغم أنها، ببساطتها، أقرب لنا من حبل الوريد. ربّما لأننا لا نريد أن نعترف بهذه البساطة فننكرها لننكر معها الغاية. ننكر معها السرّ الذي لم نولد إلاّ من أجله، ولم ننعم بالحياة إلاّ لأجله، ولم نركض خلف سراب كالتجارة إلاّ لأجله. وكان عليّ أن أحيا طويلاً، وأركض كثيراً، كي أعلم أن في أسفاري هذه بالذّات يكمن سرّي. والتجارة في هذه الرحلة لم تكن سوى حُجّة. لأني بهذه الأسفار تعلّمت ما لم يتعلّمه أقراني من أهل التجارات. بهذه الأسفار تعلّمت أن السفر حرية. والحرية في كل سفر هي الغاية وليست التجارة أو أي حاجة دنيوية أخرى. وبما أن السفر حرية فليس عليّ اليوم أن أنكر الموت لأني أدركت منذ زمن بعيد أن الحرية هي القرين الشرعي لما اعتدنا أن نسمّيه موتاً بالقدر نفسه الذي أدركت فيه (منذ زمن بعيد أيضاً) أن السفر هو القرين الشرعي للحرية.

ملاكي!

لا أخفي عليك أنّي تألمت في ترحالي كثيراً فيما مضى. ولكن آلام أسفاري السالفة كلّها لا تقاس ببلايا سفري هذا دون أن أعني

بالطبع الآلام التي تصيب بها الأسفار أبدان أهل الأسفار، برغم أن رحلتي هذه هي الرحلة الوحيدة التي استبدلت فيها الغاية ولم أخرج لإنجاز صفقة تجارة، ولكني خرجت لأداء رسالة. رسالة ملقاة على عاتق كل منّا وهي رسالة أداء الواجب نحو ذلك اللغز الذي حيّرني معناه دائماً دون أن أجد تفسيراً لتعلّقي به وهو: الوطن!

بلى، يا ملاكي!

لقد خرجت لأداء رسالة الوطن لأوّل مرة في حياتي أنا الذي هاجر من الوطن منذ الصبا، وعشت عمري خارج الوطن، فظنّ الوطن أني تنكرتُ له بممارسة التجارة فقرّر أن يصنع منّي شهيداً في التفاتة وفاء منّي. لقد استدرجني ليعيدني إلى رحابه مرّة واحدة وإلى الأبد، لأنه يدري دراية الرّب (لأن حقيقته مستعارة من حقيقة الربّ كما يقال) أنه إن أفلتني هذه المرّة فسوف تختلسني منه معشوقتي الأسفار، سوف تحرمني منه معشوقتي الحرية؛ فقرّر لهذا السبب أن ينتهز الفرصة ليجعل منّي قرباناً. قرّر أن يضحّي بي ثمناً لفلاحه. وهذا هو عزائي. بلى، يا ملاكي! عزائي أني أموت هذه المرّة فدية للوطن الذي أحببته كما لم أحبّ شيئاً آخر في هذه الدنيا برغم اغترابي عنه. بل ربّما كان حبّي له ناتجاً أصلاً عن قدر الاغتراب عنه. وأشعر الآن بسعادة تعجز الكلمات عن التعبير عنها لأني أستطيع أن أهجع إكباراً له. أن أستريح أخيراً إعلاءاً لشأنه. أن أدفع ثمن ضلالي عنه ليحيا هو مرفوع الرأس. لأن لا قيمة لإنسان لم يعشق وطناً. بل لا وجود لإنسان لم يجد وطنه.

ملاكي!

لا أريد أن أحدّثك عن ما تعرّضت له من ذلّ وقهر وتنكيل في سبيل أداء المهمّة التي سافرت من أجلها إلى الصحراء الليبية لأجد نفسي وحيداً، مهجوراً، حافياً، جائعاً، في خلاء بلا بداية ولا نهاية، لا لشيء إلاّ بسبب وفائي لرسالة الوطن. لقد أدركت في هذه الرحلة أن أرذل ما يمكن أن يقترفه الإنسان في حقّ أخيه الإنسان هو الخيانة! بلى! وجدت طعم الخيانة أكثر مرارة من الموت. ولكن.. ولكن لا أريد الآن أن أستطرد، لأن الشبح الذي يترصّدني منذ تحررت من أسر فرسان الشيخ سيف النصر منتظراً الفرصة المناسبة لجرّ النصل على نحري ليس أسوأ من الربّان سينيكا الذي ألقى بي في هذه القفار كما يُلقى بالمتاع لا لشيء إلاّ لأن قصر القامة في ظنّه رذيلة تجلب النحس كما سيجلب قصر قامة نابليون الشؤم لفرنسا.

ملاكي!

لا أريدك أن تحزني لحظة واحدة لفقدي، واعلمي أن الحقيقة كانت دائماً من نصيب الأموات، لا الأحياء. وأن تكون الحقيقة غنيمة أرنو فذلك يعني أن من استحقّ الرثاء ليس أرنو، ولكنه سينيكا وأمثال سينيكا.

ملاكي!

لا أريد أن أطيل عليك. كل ما أريد أن أوصي به لك هو ملك يديك فيما يتعلّق بحطام الدنيا. أمّا تركتي الحقيقية لكِ فهي سيرتي التي يجب عليك أن تقرئي تفاصيلها لتقفي على وصيّتي الحقيقية.

لأن وصية الإنسان الحقيقية ليست في كلمٍ اختطّه بقلمٍ على قرطاس، ولكن سيرته الخلقية هي درسه النهائي.

لا أعرف كيف أعبّر لك عن امتناني جزاء الرفقة في الرحلة، ولا يحزنني الموت بقدر ما يحزنني الحرمان من هذه الرفقة!

وداعاً ملاكي!

بينوا أرنو
صحراء سرت.
9 مايو 1799م».

24

تسكّع الباشا في بلاط عرشه مهموماً بسيرة المجد. دبّ أمام العرش ذهاباً وإياباً كما راق له أن يفعل دوماً. دبّ أمام ذلك المعبود الذي عبده منذ الطفولة. منذ ضبطه الوالد متلبّساً بالجرم المشهود ليحدّثه ضاحكاً بحقيقة العرش. قال له يومها إن العرش ليس عرشاً بأعواده الملفقة المطلية بماء الذهب، ولكن العرش، كالحياة، يستعير حقيقته ممّا نهبه له نحن. ممّا يهبه له صاحب العرش. لم يدرِ يومها أن الأب كان يتحدّث عن الفرق بين المُلك وبين المجد. كان يعني بطلان الصلة بين المُلْك والمجد. كان يقول إن امتلاك العرش لا يعني امتلاك المجد. لأن امتلاك العرش كثيراً ما كان خزياً في حين صار التخلّي عن العرش (لا نيل العرش) لأناسٍ كثيرين مجداً. داهية الأستانة تحدّث أيضاً عن المجد، تحدّث عن التخلّي؛ ولكنه لم يرهن المجد بيد العرش. لأن الشجاعة (التي يشترطها المجد) تكمن في التخلّي لا في الامتلاك. وقد اختلى بنفسه طويلاً

عقب اللقاء ليفكّر في البطولة. ليفكّر في التضحية بالعرش مقابل نيل المجد. التضحية بعرشٍ ضحّى بكل شيء في دنياه في سبيل نيله. ضحّى بأنبل خصلة جعلها ربّ العباد حكراً على الإنسان ألا وهي صلة الرحم. صلة ذوي القربى. ضحّى بالشقيق حسن بك لينال العرش. ثم اقترف خطيئة أخرى هي العقوق عندما جرّد السلاح في وجه الأب إبّان الحروب الأهلية. ثم دبّر مكيدة تخلّص بها من الشقيق الثاني أحمد بك لينفرد بمعبوده العرش. فهل يضحّي بكل هذه الأضاحي ثمناً للفوز بوهمٍ لم يجد له مخلوق واحد تفسيراً واحداً اسمه المجد؟ بلى. ما هي هذه العنقاء التي اصطلح على تسميتها مجداً إن لم تكن وهماً في وهم؟ بالعرش يجني صاحب العرش السلطان، يجني خلافة حقيقية لربّ الأرباب في الأرض، فماذا يجني صاحب المجد بمجده؟ إنه يجني التهلكة في أغلب الظنّ؛ فإن حدثت أعجوبة ولم يهلك، فإن تاج الموت يظلّ يحوم حول رأسه إلى أن يكلّل جبينه آجلاً إن لم يحدث ذلك عاجلاً. هذا يعني أن رسول الأستانة ساحر لئيم أقبل عليه ليخدعه. أقبل عليه لينصب له شَرَكاً يسلب بموجبه عرش طرابلس ليعيده على يد أمثال اللوطي علي برغل إلى الأستانة. يعيده إلى هذا البعبع المنتصب في مضائق الدردنيل كأنه الغول الذي تقول الأساطير إنه يمتصّ دماء الخلق بوسيلة النظر. بلى، الأستانة مصّاص دماء لا يكتفي بالرشاوي التي يتلقّاها من أصحاب العروش في الولايات، ولكنه ينهمك في تدبير المكائد ضدّ أصحاب هذه العروش ليستولي على الغنيمة كلّها. فهل تنطلي عليه الحيلة ويدمّر العلاقة مع فرنسا تلبيةً لمشيئة غول الأستانة التي حاول رسول الدهاء أن يقنعه بها بتزيين التهلكة مقابل

المجد المزعوم؟ وإلاّ ما الفرق بين هانيبال الذي يتحدّث عنه، أو يوليوس قيصر، أو غيرهم من البلهاء، إذا قورنوا بملوك كسرى، أو لويس الخامس عشر، أو السادس عشر، أو إذا قورنوا بسلفه أحمد الأكبر، أو حتى بأبيه علي باشا القرمانلي؟ لقد استطاع أحمد القرمانلي الأكبر أن يبتني صروح مملكة خضع لمشيئتها ملوك الدنيا، وأجبرهم على دفع الإتاوات طوال حياته دون أن يفكّر يوماً في التخلّي عن العرش إكراماً للمجد المزعوم. لم يكتفِ سلفه أحمد الأكبر بهذه البطولات، ولكنه أضاف لها بطولة لم يقبل عليها لا هانيبال في حربه مع روما، ولا يوليوس قيصر في حروبه مع خصومه وهي التخلّي الأكبر. التخلّي طوعاً عن الحياة: الانتحار!

بلى. انتحر أحمد الأكبر لا طلباً للمجد، ولكن خوفاً من الذّل. وداهية الأستانة اللئيم يريده أن ينتحر أيضاً لينال خرافة المجد، وإلاّ ماذا يمكن أن يعنيه التخلّي عن العرش والذهاب بجيوش الحفاة لمحاربة نابليون إن لم يكن انتحاراً أقبح من انتحار أحمد القرمانلي الأكبر؟

كلاّ، كلاّ. لن يتخلّى عن العرش، ولن يذهب بجيوش الحفاة لمحاربة نابليون، بل لن يحرّك ساكناً ضد رعايا حليفته القديمة فرنسا. سيصدر أمراً بإطلاق سراح كافة الرعايا الفرنسيس الذين أمر باعتقالهم، وسوف يعيد لقنصل فرنسا اعتباره لا بتحريره من الإقامة الجبرية فحسب، ولكن بالسماح له بالعودة إلى مقر القنصلية لممارسة عمله. فهل سيخسر بعمله هذا أم سيكسب؟

ربّما خسر ذلك الغول الذي لم يكتفِ دوماً بامتصاص دم

المملكة الطرابلسية، ولكنه لم يخفِ يوماً نواياه بالاستيلاء على عرش المملكة الطرابلسية. وهو ما يعني أن خسارة الأستانة في هذه الحال كسب. ونيل رضاها خسارة. في حين يحدث العكس في العلاقة مع فرنسا: التسامح مع فرنسا ليس ضماناً لاستتباب السلم مع هذه الإمبراطورية المهيبة فحسب، ولكنه صفقة لتحقيق نصرٍ لم يخطر لأحد على بال. صفقة سوف ينال بموجبها غنيمة لم تخطر لأحد على بال. صفقة يستبدل فيها الشهوة المزوّرة إلى المجد الموهوم مقابل الفوز بشهوة زرعتها الطبيعة في كيان كل مخلوق فصارت في مقابل وهم المجد حقيقة ألا وهي: المرأة!

بلى، بلى. إطلاق الرعايا، وردّ الاعتبار لقنصل فرنسا بطرابلس سيدفع نابليون لردّ الإحسان بأحسن منه. سوف يطلق سراح عمّه حسن بك ليتولّى بكوية بنغازي التي أخلاها من صاحبها السالف خصيصاً لهذا الغرض. وتولّي العمّ حسن بك لبنغازي سيحرّر ربّة الحسن كريمته من خطر الوقوع في أيدي عبيد المماليك ليأتي بها إلى مخدع ابن العمّ. ليأتي بها إلى مخدعه هو. ها ـ ها ـ ها. . لقد حام طويلاً وارتاد آفاقاً نائية كي يفلح في تحقيق هذا الإنجاز!

بالأمس استقبل سفير الإنجليز استجابةً لرغبته. أقبل ذلك القنصل الوقح ليعبّر له عن استياء حكومته من عدم تنفيذ فرمان السلطان الأعظم بشأن رعايا الفرنسيس. قال أيضاً إن المماطلة في تنفيذ أوامر إمبراطورية حليفة لإنجلترا عمل من شأنه أن يجعل من مواصلة عمله في ربوع الإيالة مستحيلاً. بلى، هكذا عبّر السفيه: «ربوع الإيّالة». لقد تعمّد استخدام هذه اللفظة المقيتة ليذكّره بحضور المملكة في

فلك امبراطورية بني عثمان! استخدم العبارة المهينة ليهينه في عقر داره. في جوف عرشه. ابتلع ساعتها الإهانة ليتسلّح ببرودٍ عرف أنه أدهى خصلة في طبع سلالة الإنجليز. حدّق في مقلة القنصل ذات اللون الأزرق ليقول: «هل يعلم السيد القنصل أن الرجل الذي يجلس قبالته في هذه اللحظة إنسان يتأهّب للاحتفاء بالعيد؟!».

تطلّع إليه القنصل بفضول قبل أن يتساءل: «عيد؟ ما أعلمه أن أعيادكم كلّها ما زالت بعيدة، فعن أيّ عيد يتحدّث صاحب السعادة؟!». حدّق في مقلتيه الزرقاوين طويلاً قبل أن يجيب: «العيد الذي أتحدّث عنه لا صلة له بأعياد المسلمين. العيد الذي أعنيه هو عيدي وحدي!». تساءل القنصل: «عيدكم وحدكم؟! ماذا يعني صاحب السعادة؟!».

سكت دون أن يكفّ عن ملاحقته بعينيه. قال أخيراً: «العرس هو عيد الرجل، عيد الفرد، كما أن العيد هو عرس الكلّ. ونابليون الذي تريدونني أن أشهر حراب الحرب في وجهه هو الذي سيأتي لي بعلّة عيدي. بعروسي. والعيد كما تعلمون يتطلّب قرباناً. ومن دواعي سروري أن تهجروا هذه الديار لتكونوا أنتم قرباني في عيدي. ها ـ ها ـ ها..».

ضحك يومها حتّى دمعت عيناه. ولم يدر الباشا أن الدموع التي نسفحها فرحاً ندفع ثمنها دموعاً من جنس آخر. ندفع مقابلها دموع الحزن؛ لأن الإنجليز الذين استفزّهم موقفه من نابليون لم يكتفوا بسحب قنصلهم من ربوع المملكة، ولكنهم ما لبثوا أن أقبلوا بأساطيلهم الرهيبة لمحاصرة سواحل المملكة. ولم يفكّوا هذا

الحصار إلاّ بعد أن شحنوا في سفنهم جميع الرعايا الفرنسيس المقيمين بطرابلس. كما حملوا معهم في غزوتهم تلك المسيو بوسييه قنصل فرنسا ومساعده المالطي دورو!

25

في المخيّم الذي أقامه حول أسوار عكّا منذ أسابيع اختلى نابليون بنفسه في خبائه ليتأمّل إحساساً مريباً صار له مع الأيام الأخيرة وسواساً هو: اليأس!

كان قد ملّ سجنه الرهيب الذي زجّه فيه أعداؤه الإنجليز في مصر فقرّر أن يتجه بجيوشه شرقاً تمرّداً على قدره وفكّاً للحصار المميت. قبل أن يجتاح غزّة أرسل مبعوثاً إلى جزار عكّا يطلب منه الاستسلام. ولكن الرسول عاد برسالة غريبة لم يفلح في فكّ طلسمها حتّى الداهية الفردوسي. فقد تحدّث الرسول كيف وجد نفسه في حضرة مخلوقٍ كئيبٍ جديرٍ بلقب الجزّار حقّاً ظلّ صامتاً طوال اللقاء يحدّق في الفراغ بحدقتين وحشيتين تليقان أيضاً بجزّار. لم يتمالك نفسه فسأل أحد الأعوان عمّا إذا كان الرجل يعاني من الخرس أو خلل في العقل، ولكن الرجل ابتسم بغموض ولم يجب على السؤال. الرسول قال إنه أبصر القرطاس (المبعوث من نابليون والذي سبق له وأن سلّمه للأعوان عند وصوله) ملقىً بإهمال على منضدة صغيرة بجوار صاحب عكّا. ملّ الصمت، كما ملّ الانتظار الطويل فتساءل عمّا إذا كان في نيّة صاحب السعادة أن يتنازل ليحرّر على رسالة نابليون ردّاً. انتظر طويلاً أيضاً قبل أن يبصر الرّد عياناً لا

تحريراً في قرطاس. فقد انقضّ المخلوق على القرطاس ليمزّقه إرباً إرباً. لم يكتفِ بتمزيقه فحسب، ولكنه ألقى بقصاصات القرطاس في فمه وطفق يمضغها بحقد. مضغها طويلاً دون أن يتوقّف عن التحديق في الفراغ بحدقتيه الوحشيتين، ثم بصقها. بصقها في وجهه هو رسول نابليون! كان ذلك الفعل الأخرق بمثابة كلمة السرّ لكي ينقضّ عليه العسس ويلقوا به خارجاً. هناك كشّر أحدهم في وجهه قائلاً إنه رأى بعينيه جواب صاحب السعادة على رسالة نابليون. ثم أضاف: «للرسائل الوقحة في عرفنا جوابٌ وقح!».

ولكنه لم ييأس. حرّر خطاباً ثانياً ضمّنه تهديداً معلناً هذه المرّة وبعث به إلى الجزّار مع رسول آخر. ولكن الرسول الأخير كان أسوأ حظّاً من سلفه، لأن الأقدار لم تكتب له العودة أبداً. فقد فزّ الجزّار من عرشه ليجزّ النصل على نحره بيده إمعاناً في الإيضاح، وبرهاناً على البلاغه في لغة الرسالة!

بعد تلقّي هذه الرسالة قرّر أن يلقّن الجزّار درساً فزحف بالجيوش حتّى بلغ أسوار المدينة. خيّم هناك وبدأ في قصف الجدران بقذائف المدافع. قصف الأسوار آناء الليل وأطراف النهار، ولكنه لم يفلح في تدمير حجر واحد من أسوار عكّا الخرافية برغم كثافة القصف. في خلوة له مع ترجمانه الفردوسي تساءل: «هل يعقل أن تكون الأسوار بهذه الصلابة حتّى تستعصي على مدافع تنفث النار ليل نهار؟».

لم يجب المسيو فينتورا فأضاف: «لو كنت من ملّة المؤمنين بالغيوب لقلت إن في الأمر سحرا!». غاب الفردوسي بعيداً قبل أن

يقول كأنه يقرأ في الأفق نبوءة: «على من قرّر أن يستولي على الشرق أن يتسلّح بالسحر، كما على من قرّر أن يستولي على الغرب أن يتسلّح بالعلم!». حدجه يومها خلسةً، ثم سأله همساً: «أيعني هذا أنّنا يجب أن نفتّش عن ساحر؟!». لم يجب الفردوسي على السؤال، بل لم يجب بعد ذلك اليوم على أيّ سؤال على الإطلاق، لأن الطاعون (الذي بدأ بالتفشّي في الجند) ما لبث أن صرعه في مساء اليوم نفسه.

سقوط الفردوسي فريسة الوباء زعزعه كما لم تزعزعه هزيمة الأسطول في أبي قير على يد بحريّة الإنجليز. زعزعه كما لم تزعزعه هزيمته المدهشة على يد أسوار عكّا، فذهب إلى خبائه ليقرأ الآيات في اليأس. هناك أدرك أن الاعتراف بالهزيمة ضرب من نصر، لأن الإنسان لن يشفى من علّة ما لم يعترف بهذه العلّة كما يقال. وبذرة النصر الحقيقية إنما تتخفّى في هذا الاعتراف الموجع. الاعتراف بالهزيمة التي يتجاهلها حتّى الأبطال ليصيروا أبطالاً؛ ليصيروا ضحايا تجعل منهم أبطالاً. هذا الاعتراف هو سرّ الشفاء. هو سرّ الغلبة. لأن ثمّة دائماً الخيار الرابع الذي أغفلته الإدارة في باريس بخطابها العجيب. بل تعمّدت أن تتجاهله لخطورته على مصيرها. فلا يهمّ رموز الثورة أن يُهزم نابليون في حروبه الجنونية أم ينتصر. ما يهمّ رموز الثورة أن يذهب نابليون بالجيوش بعيداً. ما يهمّ هو أن يختفي نابليون وتختفي معه جيوشه إلى الأبد ليخلو رموز الثورة إلى أنفسهم. أو ليخلو رموز الثورة لأهواء معبودتهم الثورة كما يروق لهم أن يردّدوا. وكي يحدث ذلك كما ينبغي يجب أن يذهب نابليون

إلى المنفى. يذهب إلى المنفى بدعوى تصدير مبادىء الثورة إلى العالم. يستطيع في سبيل تحقيق هذه الخرافة أن يتربّع على عروش الهند، أو ينزع عمامة سلطان الأستانة ليضعها على رأسه بدل قبعة الجيش، أو يحقّق معجزة أخرى فيبحر إلى بلاد الإنجليز ليلقنهم درساً في عقر دارهم بدل محاربتهم في بحور الأغراب بعيداً عن مقتلهم المتمثّل في ديارهم. وإذا أخفق في تحقيق هذه الأحلام فليس أمامه من خيار إلاّ أن ينحر نفسه، أو يفني جيشه. وكلّها خيارات تعصم الثورة من خطر الجيوش، وتحصّن مبادئها من نوايا المغامرين أمثاله. هذا ما أراد البلهاء أن يقولوه بخطابهم دون أن يحرّكوا ساكناً لدعمه أو فكّ الحصار عن جيشه، أو التكرّم لشدّ أزره بمبعوث يحمل في لسانه إشارة معنوية. ولكن عصابة الحمقى تلك لا تدري أن الجيوش إذا أخفقت في تحقيق غلبة على عدوّ فإنها لا تذهب إلى أمام لتفني نفسها، ولكنها تعود إلى الوراء لتنتقم ممن خذلها! بلى. هذا هو الخيار الرابع الذي غاب عن عصابة البلاهة في باريس وسوف يكون لهم مفاجأة لم يتوقعوها.

بالأمس تلقّى رسالة من باشا طرابلس يتحدّث فيها كيف أخلص لفرنسا كما لم يخلص لها أحد في كل الممالك التي تدين بالولاء المعنوي للأستانة، ولكنه اضطرّ أخيراً للتخلّي عن هؤلاء الرعايا (بما فيهم القنصل ومساعده) للإنجليز بسبب مدافع الأسطول الإنجليزي الذي لا حيلة له لمواجهته بعد أن أنهكت بلاده الحروب الأهلية ونهبها اللّوطي المدعوم من الأستانة علي برغل، الذي ما يزال طامعاً في العودة للاستيلاء على عرش طرابلس. الباشا لمّح في رسالته إلى

وجود هذا الوغد في غزّة بعد أن فرّ مع من فرّ من المماليك إلى الصعيد ليدبّر المكائد من هناك لا ضدّ عرش طرابلس وحده، ولكن ضد جيوش نابليون أيضاً؛ وهو يجاهر ضد الحملة ليرضي السلطان الأعظم علّ جلالته يتفضّل لينصّبه من جديد على عرش طرابلس! لم يفت الباشا أن يذكّره بالفظائع التي ارتكبها هذا المسخ ضد رعايا الأمم المسيحية عموماً، رعايا فرنسا خصوصاً!

في اللحظة التي همّ فيها نابليون، في خلوة ذلك اليوم، أن يستدعي الضبّاط ليأمر بالبحث عن المدعو برغل هذا أقبل عليه مساعده لينبئه بوفاة الفردوسي!

26

يروي محرّرو الحوليات (أمثال الجبرتي)، والمؤرخون (أمثال الرافعي) كيف انتهز شيخ درنه الملقّب بـ«المهدي المنتظر» فرصة توجّه حجيج بلدان المغرب إلى الأراضي المقدّسة عبر مصر ليجتمع بأمير الحجيج مصطفى بك ورفيقه القاضي التركي في منطقة الشرقية.

وصل الشيخ مكان الاجتماع متنكّراً في ثوب درويش، مقنّعاً بلثام كثيب تيمّناً بالشيخ أبي عبيد الله مؤسس الدولة العبيدية كما قيل فيما بعد. ويقال إن أمير الحجيج البك مصطفى سأله في ذلك اليوم ما إن التأم الاجتماع:

ـ هل يصدقني فضيلة الشيخ القول فيكشف لي عن سرّ نعته باسم «المهدي المنتظر»؟!

فما كان من الشيخ الدرناوي إلّا أن أجاب:

ـ كلّنا بتلبية النّداء مهديّ منتظر!

ولكن الجواب لم يقنع مصطفى بك على ما يبدو، لأنه ما لبث أن استفهم:

ـ ما أكثر الأخيار الذين يهبّون لتلبية النداء دون أن يفوزوا بلقب مهيب كـ«المهدي المنتظر»!

تطلّع إليه الشيخ الدرناوي بنظرة فضحت شكوكاً قبل أن يجيب:

ـ في هذا الزمان لا يكفي أن ترفع راية «الجهاد أفضل من الحجّ» كي تكسب في صفّك الجموع!

لم يستسلم مصطفى بك:

ـ أليس هناك رائحة لوجود تزوير؟

استنكر الدرناوي:

ـ تزوير؟

ـ بلى. تزوير! ألا يعدّ ادّعاء النبوّة في زماننا تزويراً وأيّ تزوير؟!

التفت الدرناوي نحو القاضي التركي الذي تربّع في ركن الدار وتشبّث بالصمت. قال:

ـ إذا كان ثمّة وجود لادّعاء النبوّة فلن تكون سوى نبوّة أداء الواجب. فإذا رأى بعض ضعاف النفوس أن يسمّيني مهديّاً منتظراً لهذا السبب فتلك خطيئة هؤلاء لا خطيئتي أنا!

ساد صمت. تبادل أمير الحجيج مع القاضي نظرة ذات معنى. عقّب مصطفى بك:

ـ الحق أننا كلّنا في انتظار هذا الرسول المنتظر، برغم أنه يخذلنا

دائماً فيرفض الاستجابة لانتظارنا. ولولا خوفنا من الوقوع في أحابيل الأدعياء لما كلّفنا أنفسنا حرج الاستجواب!

لحظتها راق للشيخ الدرناوي أن يعترف:

ـ لقد لقّبني إخواني بـ«المهدي المنتظر» لسببين أولهما: لأنّني أحمل لقب «المهدوي»، ثانيهما: لأني جاهرت بالقول إننا لا يجب أن ننتظر الخلاص من سادة السواحل، لأنهم لم يوجدوا إلاّ ليسلبونا قوتنا لا ليحموا ديارنا من غزوات الأعداء، بل يجب أن نصنع خلاصنا بأنفسنا.

تمتم القاضي لأوّل مرّة:

ـ أحسنت!

فأضاف الدرناوي:

ـ لا أتباهى أمامكم عندما أقول إني لم أهنأ بنومة منذ وطأت أقدام نابليون أرض مصر!

وافقه مصطفى بك بهزّة من رأسه المعمّم بعصابة مهيبة، ثم قال بعد لحظة صمت:

ـ بماذا جاءنا فضيلة الشيخ؟

استرق الدرناوي نظرة نحو القاضي المكوّم في الزاوية ثم قال:

ـ جئتكم بجيش مسلّح بالبارود والإيمان متنكّراً في أثواب الحجيج!

تبادل مصطفى بك مع القاضي نظرة، في حين أضاف الدرناوي:

ـ قلب كل مجاهد في هذا الجيش يلهج بشعار: «الجهاد أفضل من الحجّ» كأنه آية من آيات الفرقان!

أومأ القاضي برأسه استحساناً فتساءل مصطفى بك:

ـ هل لنا أن نعلم عدد الجند في هذا الجيش؟

ولكن الشيخ الدرناوي زفر بسخاء تمهيداً لحديث طويل:

ـ قبل أن أبدأ رحلتي هذه اجتمعت بإخوانكم المجاهدين الذين يتولّون زمام القبائل. وقد أجمعوا على أن أقوم بتبليغكم رسالة تقول إنّهم كلّهم تمنّوا أن يقبلوا معي إلى دياركم ليفوزوا بالنصر أو الشهادة لولا ما تعلمونه من استحالة السماح لهم باجتياز الحدود إلى مصر كزعماء قبائل في هذه الظروف. وبرغم ذلك لم يبخلوا عليكم بما ملكت أيديهم نيابةً عنهم!

استفهم مصطفى بك:

ـ لم يبخلوا بما ملكت أيديهم؟

ـ لم يبخلوا بالذخيرة!

ـ الذخيرة؟!

تبادل الدرناوي مع القاضي نظرة. أجاب:

ـ الشيخ سيف النصر أرسل لكم بمعيّتي ألف فارس. والشيخ عبد الوافي زعيم قبائل الجبل الغربي بعث بألف فارس آخر. كما بعث زعيم قبائل الملثمين بألف وخمسمائة فارس. أمّا شيخ غدامس فقد بعث خمسمائة فارس. أمّا بقيّة القبائل فقد بعثت بخمسة آلاف مجاهد مشاةً. كما استطعت أن أستقطب من حجيج بقيّة بلدان المغرب ما يزيد على الأربعة آلاف مجاهد راجلٍ ليكون المجموع أربعة آلاف فارس، وما يزيد على التسعة آلاف رجلٍ راجل. فإذا

استطعنا أن نضمّ إليهم ما تستطيع أن تجود به الكنانة (على أيديكم) استطعنا أن نكوّن جيشاً يستطيع أن يزلزل الأرض تحت أقدام المحتلّ ويغسل بصمة الدنس عن الأزهر!

ساد صمت عميق إلى أن قال مصطفى بك:

ـ ولكن ماذا عن السلاح؟

ـ سلاح؟

ـ أعني هل يمتلك جيشك العدّة إلى جانب العدد؟

سكت الدرناوي لحظات. قال بصوتٍ خنقته العبْرة:

ـ سلاح المجاهد في سبيل الله الإيمان!

قال مصطفى بك:

ـ الإيمان لا يكفي بلا بنادق!

شيّع الدرناوي إلى القاضي بصراً تلألأ بالدمع:

ـ لقد اجتهدنا بإخفاء الذخيرة في صحراء الإسكندرية قبل أن يتمكّن العدوّ من مصادرة جلّ الأسلحة في صحراء الهرم!

سكت مصطفى بك. هرش لحيته المخضّبة بالحنّاء قبل أن يتساءل:

ـ ماذا عن المدافع؟

هيمن سكون فأوضح:

ـ تلزمنا المدافع قبل أي شيء آخر!

قال الدرناوي:

ـ الإيمان أقوى من المدافع!

قال مصطفى بك:

ـ سنعرّض جند المؤمنين للفناء إذا لم نحصل على المدافع!

قال الدرناوي:

ـ بالإيمان سنغنم المدافع من جيش العدوّ، ولكن المدافع لن تحقّق لنا نصراً في غياب الإيمان!

27

دخل الريّس مراد على الباشا تلبيةً لاستدعائه. انحنى عند الباب وانتظر أمراً آخر بالاقتراب. شيّع الباشا رأسه عن أوراق كان يتفحّصها ثم سأل:

ـ يؤسفني أن أكتشف انقضاء مهلة تسلّم الإتاوة السويدية بنفسي بدل قيام وزير بحريّتي بتنبيهي إلى هذه المخالفة!

تمتم الريّس مراد بعبارة مبهمة فقاطعه الباشا:

ـ مَنْ منّا المخوّل بتذكير الآخر بمثل هذه المخالفات: أنا أم أنت؟

برطم الريّس مراد:

ـ مولانا يعلم أنّي لم أعد من رحلة إلى بطن الحوت إلاّ منذ يومين!

استنكر الباشا:

ـ بطن الحوت؟

تقدّم مراد خطوة. أجاب:

ـ أعني الأسر يا مولاي. ألم ينقلب الإنجليز حيتاناً في هذا البحر بين يوم وليلة؟

حدجه الباشا بنظرة ماكرة. تخابث:

ـ إذا كان الإنجليز حيتاناً فتستطيع أن تتباهى بانتمائك إلى سلالة هذه الحيتان أيضاً أيها العلج الإيرلندي!

طأطأ مراد ثم تمتم منكس الرأس:

ـ لا تكره السلالة الإيرلندية ملّةً كما تكره ملّة الإنجليز!

سدّد له الباشا نظرة خبيثة. لفظ:

ـ تكذب!

ـ يعلم الله!

ـ سلالات الأعلاج كلّها شيطان واحد عندما يتعلّق الأمر بتدبير المكائد ضد ملل المسلمين. وعبثاً نحاول أن نخلق منكم ملّة أخرى عندما نتظاهر بتصديق اعتناقكم لديننا لكي نلقي في أحضانكم ببناتنا الشقيّات لمجرّد أن الناموس البليد الذي ورثناه عن أسلافنا يحرّم تزويج بنات الملوك لأبناء الرعيّة!

ابتسم مراد كاشفاً عن أسنانٍ ناصعة طهّرتها أملاح البحور التي احترفها منذ طفولته المبكّرة في إيرلندا إلى أن صار أمير قراصنة بحر ليبيا العظيم بأسره. وقد فتر فمه عن هذه البسمة الماكرة لأن الباشا اعتاد أن يشكّك في حقيقة اعتناقه للإسلام بمناسبة وبلا مناسبة، بل ويروق له أن يطعن في هذا الإيمان قائلاً إن أعلاج النصارى لا

يلجأون إلى هذه الحيلة إلاّ ليتسلّلوا إلى مخادع أميرات المسلمين البلهاء. اليوم أيضاً انتهز الباشا الفرصة ليعيّره بزواجه من شقيقته للاّ فاطمة وليذكّره بأحابيل النصارى الذين يمارسون الخداع.

قال الباشا:

- أريد أن أذكّرك بأنّنا لسنا بالغباء الذي تظنّونه بحيث تنطلي حيلكم علينا!

ثم أومأ له أن يقترب قبل أن يستبدل لهجة العداء بلهجة أخرى:

- أردت أن أستشيرك في شأن الأمير محمّد!

تساءل مراد:

- الأمير محمّد ابن الباشا؟

هبّ الباشا واقفاً. خطا نحو النافذة. تطلّع إلى البحر. قال:

- هل تتخيّل هذا الغرّ عاشقاً؟

- عاشق!

- المشكلة ليست في أن يعشق، ولكن المشكلة في مَنْ تعشّق!

انتظر الريّس مراد فأضاف الباشا:

- يريد أن يتزوّج فوزية حيّاً أم ميّتاً!

تعجّب مراد:

- فوزية كريمة أحمد بك؟!

- لو كانت كريمة أحد الرعايا لما اعترضت، ولكن المشكلة أنّها كريمة الخائن!

سكت لحظة ثم أضاف:

ـ لقد هدّد أمّه بالانتحار يوم أمس إذا فشلت في إقناعي!

قال مراد:

ـ قد يكون أحمد بك خائناً يا مولانا، ولكن كريمة أحمد بك ليست خائنة!

تساءل الباشا دون أن يلتفت:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول، يا مولانا، إن فوزية مجرّد أنثى!

سكت الباشا. تابع نشاط السفن في المرفأ طويلاً قبل أن يقول:

ـ لو حشد أحمد جيشاً ليحاربنا فهل يستطيع محمد أن يرفع السلاح في وجهه وهو جدّ ذريّته؟!

سكت مراد زمناً. قال أخيراً:

ـ لا أظنّ أيضاً أن أحمد بك يجرؤ على غزو بيت يأوي ذريّته!

ساد سكون. قال الباشا:

ـ تقول هذا لأنّك لا تدري ماذا يعني أن يُبتلى الإنسان بداء اسمه حبّ السلطة!

سكت مراد. التفت الباشا نحوه فجأة ليقول:

ـ فلنعد إلى سيرة السويد: أريدك أن تذهب إلى القنصليّة الآن بالبلطة وتحطّم صاري علم هذه القنصلية! يجب أن يعلم قنصل السويد الأبله ما معنى الاستخفاف بيوسف باشا القرمانلي!

غزا الشحوب سيماء الريّس مراد. تلعثم:

ـ أليس الأنسب يا مولانا أن نبعث للقنصل بإنذار تمشياً مع بنود الاتفاقية؟!

صرخ الباشا:

ـ كلاّ! بنود الاتفاقية لا تنصّ أيضاً على تأخير دفع الإتاوة دون إنذار مسبق!

طأطأ مراد. همهم:

ـ ولكن قطع العلاقات يا مولانا..

قاطعه الباشا:

ـ قطع العلاقات أنسب إجراء عقاباً على الاستخفاف بالملوك!

تمتم مراد:

ـ سمعاً وطاعة يا مولاي!

هتف الباشا:

ـ حالاً!

انحنى مراد لينصرف، ولكن الباشا استوقفه قبل أن يبلغ الباب:

ـ بلغني أخيراً أن الأمريكيين يدفعون لداي الجزائر جزية تقدّر بضعف ما يدفعونه لنا!

أكّد الريّس مراد:

ـ بلى يا مولانا، ولكن الحجّة في ذلك أن اتّفاقنا تمّ بواسطة من داي الجزائر الفقيد المرحوم حسن باشا!

صاح الباشا:

ـ وهل الوساطة ذريعة لهضم الحقوق؟

ـ الأمريكيون يرون أن الوساطة تنازل في صالح طرفين!

ـ تنازل في صالح الطرفين، أم إنّه تنازل في صالح طرف ثالث هو الوسيط؟

سكت مراد فأضاف الباشا:

ـ الاستهانة هو ما يجب أن يُقرأ في هذه الرسالة!

تسكّع في أرض البلاط عاقداً يديه وراء ظهره. توقّف فجأة قال:

ـ بوفاة حسن باشا نحن في حلٍّ من الوساطة!

التفت إلى مراد. أمر:

ـ تُرفع الجزية مع هذه الدولة إلى الضعف أسوةً بالمعاهدة المعقودة مع داي الجزائر. وإذا اعترض الطرف الآخر فوجّه للقنصل كاثكارت إنذاراً بأن سفن بلاده ستكون غنائم لسفننا منذ الغدّ!

28

في مارس عام 1799م أرسل المحتلّ جنده لمصادرة المواشي في محافظة الشرقية، فتصدّى الأهالي لهذه الكتائب وأنزلوا بصفوفها الهزيمة فانسحبت. انتهز أشياخ المقاومة هذه الفرصة فتنادوا «لإعلاء راية الجهاد» كما عبّر مصطفى بك في ندائه إلى الأعيان، فكانت حادثة الشرقية بمثابة الشرارة التي أشعلت فتيل المقاومة التي تزعّمها الشيخ الدرناوي على ما يروي الرواة وكتّاب حوليات ذلك الزمان. فقد انضمّ آلاف المصريين إلى حركته ليهاجم سفناً فرنسية كانت تعبر

النيل محمّلة بالذخيرة والمؤن في طريقها إلى دمياط تمهيداً لشحنها بحراً إلى جيش نابليون في فلسطين. كما قام هذا الشيخ بمهاجمة سفن أخرى عند ثغر رشيد لتعطيل وصولها إلى جيش الغزاة في فلسطين.

لم يستقطب الشيخ الدرناوي أهل الدواخل الليبية المتنكّرين في أثواب الحجيج فحسب، ولكنه استقطب عناصر من قبائل أولاد علي، إلى جانب آلاف المصريين الذين انضمّوا إلى جيشه، فانتقل للهجوم على قوّات الاحتلال في مدينة دمنهور في 24 من شهر إبريل لعام 1799م ليبيد بهذا الجيش (الذي زاد عدد أفراده عن العشرين ألفاً) جنود الحامية المرابطة في هذه المدينة عن آخرهم.

في هذه المعركة اختفى هذا «المهدي المنتظر» بعد أن حقّق النصر. وقيل إنه استشهد بطلقة من بندقية قنّاص أصابته في الجبين فهوى عن فرسه. ولكن المعارك التالية كذّبت هذه الشائعة، لأن الشيخ الدرناوي ظهر من جديد في المعركة التي نشبت مع القوات الفرنسية المرابطة في حصون منطقة الرحمانية بعد أن أدركتها النجدة من القاعدة الفرنسية في الإسكندرية. ثم شوهد يحمل الراية ويتقدّم صفوف قوّاته الأمامية في المعركة الوحشية التي وقعت عند بلدة «سنهور» في الثالث من شهر مايو عام 1799م واستمرّت ما يزيد على السبع ساعات، تكبّد فيها الفرنسيس خسائر جسيمة ممّا اضطرّهم للانسحاب صوب «الرحمانية». ولكن قوّات المقاومة قطعت على جيشهم سبيل الانسحاب فتكبدوا خسائر أفدح وصفها القائد المسيو «ريبو» بأنها كانت أشبه ما تكون بمذبحة رهيبة، برغم ما بذله

الكولونيل «لفيفر» من موهبة في القتال، حيث استخدم آخر ما أنتجه عقل الإنسان في فنون إبادة الإنسان لأخيه الإنسان، مستعيناً بالخطط الحربية التي ابتكرها نابليون بتشكيل جيشه على هيئة مربّع للحيلولة دون اختراقه، ثمّ طفق يحصد صفوف المهاجمين بنيران البنادق والمدافع. أمّا قوّات الدرناوي فاستخدمت مدفعاً غنمته من إحدى المعارك السالفة مع العدوّ ليستمرّ القتال حتى فصلت الظلمة بين الفريقين، فحاول «لفيفر» الانسحاب متستّراً بظلمة الليل، ولكن قوّات «المهدي» تصدّت له ولم يفلح في اختراق الحصار إلاّ بعد أن تكبّد المزيد من الخسائر.

هنا أيضاً انتشرت شائعة جديدة تحدّثت عن استشهاد الشيخ الدرناوي. ويؤكّد الرواة أن الفرنسيس كانوا وراء ترديد هذه الشائعات لتحطيم معنويات فرسان الانتفاضة، لعلمهم بخطورة الدور الذي تلعبه الزعامات في مثل هذه المعارك، سيّما إذا خُلعت مسوح الأسطورة على هذه الزعامات.

ولكن انتفاضة أخرى ما لبثت أن اندلعت في القاهرة نفسها ضد الفرنسيس في شهر مارس عام 1800م قيل إن الشيخ الدرناوي ظهر هناك مرّة أخرى، وذهبت رواية أخرى إلى التأكيد بأنه لم يشترك في هذه الانتفاضة فحسب، ولكنه كان عقلها المدبّر أيضاً. ويروي بعض كتّاب الحوليات كيف كان مريدوه يروون عن سيرته الأساطير عقب اختفائه النهائي الغامض عقب انتفاضة القاهرة، ويردّدون عبارة له شهيرة تقول: «كُتب علينا أن نشتري بدمائنا خيانات حكّام أوطاننا!».

29

في الوقت الذي كان فيه المستر «كاتكارت»، قنصل أمريكا الجديد لدى بلاط طرابلس، يحرّر فيه منشوراً موجّهاً إلى وزير خارجيّته، ومعمّماً على زملائه من قناصل الدول الأجنبية المعتمدين ببلاط طرابلس، يتحدّث فيه عن قرب حدوث مواجهة عسكرية بين طرابلس والولايات المتحدة، استقراءاً للإنذار الذي تلقّاه من يوسف باشا، كان المستر «بينبردج» (الذي قُدّر له أن يلعب دور البطولة في هذ المواجهة تالياً) يعبر المياه الإقليمية للمملكة وهو شبه أسير على متن فرقيطته المهيبة «جورج واشنطن»، بعد أن أجبره داي الجزائر الجديد الملقّب بـ«بابا مصطفى» تيمناً بإمام القراصنة الأسطوري «بابا عروج» المعروف في حوليات الزمان بـ«بربروسا»، على التوجّه إلى الأستانة حاملاً على فرقيطته للسلطان الأعظم هديّة نفيسة، امتزجت فيها تشكيلة ثرية من العناصر البشرية والحيوانية والنباتية وحتّى المعدنية إلى جانب ثروة أخرى تُقدّر بمليون دولار نقداً، مصحوبةً بسفير الجزائر الجديد لدى البلاط السلطاني، علّ هذه العطيّة الخرافية تفلح في تحقيق شفاعة للداي لدى الباب العالي جزاء خطيئة تنكّره لمشيئة السلطان الأعظم برفضه إعلان الحرب على عدوّته فرنسا.

فإلى جانب أكياس الذهب، وأخرى من نفيس الجوهر، حملت السفينة ما يزيد على المائة عبد (نصفهم من الجواري)، وخمسة وعشرين رأساً من الثيران، وأربعة أسود، ومثلها من الغزلان، واثنتي عشرة ببغاءاً، وأربعة جياد، ومائة وخمسين شاةً، وعدداً يصعب حصره من النعام، إلى جانب حاشية سفير الجزائر لدى الباب العالي

التي يزيد عدد أفرادها على المائة، بالإضافة إلى طاقم الفرقيطة المهيبة المؤلّف من مائة وواحد وثلاثين بين ضابط وبحّار، ممّا هدّد بنشوب الصدام الدموي التقليدي بين أهل الهلال وأهل الصليب.

لم يكن الكابتن بينبردج يدري (وهو يعبر المياه الإقليمية للمملكة الطرابلسية في طريقه إلى مضيق البوسفور) أن سيرة إجباره على التوجّه إلى الأستانة من قبل طاغية كـ«بابا مصطفى» ليست الحدث الأسوأ في حياته البحرية المجيدة، ولكن ما سيجري له تالياً في هذه المياه الطرابلسية بالذّات هو الأسوأ.

والغريب حقّاً ألاّ يفلح بينبردج في تخيّل هذه الأحداث وهو الذي اشتهر بقدرته على التنبّؤ. ربّما بسبب البلبلة التي استولت عليه منذ تلقّى الإهانة التي أخفق حتّى المستر أوبراين، قنصل بلاده لدى البلاط الجزائري، في الحيلولة دونها وحتّى في التخفيف من قسوتها، فعرف اليأس كما لم يعرفه قبل ذلك اليوم أبداً. عرف اليأس في أوّل رحلة له بفرقيطة ترفع علم بلدٍ وليد يحلم بالمجد، ويأمل أن يحقّق لنفسه الكيان المناسب بين الأمم. فهل خيّب (برضوخه لنزوة هذا المخلوق الهمجيّ على حدّ تعبيره) هذا الأمل، أمل أمّة الولايات المتحدة الأمريكية، في انتزاع المكانة التي تستحقّها في غابة وحوش اسمها العالم؟

لقد تسلّح دائماً بتعويذة اسمها المرونة. ويستطيع أن يعترف لنفسه الآن أن هذه التعويذة لم تخذله يوماً. ويأمل ألاّ تخذله هذه المرّة أيضاً. فلولاها لفضّل الموت في سجون بابا مصطفى على أن يتنازل ليستبدل راية أمريكا (كرامة أمريكا) براية قرصان يحيا على

القرصنة ليذهب بسفينته الحربية رسولاً لهذا الطاغية، حاملاً الأموال التي استولى عليها بالقرصنة ليقدّمها نيابةً عنه هديّةً إلى ربّ الطاغية القابع فوق تلال الأستانة. ولكنه لم يفعل ذلك إلاّ استجابةً لنداء الرسالة: رسالة الأمّة الوليدة من رحم المجهول، في أرض المجهول، إلى عالم قديم يعتنق ناموساً قديماً لا ليلتزم ببنود هذا الناموس، ولكن ليخرق متون هذا الناموس (سواء أكان هذا الناموس عرفاً، أم ديناً، أم شرعاً وضعيّاً).

يستطيع العالم القديم أن يبيح لنفسه العبث بالناموس، ولكن ليس من حقّ العالم الجديد أن يبيح لنفسه الاستهتار بالناموس (لأن رسول العالم الجديد لا يختلف عن الضيف الذي لا يحقّ له أن يملي على المضيف وصايا تتعلّق بشئون بيت هو فيه مجرّد ضيف)، ولهذا أدار خدّه الأيمن لعدوّه كي يصفعه على هذا الخدّ أيضاً، بعد أن تلقّى منه الصفعة على خدّه الأيسر كما يقضي ناموس المرونة، أو كما يقضي ناموس التسامح إذا استخدمنا لغة الناموس. وبفضل هذه التضحية لم يجنّب رفاقه فظائع الأسر فحسب، ولكنّه جنّب الأمّة الأمريكية كلّها وصمة العار في أوّل خروجٍ لها إلى دنيا يسودها ناموس الدنيا لا ناموس الأخلاق المبثوث في بطون الكتب السماوية.

وها هو يتسلّل من مضيق البوسفور بسفينته الحربية في فجر أحد الأيام متستّراً بذيول الضباب ليزحف نحو ميناء الإمبراطورية العثمانية الذائعة الصيت، ليكون أوّل ربّان لأوّل قطعة بحرية ترفع على صاريها علماً موشّىً بحفنة سخيّة من نجوم السماء المنثورة على فضاء مشبع بزرقة السماء هو علم الولايات المتحدة الأمريكية.

30

القاهرة. الأزبكيّة. قصر محمّد بك الألفي. أغسطس 1799م

استلقى نابليون على الأريكة مستسلماً بين يدي معشوقته المدام بولين فوريس كأنه طفل صغير. كانت تعبث بأناملها النحيلة والبالغة الطول بخصلات شعر رأسه في وقتٍ تعلو فيه ابتسامة غامضة شفتيها المنفوشتين لتسرح ببصرها بعيداً؛ في حين يتشكّى نابليون في هجعته قائلاً:

ـ أكاد أعترف فأقول إنّي تعبت!

فتحذّره الحسناء دون أن تعود من غيبتها:

ـ إيّاك أن تُسمع أحداً هذا الاعتراف!

يتمتم نابليون:

ـ لماذا؟

تهمس بولين:

ـ لأنه الاعتراف الوحيد الذي لا يليق بالأبطال.

يتمتم نابليون ساخراً:

ـ الأبطال..

ثم يسكت فتضيف الحسناء:

ـ الرجل لا يجب أن يعترف في حضور المرأة بشيء أبداً باستثناء الحبّ!

يبتسم نابليون. تضيف الحسناء:

ـ لا أذكر في أيّ كتاب قرأت أن الاعتراف كلمة سرّ اليأس!

تصمت الحسناء. يقول نابليون:

ـ ولكني أستطيع أن أقول برغم الإعياء إني استطعت أن أقدّم برحلتي الأخيرة قرباناً آخر بعد قربان أبي قير.

تتمتم المرأة بلا مبالاة:

ـ لا أعرف قرباناً أنبل من قربان يُقدّم في سبيل الحبّ!

يضيف نابليون:

ـ قدّمت في أبي قير قرباناً لروح البحر، وقدّمت في عكّا قرباناً لروح البرّ!

تعبث بولين في خصلات شعره المنسدلة على جبينه. تتمتم:

ـ قدّمتَ قرباناً لروح البحر، وقدّمتَ قرباناً لروح البرّ، ولكنّك لم تقدّم قرباناً لروح الحبّ!

يبتسم نابليون. يصمت. يقول:

ـ الحياة: قربانٌ بلا شطآن!

تصمت المرأة. يقول نابليون:

ـ جوزفين أيضاً لا تكفّ عن التحدّث عن هذا القربان!

تقطب الحسناء فجأة. تعبس. تغضب:

ـ لا أريد أن أسمعك تردّد اسم هذه المرأة عندما تجلس إلى جواري!

سيماء نابليون تنطق ببسمة استخفاف. يغمغم:

ـ لا أحد يطيق سماع اسم هذه المرأة. لا أعرف لماذا؟

ـ لأنّها غانية!

ـ كل الحسان غواني!

ـ أنا لست غانية!

يصمت نابليون لحظة. يقول فجأة:

ـ أنتِ أيضاً غانية!

تكفّ الحسناء عن العبث بخصلات شعر نابليون. ترمق الرجل باستنكار قبل أن تزعق:

ـ كيف تبيح لنفسك أن تنعتني بهذا الاسم؟

يجيب نابليون ببرود:

ـ لأنّي أحبّ أن أسمّي الأشياء بأسمائها!

ـ تسمّي الأشياء بأسمائها؟!

يسكت نابليون لحظة. يقول:

ـ ماذا نسمّي امرأة تخون رجلها إذاً؟

تسكت الحسناء قليلاً. تعود لتمشيط خصلات نابليون. تقول بلهجة غائبة:

ـ أنا لا أخون رجلي!

يستنكر نابليون:

ـ لا تخونين رجلك؟

تقول الحسناء بلا مبالاة:

ـ ما أدراك أنني لا أندسّ في مخدعك بموجب صفقة مع المسيو «فوريس»!

يستنكر نابليون:

ـ بموجب صفقة؟

تجيب المرأة:

ـ الزوج لا يغضّ الطرف عن مغامرات امرأته إلاّ بموجب صفقة؛ لأن الخيانة الزوجية هي الشيء الوحيد في هذه الدنيا الذي يستحيل أن يُخفَى!

يسود القصر سكون. من مئذنة الجامع المجاور ينطلق صوت المؤذّن معلناً حلول صلاة العشاء. يتمتم نابليون:

ـ هل لي أن أعرف بنود هذه الصفقة؟!

يفتر ثغر الحسناء الشهيّ عن ابتسامة غامضة. تهمس في أذن الرجل:

ـ ليس قبل أن تقدّم القربان لروح الحبّ!

يغرق نابليون في أفكاره. يغيب في أحلامه. يتكلّم من دنيا أحلامه:

ـ الإنجليز والروس وأبناء عثمان والنمسا يتجاسرون في حلفٍ ضدّي ظنّاً منهم أن عودتي عن عكّا كانت هزيمة ولم تكن قرباناً. والأسوأ من ذلك الأنباء التي تفيد بقيام الإدارة في باريس بحبك الدسائس للتخلّص منّي. وأعدك أنّي سأقدّم لروح الحبّ أعظم قربان عرفه تاريخ الحبّ عندما ألقّن كلّ هؤلاء درساً!

تأمّلته بولين زمناً. ثم انحنت لتطبع على شفتيه قبلة!

ولكن نابليون يفزّ فجأة. يزيح الحسناء جانباً كأنه يهشّ ذبابة قبل أن ينتصب واقفاً. يدبّ في المكان، في حين يغزو سيماء الحسناء شحوب. تتابع دبيبه فيبدو بقامته القصيرة قزماً. يبدو مضحكاً أيضاً إلى حدّ تستغرب كيف استطاعت أن تستسلم لهذا الرجل. كيف استطاعت أن تحبّ هذا الرجل. ثمّ تتذكّر أصله الكورسيكي المرادف في العرف الفرنسي للأصل الهمجي فتستشعر نحوه شفقةً حتّى إنها تغفر له خشونته. تغفر له سوء التصرّف. همّت أن تلاحقه، ولكنها فوجئت به يلتفت نحوها آمراً:

ـ تستطيعين، أيّتها المدام، أن تنصرفي الآن!

هتفت بذهول:

ـ أنصرف؟!

ولاّها ظهره عاقداً يديه وراءه. زعق:

ـ سيقتحم المكان الجنرالات بعد قليل. يحسن بكِ استخدام الباب الخلفي عند الخروج!

بدأت ترتجف. تمتمت:

ـ ولكني أستطيع الانتظار في الداخل إلى حين انتهاء الاجتماع كما اتفقنا؟

ـ يستحيل!

تردّدت قليلاً. قالت:

ـ ولكن.. ولكن ألا ترى أنّك غريب الأطوار؟!

زفر باشمئزاز. صاح:

- لو لم أكن غريب الأطوار لما كنت نابليون بونابرت!

سكتت لحظة. في مقلتيها تلألأ بلل. غمغمت:

- هل أنت على يقين؟

زأر في وجهها:

- اللعنة!

انبثقت الدموع لتسيل على وجنتيها. لم تمسح الدموع. تمتمت:

- أنت مريض!

أعقبت العبارة بشهقة فاجعة قبل أن تستدير لتهرول خارجاً.

31

بينبردج تبادل المجاملات في الأستانة مع القبودان باشا. بفضل نفوذ القبودان باشا هذا حظي بينبردج بمقابلة صاحب الجلالة السلطان الأعظم الذي لم يفته أن يعبّر لضيف الأغراب عن سروره العميق للقواسم المشتركة التي تجمع بين بلديهما برغم البعد الجغرافي الخرافي الذي يفصل بينهما. وعندما استفهم الكابتن بينبردج عن طبيعة هذه القواسم تأمّله السلطان سليم الثالث طويلاً قبل أن يجيب: «السّماء!». لم يفهم بينبردج معنى أن تكون السماء قاسماً مشتركاً بين الإمبراطورية العثمانية العظمى وبين الأمّة الأمريكية الوليدة فارتسمت على سيمائه الحيرة. أدرك السلطان (بدهاء أهل الشرق الذي سمع بينبردج عنه الأساطير) حرج الضيف في الاستفهام عن حقيقة الأحجية

فمال نحو الرجل ليهمس في أذنه (رفعاً للكلفة) قائلاً: «الراية!». لم يستشعر الضيف الحرج فحسب، هذه المرّة، ولكنه استشعر الضيق. غزا الشحوب وجنتيه فما كان من السلطان الداهية إلاّ أن هرع لنجدته مرّة أخرى: «استخدام العبارة في شرعنا عمل مهين يليق بالغوغاء. ولهذا يروق لنا أن نستخدم بديلاً هو الإشارة: أردت أن أقول إن اللهفة للانتماء إلى رحاب السماء هو قاسمنا؛ لأن النجوم في راية بلادكم، والهلال في راية بلادنا ليست مجرّد رموز بلهاء، ولكنّها تعبير عن حنيننا الخالد إلى الله!». عبث السلطان بمسبحته المنظومة من حبّات الأحجار الكريمة ثم أضاف قائلاً إنه يرى في هذه الإشارة فألاً حسناً؛ لأن الحكمة التي ورثها عن أسلافه (وهي في رأيه كنز يفوق كنز السلطنة)، علّمته أن يقرأ الإشارة في كل شيء لأنّ ما لا يتحوّل استعارةً في هذه الدنيا يتوارى وينقلب بهتاناً. ثم تلهّى قليلاً بمداعبة حبيبات الأحجار الكريمة في مسبحته قبل أن يعلن للضيف أن العبارة لم تُخلق لتعبّر، ولكنّها خُلقت لتضلّل!

في تلك الأثناء كان القبودان باشا يستقبل في مكتبه الواقع في البنيان المجاور للقصر السلطاني سفير الجزائر الجديد لدى البلاط السلطاني. ولكنه كان استقبالاً من جنس آخر يختلف كل الاختلاف عن استقبال صاحب الجلالة السلطان الأعظم لرسول الأغراب. فقد روى الخدم كيف بصق القبودان باشا في وجه سفير بابا مصطفى ما إن وقف بين يديه. ثم أمره بالوقوف على رجلٍ واحدة في مكتبه طوال اللقاء الذي لم يدم طويلاً؛ لأن القبودان باشا (صهر الصدر الأعظم) أراد أن يلقّن الدّاي الوقح، في وجه سفيره، درساً جزاء

رفض الداي الامتثال لفرمان الباب العالي القاضي بإعلان الحرب على فرنسا، فما كان منه إلاّ أن مزّق قرطاس اعتماد السفير إرباً إرباً، ثم بصق على القصاصات ورمى بها في وجه السفير المسكين الذي وقف في الركن على قدمٍ واحدة يرتجف من الرعب. لم يكتفِ القبودان باشا بهذا الإذلال، ولكنه طرد السفير شرّ طردة قائلاً إن المبلغ الذي تلقّاه السلطان من الداي ليس هو المبلغ المؤهل لغسل العصيان، ولكن عليه أن يعود بمبلغ لا يقلّ عن مليونين وأربعمائة ألف محبوب (أي ما يعادل الأربعة ملايين دولار أمريكي) في مهلة حدّدها بستين يوماً لا أكثر. وهو مبلغ يعادل ثروة خرافية كفيلة بتحويل الجزائر كلّها (دايا وبطانةً وقراصنة وشعباً) إلى سواد أعظم من الشحاذين فيما إذا أفلحوا في جمع ربع هذا الكنز!

32

في هذه الأثناء التي اجتمع فيها كلّ هؤلاء تحت قبّة قصر الصدر الأعظم القائم ككيانٍ بعيد المنال على شعاف التلال المطلّة على مياه البوسفور، كان جاسوس خالد يرصد من وراء ستار ما يحدث فوق التلال ليحبك أحبولة من أحابيله الخفيّة، ناسجاً بذلك خيوط رباط بين هذه الدُّمَى، لأن هذا الجاسوس ليس جاسوساً أرضيّاً، ولكنه لم يستعر أعجوبة خلوده إلاّ من سجيّته اللاّرضية. هذا الجاسوس اللاّرضي هو: القدر!

بلى. قضت حبكة هذه العبقرية أن تحكم الرباط بين هؤلاء لتصنع لهم مصيراً ما لبث أن جرى به مريد من مريدي القدر وهو

الزمن. وهو مصير هزم حتّى قدرة بينبردج عن التنبّؤ لأنه عطّل فيه المَلَكة أو ما يسمّيه هو حدساً فأخفق في رؤية مصيره المقدّر برغم أنه تنبّأ لسفير الجزائر بالبليّة، كما توقّع للقبودان باشا الوقوع في الأسر برغم أنه أخفى عنه النبوءة. أمّا فيما يتعلّق بالصدر الأعظم فما رآه في سيمائه أفزعه إلى حدّ استغرب كيف استطاع هذا البعبع أن يحتال على قدره ويبقى على قيد الحياة حتى الآن. كان بينبردج العرّاف كالحكيم الذي تقول الأجيال إنه يستطيع دائماً أن يوصي الأغيار أصوب الوصايا، ولكنه يفشل فشلاً ذريعاً فيما إذا حاول أن يفيد بالوصيّة نفسه!

فالسفير الشقيّ لم يكن له أن يدري أن الإهانات التي تلقّاها على يد سادته في الأستانة لم تكن بليّة حقيقية إذا قيست بما ينتظره على يدي سيّده القابع في حصون الجزائر؛ لأنه ما لبث أن هلك خنقاً بيد أعوان الداي. لأن الأخير رأى في شخصه نذير شؤم يجب التخلّص منه بأسرع وقت ممكن. أمّا القبودان باشا كأمير بحر فكان نصيبه من عطيّة القدر أقرب إلى نصيب نظيره بينبردج المؤجّل؛ لأن كلاهما ما لبث بعد ذلك اللقاء أن وقع في الأسر: القبودان باشا وقع أسيراً بين يدي نابليون عندما هاجم بأسطوله قوّات الفرنسيس المرابطة في الإسكندرية، ليتلقّى الهزيمة في المعركة التي عُرفت في التاريخ باسم معركة أبي قير البريّة، تمييزاً لها عن معركة أبي قير البحرية. هذا في حين أمهل جاسوس الخلود الربّان بينبردج إلى حين ليجد نفسه أسيراً أيضاً في يد يوسف باشا القرمانلي في أوّل هزيمة بحرية كبرى تلحق العار بالأمّة الأمريكية الوليدة.

أمّا دهشة بينبردج بشأن سيماء الموت التي أبصرها في وجه السلطان في استقباله له في ذلك اليوم فكان لها ما يبرّرها. ذلك أن المكيدة التي شرع جند الإنكشارية في تدبيرها ضدّه كانت قد بدأت خيوطها تُنسج في أروقة القصر منذ زمن بعيد، ولم تتأخّر إلاّ بسبب يبدو تافهاً في عرف البشر ألا وهو: غياب الأنشوطة!

ذلك أن الأمر عندما صدر تدرّج، كما يليق بأي أمر، حتّى بلغ الأداة التنفيذية. وقد تمثّلت هذه الأداة في مخلوقين من المخلوقات التي اعتادت أن تدبّ في ردهات القصر كالأشباح، هما خَصِيَّان من خِصْيان السلطان سليم الثالث لاستئثارهما بثقة المولى من دون الخدم جميعاً.

وكان بإمكان الأمر أن يتمّ في مهلة أقصر على يدي هاذين الخصيين لولا وسوسة أحدهما، وهو خصيّ عملاق ذو ملامح مغولية، أفطح الأنف، غليظ تقاطيع الوجه، مفلطح الشفتين كأحد الزنوج، ضيّق العينين.

أمّا الثاني فكان أقصر قامة، مستطيل الوجه، أسود الشعر، عسلي المقلتين. كان هذان المخلوقان يجتمعان كل يوم (منذ صدر الأمر) ليتشاورا. ولكن أقلّ ما يمكن أن يقال عن تلك المشاورات إنّها عقيمة، بل غريبة. ففي حين كان الخصيّ الأقصر قامة يتلهّف للانتهاء من هذا الواجب الثقيل (على حدّ تعبيره) بأسرع وقت ممكن، كان الخصيّ المغولي يصرّ على التأجيل إلى حين الحصول على الأنشوطة المناسبة. تساءل قرينه عمّا إذا كان بالإمكان تنفيذ الواجب بأيّ أداة أخرى كالخنق باليدين مثلاً، أو كتم الأنفاس بالحبل، فما كان من المغوليّ إلاّ أن استنكر قائلاً:

ـ تحرير الإنسان يستلزم الطقوس كأي شيء في الدنيا. والخلاص الذي يأتي بأنشوطة الحرير ليس كالخلاص الذي يتحقّق بحبل المسد!

تعجّب رفيقه يومها:

ـ وأي فرق بين الطريقتين: أليس الموت واحداً في كلتا الحالين؟

استنكر صاحب السيماء المغولية:

ـ كلا! الموت ليس واحداً!

ـ ألا يقال إن الشاة لا يهمّها سلخها بعد ذبحها؟!

ـ هذا منكر يردّده الجهلة!

ـ لماذا؟

ـ لأن الإنسان إنسان ولم يكن يوماً شاةً!

ـ تريد أن تقول إن الإنسان ليس حيواناً؟

يبرطم ذو السيماء المغولية الكئيبة:

ـ شيء من هذا القبيل!

يفكّر قصير القامة قليلاً. يقول بحماس من اكتشف سرّاً:

ـ ولكن هل يُعقل أن يفوق إثم الطريقة التي تمّ بها القتل إثم القتل نفسه؟

يجيب المغولي ببرود:

ـ يجب تحرير الإنسان دون إلحاق الإهانة بالإنسان!

ـ هل يعني هذا أن كتم الأنفاس بحبل رذيلة إذا قورن بكتم أنفاس الإنسان بالأنشوطة الحريرية؟

ـ بلى!

ـ لماذا؟

ـ لأن الحبل لا يحرّر الإنسان دون أن يفتك بجسد الإنسان، أمّا أنشوطة الحرير فتعيد الأمانة إلى أصحابها سليمة من كلّ تشويه!

يصمت الأقصر قامة قليلاً. يتمتم:

ـ عجباً!

فيقول المغولي بذات البرود:

ـ جسد الإنسان أمانة سماوية. أي أنه وعاء مقدّس كما تقولون، والعبث به خطيئة تفوق خطيئة تحريره من أنفاسه!

يقول القرين:

ـ ظننت دائماً أن الإنسان كائن لا يختلف عن الحيوان!

يتساءل صاحب السيماء المغولية:

ـ لو كان الإنسان حيواناً فلماذا لا تأكل لحمه؟

سكت القرين لحظات. قال فجأة:

ـ ولماذا لا يؤكل لحم الإنسان؟ عرفت رجلاً أكل لحم إنسان!

يرمقه المغوليّ بفضول. يقرأ في عينيه الضيقتين نبوءة. يقول:

ـ أراهن أن هذا الرجل الذي تتحدّث عنه ما هو إلاّ أنت!

يسكت القرين قليلاً. يعترف أخيراً:

ـ بلى! لقد أكلت لحم إنسان مرّة!

يتطلّع إليه المغولي بفضول. يتساءل:

ـ كيف وجدت طعمه؟

يطأطىء القرين. يقول:

ـ لذيذ لولا بعض المرارة!

يسود سكون. يقول المغوليّ:

ـ لا بدّ من البحث عن أنشوطة الحرير!

ولكن القرين ينفجر في نوبة بكاء مفاجئة. يقول:

ـ لقد أحسن إليّ كما لم يحسن لإنسان!

يتساءل المغوليّ:

ـ تقصد مولانا؟

يومىء القرين برأسه وهو يكفكف دموعه. يقول المغوليّ:

ـ بأنشوطة الحرير مولانا لن يتألّم أبداً، ولكنه سينال الخلاص سعيداً!

يشكّك القرين في حجّته:

ـ لست على يقين من هذا!

ثم يصمتان طويلاً. يصمتان ليفترقا بحثاً عن أنشوطة الحرير. يفترقان أياماً، بل والأسابيع، ولا يلتقيان في ردهات القصر إلاّ عرضاً كأن النسيان تولّى الأمر فحال دون تنفيذ الواجب، إلى أن يتدخّل جاسوس الخلود مرّة أخرى ليذكّرهما برسالتهما بواسطة أولئك الذين يتدبّرون مشيئته في ظلمات الكواليس. ساعتها ينتبه الخصِيَّان ليعودا إلى التئام يتجادلان فيه طويلاً سبيل تحرير وليّ نعمتهم من وجع الحضور في رحاب الدنيا. هذا الحكم الصادر بحقّ

السلطان الغير قابل للتأجيل عادةً (ككل أحكام القدر) هو الهالة المشئومة التي رآها الكابتن بينبريدج في سيماء مضيفه، ولم يكتب له أن يسمع بنهايتها إلاّ بعد مغادرته مياه الدردنيل بزمن طويل، عندما بلغه كيف استطاع خصيّان اثنان من خصيان السلطان خنقه بأنشوطة حريريّة نُسجت (كما تقول الرواية) خصّيصاً لهذا الغرض!

33

يروق لنابليون أن يردّد في خلوات الاسترخاء قائلاً: «لو أوتيت القدرة على تسخير الجنّ ليأتوني بالأنباء لما أعجزني الاستيلاء على الدنيا!».

ففي حين كان أعوانه من الرجال يعبّرون عن شكوكهم في قدرة المخلوق الفاني على نيل الدنيا، كان فريق النساء في مثل تلك الجلسات يعبر عن دهشته بالقول: «أيعقل أن تكون الأنباء هي العائق الوحيد الذي يمنع بونابرت من تنفيذ وعده بالاستيلاء على الدنيا؟». ولكن بونابرت لا يستجيب لتساؤلات النساء، ولا يعير انتباهاً لتشكيك الأعوان، لأنه يغيب بعيداً ليقول من رحاب غيابه: «النبأ لم يكن يوماً نبأً، ولكن النبأ نبوءة. وغياب النبوءة غياب الحقيقة. فكيف يستطيع أن يفلح ذلك المخلوق الذي غابت عنه الحقيقة؟».

كرّر نابليون هذه العبارة في حضور الأعوان مراراً، ولهذا لم يندهش هؤلاء يوم استيقظوا في أحد الأيام ليجدوا البطل الذي عقدوا عليه الآمال، وسلّموا له زمام أمرهم ليقودهم إلى المجهول كالقطيع، قد فرّ. فرّ نابليون مصحوباً بفريقه الحميم من جنرالات الجيش

وعلماء المجمع العلمي الفرنسي وأهل الثقافة والفنّ، تاركاً وراءه وصيّة مقتضبة محشوّة في مظروف كئيب موجّهة إلى الجنرال كليبر ليكون له خليفةً في الأرض، دون أن يفوته تبرير فراره ببليّة غياب الأنباء المرادفة في معجمه لغياب الحقيقة!

أمّا الجنرال كليبر فلم يصبه الشلل بسبب فرار بونابرت المفاجىء فحسب، ولكن ما أصابه بالشلل حقّاً هو الوصيّة، هو الرسالة، وهو الذي شكّك دائماً بإمكان تولّي الخلافة في الأرض تحقيق السعادة، حتّى إنه لم يخفِ يوماً إكباره لموقف النبي يونس الذي رفض الامتثال لمشيئة الربّ بالذهاب للتبشير بين أهل نينوى، وفضّل على هذا الشرف (شرف الفوز بالنبوّة) الاستمتاع بالحرية!

ويبدو أن تردّد هذا الجنرال، أو تخبّطه (كما عبّر رفيقه وخليفته تالياً الجنرال مينو) هو ضرب من فرار آخر لا يشبه فرار نابليون بقدر ما يشبه فرار النبي يونس من النبوّة بركوب البحر. وهو فرار كان يمكن أن يؤدّي إلى الخلاص، إلى الحرية، في حال النبي يونس لو لم يتدخّل الربّ ليعيده إلى الوصيّة التي فرّ منها معتقلاً في بطن الحوت.

الجنرال كليبر أيضاً وجد نفسه في النهاية معتقلاً في بطن الحوت، ولكن ليس على طريقة أهل النبوّة، بل على طريقة أهل الدنيا.

ففي الوقت الذي كان فيه هذا الجنرال يقدّم رجلاً ليؤخّر أخرى، مجتمعاً بجنرالات الحملة بقصر الألفي (الذي ورثه عن نابليون من ضمن ما ورث) متردّداً في اتخاذ أي قرار، كان قدره يسعى نحوه

بقدمي مخلوقٍ لم يبلغ سنته الخامسة والعشرين، قادماً من ربوع مدينة اسمها حلب، كأنّ اسمها مستعار من كلمة حليب التي لعبت في تكوينه دور البطولة، لأنه لم يرَ في دنيا طفولته سوى هذا السائل الذي إذا استوى وتجسّد صار اسمه زبداً. بلى. كان والد الفتى صانعاً ماهراً للزّبد في حلب هذه. فكان الطفل يعاند قوالب هذه الأعجوبة منذ الطفولة بيديه قبل أن يعلّمه الأب كيف يعالج الأعجوبة بآلة أعجب هي السكين إلى جانب اجتهاده في تعليمه قراءة القرآن، فكان يتسكع في الأنحاء متأبّطاً لوحاً خشبياً مزبوراً بآيات الفرقان، ممسكاً بقالب الزبد بيده الأخرى متأمّلاً وصيّة الأب التي لقّنها له مراراً والقائلة: «الزّبد، يا بنيّ، خلاصة الحليب؛ والقرآن، يا بنيّ، خلاصة الأديان!».

ولهذا السبب لم يعشق الولد شيئاً في دنياه كعشقه لشيئين: قراءة القرآن، وطعن قوالب الزبد بالأنصال. كان يجد لذّةً غريبة في تسديد الطعنات لهذا البدن العجيب، الذي لا يعرف لماذا يروق للكبار أن يطلقوا عليه اسم «الزّبد». الأب يروق له أن يسمّي هذا الجلمود إنساناً. يتمدّد في لحظات الاسترخاء ليعبّر عن سروره لأنه أفلح أخيراً في عمله فخلق من العدم إنساناً. كانت الأمّ تستنكر هذا التجديف فترجمه بالكفر. ولكن الأب لا يستجيب لإرهاب الأمّ، بل يضيف: «كما تتمخّض الشكوة عن كتلة الزّبد كذلك تتمخّض بطون النساء عن أجنّة الأولاد! الزبد في بطن الشكوة أيضاً جنين هشّ!». يعقب العبارة بضحكة قبل أن يغمض عينيه ليغيب في سبات عميق.

الطفل الذي عرفناه من كتّاب الحوليات باسم سليمان الحلبي

اعترف لنفسه دائماً بسحر المقارنة بين الجنينين: جنين بطن الشكوة وجنين بطن الأمّ. ولهذا رأى في كتلة الزبد مخلوقاً حقيقياً، إنساناً ملفّقاً من بدن وروح. ولكن لماذا راق له أن يطعنه بنصل السكّين كما لم يرق له أيّ شيء آخر في دنيا طفولته؟ لماذا تستولي عليه لذّة لا تقهر كلّما سدّد طعنة من نصل إلى جلمود الزّبد؟ هل بسبب هشاشة قالب الزبد الشبيه بهشاشة الجسد الإنساني؟ أم بسبب المتعة الناتجة عن شقاوة اقتحام النصل لكيان الجلمود الهشّ (هذه المتعة التي لا يمكن مقارنتها إلاّ بوقاحة اقتحام جسد إنساني لجسد إنساني آخر بذلك النصل الحيواني الوقح، الذي لم يعرف له اسماً إلاّ في مراحل متأخّرة من شبابه)؟

شبّ الحلبي فتأبّط ألواحه وسافر إلى الحجاز لا مرّة واحدة، بل مرّتين. ولكن الحج إلى الأراضي المقدّسة لم يروِ فيه الظمأ إلى الله فذهب إلى الأزهر ليجد أن نابليون قد سبقه بجيوش حملته إلى هناك.

كانت الفظائع التي ارتكبها جيش الحملة ضد أهل الأزهر على كل لسان، في وقتٍ كان فيه الحلبي يداعب سكينه باحثاً عن كيان زبدٍ يكون للنصل ضحيةً إلى أن بلغته أنباء عن فظائع أخرى ارتكبها الجيش في حملته على الشام، ففاض به الكيل. ارتدى مسوح الفرنسيس وقصد قصر الألفي، حيث دبّ كليبر في بستان القصر ذهاباً وإياباً تعبيراً عن تردّده التقليدي في اتخاذ القرار. ولكن سليمان الحلبي لم يدرك حقيقة لهفته لطعن قوالب الزّبد بالأنصال إلاّ في اللحظة، التي وجد فيها نفسه يقف وجهاً لوجه مع الجنرال كليبر.

لحظتها أدرك أن شغفه بهذا العمل لم يكن سوى لهفة لاقتراف الخطيئة. وإيلاج السكين في كيان الجلمود الهشّ لا يختلف عن إيلاج العضو في جهاز المرأة الرخو. وهو عمل وحشيّ وآثم لا يختلف في عرف الدّين عن الشروع في ارتكاب جريمة قتل. والقتل إذا كان موجّهاً ضدّ القاتل فهو القتل الوحيد المباح شرعاً لأنه في عرف الفرقان جهاد مقدّس!

الوصول، في لمح البصر، إلى هذه النتيجة يسّرت على يد المريد إنجاز رسالته في لمح البصر أيضاً: ففي غمضة استلّ سليمان الحلبي سكينه من ثوبه وطعن الجنرال كليبر بالنصل الذي غاب في صدر الضحيّة، باليسر ذاته الذي غاب فيه دائماً في قوالب الزّبد!

34

الثلوج التي سقطت على قمم جبل نفوسة هذا العام أهلكت القطعان، وأفسدت النّبوت، وأربكت حياة القوم، ولكنها لم تمنع وصول فرقة المكوس إلى المكان.

كانت هذه الفرق تتألّف من جندٍ غلاظ النفوس، موسومين بآي العبوس، يروق للرعيّة أن تطلق عليهم اسم «زبانية جهنّم» بسبب سوء الخُلُق، وبطش اليد، وجشع القلب. ويوم يقبل هؤلاء الزبانية على القرى والأحياء يُعدّ يوم نحس لا يختلف عن يوم الحساب الذي وعد به الكتاب، لأنه قدر لا يختلف عن الموت الذي لا عاصم منه. بل إن أشباح تلك الفرق كثيراً ما حملت معها إلى الأنحاء آلاماً أفظع من الموت؛ لأن الموت رسول أرحم من زبانية

المكوس الذين يزرعون الآلام في حين يضع الموت حدّاً للآلام. فهم عادةً لا يكتفون باستقطاع نصيب الخمس من كل ما امتلكت اليد، ولكنهم يتحجّجون بذرائع لئيمة ليسلبوا القوم النصف، وفي بعض الأحيان لا تعوزهم المبررات لنزع الملكية كلّها سواء أكانت عقاراً أم مالاً منقولاً، أم أنعاماً تسعى. والزبانية لا يكتفون بهذا أيضاً، ولكنهم يستولون على نصيب آخر من الأنعام أو المحاصيل بموجب بند باطل وظالم أُطلق عليه اسم «حقّ الضيافة» الذي يوجب على القوم البؤساء إطعام فرق جهنّم تلك أثناء تأدية عملها في نزع الأرواح!

اليوم وصل الزبانية والأرض ما تزال مفروشة بطبقة ثلجية ندر نزولها في تلك الربوع لينزلوا ضيفاً على سعيد المعداني، سليل آل المعداني أحفاد رجل كان يوماً اليد اليمنى لزعيم المحاميد زمن أحمد القرمانلي الأكبر. والمعداني الجدّ لم ينل في الماضي مجده بالسيف فحسب، ولكن الحظوظ لم تبخل عليه بالثراء أيضاً إلى جانب امتياز أنفس هو الشجاعة. ولكن الثروة التي ورثها سعيد عن أسلافه تبخّرت مع الأيام (كأيّ هبة) ولم يبق له منها سوى جمل وناقة وثلاثة رؤوس من الأغنام. هذه «الثروة» هي التي أقبل زبانية الباشا لينالوا نصيبهم منها، فلم يجد سليل آل المعداني المسكين بدّاً من نحر النعجة لا استجابةً لعرف الضيافة، ولكن تنفيذاً لبند «حقّ الضيافة» الذي نصّ عليه قانون المكوس. فهل قنع الزبانية بالأضحية؟ الأضحية لم تشبع نهم الزبانية بالطبع، فقاموا إلى الزريبة لينحروا الكبش أيضاً. وعندما حاول المضيف أن يعترض كشّروا

ولوّحوا في وجهه بالسياط. ثم جاء أوان الخلود إلى النوم فاشتكوا من البرد في الخباء وأمروه أن يخلي الداموس المنحوت في الصخور لكي يقضوا فيه ليلتهم، ولم يجد سعيد الشقيّ مفرّاً من دفع أفراد أسرته إلى الصقيع في الخباء ليتنازل «لأضيافه» عن الدفء في الداموس.

في الصباح آن أوان الحساب، قال أطولهم قامة وأكثرهم كآبة إن عليه أن يختار: التنازل عن الناقة، أم التنازل عن الجمل تسديداً لدَيْن المولى القابع في السراي الحمراء. كتم سعيد غيظه. تطلّع إلى السماء الملبّدة بالغيوم. قال محاذراً أن يستفزّ فيهم الشرور:

ـ ولكن ما أعلمه يا سادتي الأفاضل أن قضاء الدَّيْن حصّة لا تزيد عن الخُمس!

تطلّع كبيرهم إلى أقصرهم قامة. تهكّم:

ـ هل سمعت؟ هذا المخلوق يريد أن يلقّننا درساً في كيفيّة تسديد المكوس!

قال أقصرهم قامة:

ـ إنه يظنّ أنه يأتي بحجّة تعفيه من دفع الدَّيْن، ولا يدري أن محاولة التنصّل من دفع الدّيْن طبيعة كلّ أبناء آدم!

وافقه الأطول قامة:

ـ ابن آدم يشتهي أن يأخذ، ولكنه يرفض أن يعطي!

قال سعيد:

ـ لم يحدث أن أخذت من ديار مولانا شيئاً يوماً!

زأر في وجهه الأقصر قامة:

ـ كيف تجرؤ على قول البهتان؟ لولا وليّ نعمتك الباشا لسحق النصارى رأسك منذ زمن بعيد!

سعيد لم يستسلم:

ـ ما أعلمه أن باشوات الساحل إنّما يستنجدون بنا لنعينهم على صدّ الغزوات!

استنكر طويل القامة:

ـ ماذا تقول؟

ـ لم ينصّب سلف الباشا على عرش طرابلس سوى أجدادي. وعندما دكّ الفرنسيس بيته بالقنابل لم يهرع لنجدته سوى أجدادي!

تبادل الرجلان نظرات صارمة. تمتم الأقصر قامة:

ـ أنت جدير بأن نستقطع حصّة من لسانك قبل أن نستقطع حصّة من أموالك!

ولكن الأطول قامة شاء لسبب ما أن يضع حدّاً لِلّغْوِ فأمر بنفاد صبر:

ـ الجمل أم الناقة؟

ـ لا جمل ولا ناقة!

تبادل الرجلان النظرات. قال المضيف:

ـ ما الذي سأفعله بناقة بلا جمل؟ ما الذي سأفعله بجمل بلا ناقة؟

ولكنه أضاف كالمستدرك:

ـ أردت أن أقول إني سأتنازل لكم عن الجمل ما إن يحلّ موسم قرع النوق!

بلع ريقه بعسر. أضاف:

ـ كلّ ما أطلبه هو مهلة!

غمغم الأقصر قامة:

ـ لا مهلة في دفع المكوس!

وافقه الأطول قامة:

ـ ما تقوله مضحك!

قال سعيد:

ـ لن تكسب المكوس أيضاً إذا هلكتُ جوعاً!

قال الأقصر قامة:

ـ المكوس كالموت خُلقت لتميت، لا لتحيي!

أضاف الأطول قامة بلهجة سخرية:

ـ لهذا السبب يقال إن المكوس بنت الموت!

ثمّ كتم ضحكة بكفّه المهولة الشبيهة بالمجرفة.

تسكّع سعيد في العراء لحظات. تطلّع إلى الغيوم في السماء. قال:

ـ أستطيع أن أسلمكم زمام الجمل أو الناقة أو الاثنين معاً لأموت أنا جوعاً، ولكني لا أستطيع أن أفعل لأن الأطفال سيموتون جوعاً!

قال الأطول قامة:

ـ إذا لم يهلك أطفالك جوعاً فلن يحيا أطفال مولاك الباشا في السراي الحمراء!

تمتم سعيد:

ـ أطفال الباشا لن يهلكوا أبداً!

قال الأقصر قامة:

ـ أنت تجهل سرّ المكوس إذا كنتَ تعتقد هذا!

تمتم سعيد:

ـ يكفي أن أعرف أنها قدر مثلها مثل الموت!

صاح الأقصر قامة:

ـ لا تبدّد وقتنا هباءً وادفع لأيدينا عطيتنا بسلام!

سكت سليل المعداني. طأطأ طويلاً. ثم رفع رأسه ليعلن قراره:

ـ لن أدفع لأيديكم لا ناقة ولا جمل!

لم يكن بوسع سعيد المعداني أن يتخذ قراراً كهذا لو لم يتخذ قبلها قراراً أخطر من رفض دفع المكوس ألا وهو قرار الموت دفاعاً، لا عن ماشية أو ممتلكات أو أي شيء ينتمي إلى حطام الدنيا، ولكن دفاعاً عن قوت الذريّة. ولهذا ابتسم بمرارة في ذلك اليوم عندما تقدّم منه قصير القامة قائلاً إنه سينتزع روحه من بين جنبيه.

هلك تحت تعذيب زبانية جهنّم سليل بطل من أبطال قبائل المحاميد في ذلك اليوم، وكان بإمكان هذا الحدث أن يبقى مجهولاً في حوليات التاريخ كأحداث كثيرة تفوقه شأناً، لو لم يكن سبباً في

قدح زند الشرر الذي أشعل ثورة هذه القبيلة ضد يوسف باشا القرمانلي بقيادة زعيم القبيلة الشيخ عبد الوافي!

35

لم يكن بوسع زعيم القبيلة أن يزجّ بفرسان القبيلة في حربٍ مع الباشا دون الفوز بتفويضٍ من محفل الأكابر. ففي ذلك الاجتماع أجمعت الآراء على رفض دفع المكوس باستثناء رأي رجلٍ واحد هو الشيخ عبد الوافي نفسه.

استمع الشيخ لجدل الأعيان طوال الاجتماع صامتاً. ولم يستسمح القوم للتعبير عن رأيه إلاّ ساعة انتهى الأعضاء إلى قرارٍ يوجب الاستعداد للحرب. لحظتها خاطبهم الشيخ قائلاً إن ما سمعه منهم طوال الجدل ليس صوت العقل الذي اعتاد أن يسمعه، ولكنه صوت الظمأ إلى الانتقام؛ والعرف علّم الأجيال أن الإنسان لا يجب أن يفعل شيئاً بدافع الانتقام حتّى لو تعلّق الأمر بشخصه، فكيف إذا تعلّق الأمر بمصير الأهل أو القبيل أو القوم؟

سكت فعمّ الصمت. أضاف الشيخ: «إذا كنتم تظنّون أنكم تستطيعون أن تنالوا الإعفاء من دفع المكوس بالسيوف فأنتم واهمون. هل تدرون لماذا؟ لأن دفع المكوس قدر لن يعصمكم منه إلاّ القدر الأقوى من كل قدر ألا وهو الموت. تستطيعون أن تطالبوا بإعفائكم من أعباء البليّة المسماة باطلاً «حقّ ضيافة»، ولكن ليس من حقّكم أن ترفعوا السلاح في وجه صاحب السلطان لأنكم قرّرتم التحرّر من دفع إتاوة كانت ديناً في رقاب أسلافكم من قبلكم،

وستبقى ديناً في رقاب أخلافكم من بعدكم، لمجرّد أن إنساناً هلك تحت سياط رسل المكوس!».

لحظتها هبّ أحد الأعيان باحتجاج:

ـ ولماذا لا يحقّ لنا أن نرفض دفع المكوس إذا كنّا لا نختلف عن الجور في دفع المكوس؟

تطلّع إليه الشيخ طويلاً قبل أن يقول:

ـ تستطيع أن تتنصّل من دفع المكوس إذا استطعت أن تتحرّر!

استنكر الرجل:

ـ نتحرّر؟ ألسنا أحراراً في هذه الأرض يا سيّدنا الشيخ؟

أجاب الشيخ ببرود:

ـ كلاّ! نحن لسنا أحراراً في هذه الأرض!

عمّ المجلس صخب. أضاف الشيخ:

ـ من يريد أن يتحرّر لا يسكن الأرض، ولكنه يهجر الأرض، يتنقّل في الأرض على طريقة أهل اللثام!

سكت لحظات. أضاف:

ـ أهل اللثام هم الأمّة الوحيدة التي لم تدفع المكوس يوماً، لأنّها في عرف أهل السلطان أمّة أشباح لا تتجسّد إلاّ لتتبدّد!

قال الرجل:

ـ ظنّنا أننا أمّة راحلة أيضاً يا مولانا!

ـ ليس راحلاً من يرتضي أن يسكن المكان. ليس حرّاً من عَوَّل على وجوده في مكان. وعندما تفلحون في أن تصيروا أحراراً كأهل

الصحراء تستطيعون حينها أن تفرضوا أنتم على الباشا المكوس بدل أن يفرض هو عليكم المكوس!

تعجّب الرجل:

ـ نفرض نحن على الباشا المكوس؟

ـ ألا يفرض أهل اللثام مكوساً على القوافل التي تمرّ في صحاريهم حاملةً بضائع الباشا؟

سَرَت همهمة في المجلس في حين أضاف الشيخ:

ـ ثمن الحرية بطولة، ولكن ثمن الاستقرار مكوس!

ولكن الرجل لم يستسلم:

ـ لا أخال شيخنا يريد أن يتنازل عن دم ابننا مجاناً!

ـ لم أكن لأتنازل عن دم المعداني لولا يقيني بعدم جدوى رفع حراب الحرب!

ـ عدم جدوى الحرب؟

ابتسم الشيخ بمرارة. أجاب:

ـ لم يحدث مرّة أن أفلح في هذه الديار عصيان!

تبادل الأعيان نظرات الدهشة. تساءل أحدهم:

ـ أيعقل أن نستسلم للذلّ لمجرّد أن الحظوظ خذلت من سبقنا إلى رفع راية الجهاد ضدّ أبالسة الجور؟

ـ لم يخلق ماضي الأسلاف إلاّ ليكون وصيّة في رقاب الأخلاف!

سكت لوهلة ثم أضاف:

ـ وبرغم هذا فإن قراءة قرطاس الماضي ليست سبب الإخفاق الوحيد.

هيمن صمت مزموم قبل أن يضيف الشيخ:

ـ لم يحدث يوماً أن هبّت القبائل، كلّ القبائل، في هذه البلاد هبّة رجل واحد، أو فلنقل هبّة قبيلة واحدة!

عمّ السكون. قال أحد الأكابر:

ـ ماذا يريد سيدنا الشيخ أن يقول؟

ـ أردت أن أقول إنّنا لا ننتفض عادةً إلاّ بالدور كأنّنا في طابور!

أطلق أحد الأعضاء ضحكة مكتومة. جادل أحد الأشياخ:

ـ هل يقترح سيّدنا أن نبعث بالرسل إلى مشايخ القبائل كي ينجدونا في محنتنا؟

ـ نبعث لهم بالرسل لا لينجدونا في محنتنا، ولكن لكي نكون لهم عوناً لنجدتهم في محنتهم هم أيضاً لا محنتنا وحدنا، لأن المكوس، وجور زبانية المكوس، بليّة الجميع!

تساءل أحد الأكابر:

ـ وما الذي يمنع من أن نهبّ هبّة الرجل الواحد إذاً؟

ـ ما يمنعنا هو أنّهم سيمانعون!

تساءل أكثر من صوت:

ـ سيُمانعون؟

قال الشيخ بخيبة أمل:

ـ سيمانعون لأنهم يأبون أن يساقوا إلى الجنّة إلاّ بالسلاسل!

تبادل محفل الأكابر النظرات. قال الشيخ:

ـ إذا كنتم لا تصدّقونني فاذهبوا واقنعوا سيف النصر، أو سلطان فزّان، أو شيخ غدامس، بالوقوف معنا في هذه المحنة!

لم ينبس أحد فأضاف الشيخ عبد الوافي:

ـ أم أنّكم تظنّونني أحاول أن أثنيكم عن الاحتكام إلى السلاح خوفاً من الموت؟

تمتم أحدهم:

ـ الموت أفضل من الهوان!

تطلّع إليهم الشيخ صامتاً. نهض ببطء شديد. تناول سيفه المعلّق على نتوء في ركيزة الخباء. طوّق خصره بالحزام. من الحزام تدلّى السيف. قال وهو يخطو خارجاً:

ـ إذاً هيّوا بنا إلى الموت!

في الخارج امتطى جواده. خلفه تدافع الأعيان ليمتطوا جيادهم أيضاً. في الخباء المجاور انطلقت زغرودة طويلة من حنجرة امرأة.

نزل فرسان الجبل في ذلك اليوم ليهاجموا القلعة حيث تتحصّن حامية غريان العسكرية. ولكنهم يوم عاد منهم من عاد إلى الديار (بعد كرّ وفرّ استمرّ طويلاً) عادوا بدون زعيمهم عبد الوافي الذي لقى مصرعه في تلك المواجهة. ولكن مصرع الزعيم لم يكن عبثاً؛ لأن انتفاضته في ذلك التاريخ كانت ثورة الدواخل الوحيدة التي استطاعت أن تدقّ المسمار الأخير في نعش البلية التي عُرفت باسم «حقّ الضيافة» في قانون المكوس الطرابلسي!

القسم الثاني

36

يوم أقبل كاثكارت على متن السفينة «صوفيا» لينزل مرفأ طرابلس كقنصل للولايات المتحدة الأمريكية لدى الباشا يوسف القرمانلي، كان ما زال عريساً طازجاً خرج للتوّ من مخدع عروسه «جين بانكر وودسيد» (قبل أن تصبح جين بانكر هذه المسز جين كاثكارت) مثله مثل الباشا، الذي خرج بدوره للتوّ من مخدع عروسه الجديدة سليلة آل القرمانلي وابنة عمّه حسن بك القرمانلي، الذي تولّى منذ أمدٍ قريب بكوية بنغازي بعد أن أفلح الباشا في التخلّص من بك بنغازي الأسبق واستدراج العمّ إلى ربوع الوطن من منفاه في مصر، مستعيناً بصفقة خفيّة عقدها مع نابليون كما يروق للخبثاء أن يرووا.

ولكن الخروج من مخادع العرائس لا يكلّل أمزجة العرسان بروح التسامح، أو بالأصح، الفوز بالسعادة التي انتظروها، كما يبدو من مسلك الرجلين، بل العكس هو الأصح. ذلك أن كاثكارت، وكذلك الباشا، برهنا على إحساسٍ غريب بالشقوة ونفاد صبر لم يجد له أحد مبرّراً (في أوّل لقاء مزمع بينهما) على نحوٍ هدّد بنسف العلاقات بين البلدين قبل أن تبدأ. ذلك أن الباشا لم يجد حرجاً في أن يعلن للقنصل البريطاني «مكدونو» الذي أقبل عليه رسولاً من كاثكارت القابع على متن السفينة، بأنه لم يقرّر بعد عمّا إذا كان سيسمح باستقبال كاثكارت قنصلاً لأمريكا في بلاده لأن الأعتدة

الحربية التي نصّت عليها المعاهدة الموقّعة بين البلدين لم تُستلم بعد برغم انقضاء المدّة المنصوص عنها في بنود الاتفاقية منذ أمدٍ طويل. كما لم تُستلم السفينة ذات الصاري المزدوج الموعودة. هذا الجواب كان لـ«كاثكارت» بمثابة خيبة أمل كفيلة بأن تخرجه عن طوره، حيث أقسم لقنصل الإنجليز، الذي تطوّع للقيام بدور الوساطة، قائلاً إنه يجهل كل ما متّ بصلة لسيرة السفينة ذات الصاري المزدوج برغم أنه لا ينكر علمه بتأخر العتاد، الحربي الذي برّره بحدوث خلل في بدن السفينة التي تحمل العتاد، مما اضطرّها للعودة إلى موانىء فيلادلفيا لإصلاح الخلل. ولكن الباشا أجاب على لسان الرسول «مكدونو» أنّه انتظر وصول القنصل عامين كاملين، وعندما وصل اكتشف أنه لم يأتِ بما يفيد تنفيذ بنود المعاهدة، ولكنه جاء للإخلال ببنود هذه المعاهدة؛ وهو خرق للأعراف يجعله في حلّ من وعده السماح للسفن التجارية الأمريكية بعبور بحر ليبيا بأمان. وعندما حاول «مكدونو» إقناع الباشا بقبول أوراق اعتماد القنصل، لأن من شأن عمل كهذا أن يعجّل من وصول العتاد الموعود، قال الباشا:

- سوف أتسلّم أوراق الاعتماد، ولكن على القنصل أن يغادر الديار!

انتهز القنصل فرصة هذا اللّين المفاجىء فمال على الباشا كأنّه يفشي له بسرّ:

- القنصل، يا سعادة الباشا، يحمل لكم رسالة من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً!

سكت الباشا لحظات قبل أن يعلن:

ـ سأستلم رسالة الرئيس أيضاً . .

ولكنه لم ينسَ أن يضيف بعد لحظة صمت :

ـ إكباراً لك!

أدرك قنصل الإنجليز «مكدونو» بحدسه الإنجليزي التقليدي أن الباشا يتعمّد أن يلعب دوراً في مسرحية هزلية لم يخفق في إتقانه يوماً. ابتسم القنصل في حين قال الباشا فجأة:

ـ لا أخالك تشكّ في الوعد بالسفينة المزدوجة الصاري أنت أيضاً!

قال القنصل :

ـ ما أعلمه أن سعادة الباشا لن يدّعي وعداً بالباطل، برغم أن الباشا يعلم أيضاً أن الوعود التي لا ترد في المعاهدات نصّاً حرفياً لا يعوّل عليها!

استنكر الباشا :

ـ ألا يُعدّ الوعد شهادة ملزمةً حتى في عرف القضاء إذا أكّده شهود؟

ـ شهود؟

ـ أوبراين الوغد وعد بالسفينة عند توقيع المعاهدة بحضور جيراردو دي سوزا قنصل إسبانيا، وليون فرفرة خازن المملكة، وجوزيف انغراهام القائم برعاية المصالح الأمريكية آنذاك!

قال القنصل :

ـ الغريب أن كاثكارت يرى أوبراين هذا وغداً أيضاً!

هتف الباشا:

- حقاً؟

أضاف القنصل:

- أردت أن أقول إنه إذا كان كاثكارت هو الذي يقول هذا فلا شكّ أن أوبراين هذا مخلوق غير موثوق به. وهو ما يعني في عرفنا أنه يستطيع أن يعد ثم ينسى وعوده ما إن يقضي حاجته!

- هذا ما حدث بالفعل..

قالها الباشا ثم استدرك:

- ولكن ما الذي يحمل كاثكارت على الطعن في ابن جلدته يا ترى؟!

سكت «مكدونو» لحظات. قال:

- سعادة الباشا قد لا يعلم أن أكثر من عاشر أوبراين هو كاثكارت!

- حقاً؟

- عاشا أسيرين في سجون الجزائر عشر سنوات كاملة!

ذهل الباشا:

- كاثكارت أيضاً كان أسير داي الجزائر؟

- كاثكارت، يا سعادة الباشا، لم يكن أسير داي الجزائر فحسب، ولكنه كان سكرتيره أيضاً!

حدّق الباشا في وجه القنصل بسيماء الدهشة. أضاف القنصل:

- ممّا يعني الاعتراف من السلطات في أمريكا بخطورة بلاط

طرابلس بالمقارنة مع بلاط الجزائر إذا كانت تبعث لباشا طرابلس بالإنسان الذي استطاع بمواهبه أن ينقلب من أسير حقير في بطون السجون إلى سكرتير رأس الدولة، في حين تبعث لداي الجزائر بسجينها السابق أوبراين ممثلاً لها.

سكت الباشا. سرح بعيداً. تساءل:

ـ تريد أن تقول إن الولايات الأمريكية تريد أن تعبّر لي عن إكبارها في حين أرادت أن تعبّر لداي الجزائر عن احتقارها؟!

ـ بالطبع!

ـ إذا سلّمنا بصحّة ما تقول فلماذا تهب الولايات الأمريكية داي الجزائر جزية مجزية تعادل عشرة أضعاف الجزية التي تمنّ بها عليّ منّاً، ولا تكتفي بهذا السخاء ولكنها تقدّم لهذا الداي ثلاث سفن صُنعت خصيصاً وبمواصفات استثنائية تناسب هذا الداي الذي لا تجدون حرجاً، أنتم معشر النصارى، في أن تنعتوه بلقب «الحيوان»، في حين تبخل هذه الولايات على باشا طرابلس بسفينة واحدة ذات صاريين؟!

سكت القنصل. قال أخيراً:

ـ هذه مفارقة حقّاً، وإذا حدثت مثل هذه المفارقات (كما علّمتنا التجارب يا سعادة الباشا) فليس من الصواب أن نتخذ المواقف، ولكن الواجب أن نشكّ في حقيقة الوسيط الذي يشبه دوره دور الترجمان في المحادثات: إذا فاجأنا الشريك بزلّة لسان فيجب أن نتحقّق من صواب الترجمة أوّلاً باستبدال الترجمان!

تساءل الباشا:

ـ ماذا يعني حضرة القنصل بعبارة «استبدال الترجمان»؟

ـ أعني أن في قبولكم اعتماد كاثكارت قنصلاً خطوة صواب لكشف ألاعيب الدّعي أوبراين!

فكّر الباشا طويلاً قبل أن يتساءل:

ـ هل قال جناب القنصل في المرّة الماضية إن كاثكارت هذا إيرلندي الأصل؟

وعندما أجاب «مكدونو» بالإيجاب أعلن:

ـ سأنيب عنّي الريّس مراد لاستقباله!

37

الريّس مراد علج من أصول إيرلندية أيضاً وقع في أسر بحرية طرابلس عندما كان يعمل بحّاراً على ظهر الباخرة الأمريكية «بتسي»، ولكنه اعتنق الإسلام ليتسلّل إلى مخدع الأسرة المالكة على عادة نصارى ذلك الزمان فلم يحقّق هذه الأمنية وحدها، ولكنه صار يد الباشا اليمنى في كل ما له صلة بمملكة البحر. ويروي كتاب الحوليات وقناصل الدول الأجنبية في تلك الأعوام سيراً غامضة عن سبب كراهيته لبني ملّته. وهي كراهة لم يحاول الريّس مراد إخفاءها في ذلك اليوم أيضاً عند استقباله للقنصل الأمريكي كاثكارت. كان يسترخي ببدنه البدين على الأريكة عندما دخل القنصل فحيّاه ببرود دون أن يكفّ عن العبث بفصّ خاتم كثيف في بنصره. ولكن كاثكارت الذي تجرّع الذلّ على يد الجلاّدين في سجون الجزائر تجاهل الإهانة وانتظر الإذن بالجلوس. قال الريّس مراد:

ـ أريدك قبل كل شيء أن تصدقني القول بشأن العتاد الحربي!

ابتسم كاثكارت قبل أن يجيب:

ـ عتادكم مشحون على ظهر السفينة «هيرو» التي أبحرت منذ خمسة عشر يوماً. ويبدو أنها غرقت، أو ربّما تعرّضت لهجوم من طرف معادٍ.

مضى الريس مراد يعبث بخاتمه. قال ببرود:

ـ والبرهان؟

سكت كاثكارت قليلاً. قال:

ـ البرهان ستجري به الأيام.

ـ هذا لا يبدو مقنعاً لطرفٍ خسر كل هذا الوقت انتظاراً لتنفيذ وعدٍ نصّت عليه بنود اتفاقية!

ـ باي تونس تقبّل هذا العذر وتفضّل فأمهلنا عشرة أشهر أخرى!

تململ الريّس مراد في جلسته. تساءل:

ـ باي تونس؟

ثم أضاف ساخراً:

ـ أراهن أنّكم دفعتم له ما لا يقلّ عن الثلاثين ألف دولار كي يقبل عذركم هذا!

أنكر القنصل:

ـ كلاّ! باي تونس كان سيرى في عمل كهذا إهانة لو عرضناه عليه!

أطلق الريس مراد ضحكة ارتجّ لها بدنه البدين. زمجر:

ـ هذه أوّل مرّة أسمع فيها عن مخلوق يرفض مالاً في هذه السواحل!

تضاحك باستهزاء مرّة أخرى، ثم أضاف:

ـ هل رفض داي الجزائر أموالكم أيضاً؟

توعّده بسبّابته السمينة قائلاً:

ـ يوم وصلت هديتكم «الهلال» إلى ميناء الجزائر كنت هناك فلا تحاول أن تقنعني بنزاهة الداي المزعومة!

استلقى إلى الوراء قبل أن يضيف:

ـ لقد حدّثوني بالتفصيل عن الثروات الطائلة التي اشتريتم بها أسراكم هناك في وقتٍ تبخلون فيه بالحسنات على أناسٍ أبى نبلهم إلاّ أن يطلق سراح أسراكم بلا مقابل. لأن النزهاء هم الذين يدفعون الثمن، في حين يجني السفلة ثمار نزاهتهم!

سكت كاثكارت. سأل مراد:

ـ هل تستطيع أن تحدثني عن الحسنات التي جئتنا بها تحت اسم «هدايا»؟

بدأ كاثكارت يرتعد انفعالاً. تمتم:

ـ مستر بيتر لزلي..

غزا الشحوب وجنتي الريّس مراد المنفوشتين. قاطع القنصل بلهجة استنكار:

ـ بيترلزلي؟

سكت القنصل فهبّ الريس مراد واقفاً:

ـ هل تريد أن تعيّرني باسم خلعته كما خلعت أنت أسمال العبودية في سجون الجزائر؟

تمتم القنصل:

ـ الاسم ليس أسمالاً!

زأر الريس مراد:

ـ الاسم أسوأ من الأسمال. الاسم شوكة في الظهر لأننا لم نختره يوم وسّموه لنا غصباً عنّا. الاسم الحقيقي هو الاسم الذي نختاره لأنفسنا. هل فهمت؟

سكت القنصل. قال أخيراً:

ـ نستطيع أن نختار لأنفسنا اسماً إذا كان الاسم هويّة كما تريد أن تقول، ولكني أتساءل عمّا إذا كان من المناسب أن نختار لأنفسنا اسم المخلوق الذي سبّب يوماً في تخريب وطننا وتقتيل أهلنا!

حدجه الريس مراد بتحدٍّ. حشرج في وجهه:

ـ بلى! اخترت اسم مراد لأنه البطل الوحيد الذي استطاع أن يخرّب إيرلندا، لأني لا أكره شيئاً في هذه الدنيا كما أكره إيرلندا!

تمتم كاثكارت:

ـ عرفت إيرلنديين كثيرين يكرهون الإنجليز، ولكني لم أعرف إيرلندياً واحداً يتباهى بكراهة إيرلندا!

ـ هذه خطيئة الإيرلنديين! الأَوْلى أن يكرهوا إيرلندا بدل أن يكرهوا الإنجليز!

ـ أستطيع، مسترلزلي، أن أغفر لك كراهتك للأمريكان، أيضاً، ولكني لا أستطيع أن أغفر لك كراهتك لإيرلندا!

أطلق مراد ضحكة عصبية. تساءل:

- هل تحرمني الغفران بوصفك أمريكيّاً أم بوصفك إيرلنديّاً!

أجاب كاثكارت بيقين:

- بل بصفتي الإيرلندية!

تأمّله مراد بفضول. قال باستهزاء:

- ظننتك جئت لتقدّم أوراق اعتماد كقنصل للولايات المتحدة الأمريكية!

- جئت لتقديم أوراق اعتمادي كقنصل للولايات المتحدة حقّاً، ولكن هذا لا يخنق في شراييني نداء الدّم الإيرلندي!

سكت الريس مراد. تسكع ذهاباً وإياباً. قال:

- أنت لا تدري أنّك قدمت لي الآن البرهان على حقيقة أمريكا كأمّة ملفّقة!

استنكر كاثكارت:

- أمّة ملفّقة؟

تمتم مراد:

- والأمّة الملفّقة لا يُعوّل عليها!

استنكر كاثكارت:

- لا يعوّل عليها؟

قال مراد:

- لا أعرف كيف تريدني أن أصدّق ما تقول بعد اعترافك هذا!

وقفا مستنفرين كأنهما ينويان الانقضاض على بعضهما. قال كاثكارت:

ـ ما أردت أن أقوله هو إن الإنسان بلا وطن ليس مخلوقاً ضائعاً فحسب، ولكنه المخلوق الذي لن يعني شيئاً!

ـ المخلوق الذي لن يعني شيئاً؟

في مقلتي القنصل تألّق وميض غامض. همس كأنه يحدّث نفسه:

ـ يؤسفني أن تكون بحّاراً ولا تقرأ «الأوديسة»!

زفر الريّس مراد باستخفاف. حشرج:

ـ ليس المهمّ الأوديسة التي لم أقرأها، المهمّ هو الأوديسة التي أصنعها!

ثم خطا نحو النافذة ليتطلّع إلى البحر. تساءل:

ـ أنت تحسن الظّنّ بالإنسان إذا كنت تظنّ أنّه يمكن أن يعني شيئاً!

حاجج كاثكارت:

ـ إذا كان الإنسان هو الذي لا يعني شيئاً، فما الذي يمكن أن يعني شيئاً؟

أجاب مراد دون أن يعود من رحلة البحر:

ـ لا شيء يمكن أن يعني أيّ شيء!

سخر كاثكارت:

ـ حقّاً؟ ألهذا السبب يبيح الإنسان لنفسه أن يستبدل اسمه كما يستبدل لباسه، ثمّ يستبدل دينه كما يستبدل حذاءه؟

قال مراد:

ـ يُباح كل شيء عندما لا يوجد معنى لشيء!

ـ ألا تبدو هذه القناعة تجديفاً في حقّ دينك الجديد؟

التفت مراد ليواجه القنصل. قال:

ـ المهم في ديني الجديد (بل وفي ديني القديم أيضاً) ليس أن تؤمن أو لا تؤمن، ولكن المهمّ أن تمارس الشعائر!

ـ الشعائر؟

ـ بلى. الشعائر دين القطيع!

ـ هل يرتضي من لا يجد معنىً لشيء أن يعتنق ديانة القطيع؟

سكت مراد لحظات. أجاب:

ـ ما يعني القطيع أن تتظاهر، لا أن تؤمن. والجرم الوحيد الذي لا يغتفر في هذه الديار هو أن تشقّ عصا الطاعة على ناموس القطيع. الناموس يقول: «مارس الشعائر، واكفر ما شئت!». الكنيسة أيضاً تعتنق هذا الناموس!

تبادلا نظرة كئيبة في اللحظة التي دخل فيها «مكدونو» معلناً موافقة الباشا على استقبال قنصل الولايات المتحدة الأمريكية لدى البلاط الطرابلسي!

38

إذا كان الريّس مراد، أو بيترلزلي بالأصح، قد فرّ من إيرلندا دون أن يفهم سرّ كراهته لإيرلندا، فإن «ناودي أكزافييه»، الملقّب

بـ«دورو»، كان قد فرّ أيضاً من وطنٍ شبيه بوطن لزلي وهو مالطا دون أن يساوره أدنى شكّ في سرّ كراهته لهذا الوطن الذي لن يكون سوى كونها جزيرة!

بل إن مالطا هذه ليست جزيرة ككل الجزر، ولكنها مجرّد نتوء فزّ يوماً من قيعان بحر ليبيا. أي إن الجزيرة ليست جزيرة ولكنها صخرة. صخرة تمخّض عنها اليمّ استجابةً لخطأ مّا في الطبيعة. أي إن مالطا ليست وطناً حقيقياً، ولكنّها محاكاة ساخرة لوطن. لأن مالطا، كخطأ دبّرته الطبيعة، بقعة لقيطة. لقيطة لأنها ابنة الخطيئة التي اقترفتها الطبيعة. ولهذا اليقين رأى في الانتماء إلى هذه اللقيطة عاراً منذ البدء، حتّى إنه انتظر بفارغ الصبر اليوم الذي سيهجرها فيه إلى أي مكان يمتلك شروط الوطن. اندسّ مع الجرذان في قاع إحدى السفن فلفظته على شطآن طرابلس. في جوف هذه المدينة اكتشف أنه لم يكن المالطي الوحيد الذي حقّق حلم الفرار من النتوء الصخري، ولكن الكثيرين من أبناء جلدته سبقوه إلى هذا الحلم وإلاّ لما سبقوه للإقامة في جوف هذه المدينة.

كان حي المالطيّة يجاور حارة الجالية اليهودية. وهو جوار شبيه بجوار القنافذ التي تؤذي بعضها البعض بأشواكها كلّما التأمت، ولكنها لا تحتمل أن تتباعد بها المسافة أيضاً بسبب البرد. بلى! كان أفراد الجالية المالطية ينازعون جيرانهم من أبناء الجالية اليهودية بلا انقطاع. كان أبناء الجالية المالطية يعيّرون أبناء الجالية اليهودية بتشرّدهم في الأوطان، فيجيبهم أبناء الجالية اليهودية مردّدين: «ألاّ يكون للإنسان في هذه الدنيا وطن أفضل من أن يكون للإنسان وطن

كمالطا!». ولكن لؤماء المالطية يتفنّنون في إخفاء مشاعر كراهيتهم لصخرتهم اللقيطة في مثل هذه المواقف فيجيبون: «لو كانت مالطا بهذا السوء الذي تزعمون لما فاضت بأبناء ملّتكم اليهود!».

كانت مالطا تعجّ بأبناء جالية يهودية بالفعل إلى حدّ أن «دورو» تعشّق مرّة فتاة يهودية كانت تبيع بعض المنتوجات المضحكة، التي لا يستطيع أن يفلح في ترويجها إلاّ عقل تجاري عبقري كعقل هذه الملّة. ولكن علاقته بالفتاة انتهت في اليوم نفسه الذي بدأت فيه. فقد ضبطهما أب الفتاة متلبسين بتبادل قبلات حامية في دهليز أحد الأبنية فاختطف الفتاة من بين يديه لتختفي من الحي إلى الأبد. وقد احتفظ بحلاوة شفتيها إلى أن ساقته الأقدار إلى ديار أهل المعشوقة الضائعة في أزقة طرابلس، فأيقظ فيه الجوار حنين التجربة العاطفية الأولى. وربّما كان الإحساس بالامتنان هو سبب تعاطفه مع أبناء الحارة أكثر مما تعاطف، أو تسامح، معهم بقيّة أبناء جلدته في نزاعاتهم المستمرة معهم. أم إن الإحساس بالاغتراب هو السبب؟ بلى. لم يشعر بنفسه يوماً سوى لقيطاً في هذه الدنيا مثله مثل جزيرته اللقيطة تماماً. ويبدو أن إحساسه بالتيه مستعار في الأصل من تيه الجزيرة كصخرة عائمة في خضم البحر بعد أن لفظتها قيعان اليمّ بضربة زلزلة مصادفةً يوماً. هو أيضاً لفظته ضربة خطيئة من قيعان المجهول يوماً. وربما كان حقده على جزيرته يكمن في قناعته بمسؤوليتها في اقتراف هذه الخطيئة في حقّه. فلو لم تولد الجزيرة لما وُلد هو. لو لم توجد الجزيرة لما وُجد هو. لو لم تغترب الجزيرة لما اغترب هو. الجزيرة أذنبت في حقّه كما أذنبت في حقّ

نفسها. وبرغم الكراهة لا يعرف لماذا يستشعر نحوها أحياناً شفقةً لا توصف. شفقة دفعت الدموع إلى مقلتيه مراراً. هذا الإحساس هو ما أيقظته فيه سلالة الاغتراب المسمّاة يهوداً. فثمّة صلة خفيّة بينه وبين هذا الشعب كما بينه وبين وطنه المقطوع الجذور، لأنهم جميعاً في هذا الحضيض غرباء!

في المدينة وطّد العلاقة بأبناء أمّة الغرباء فلم يكتسب ثقتهم فحسب، ولكنه كسب منهم حتّى الأصدقاء. أصدقاء كانوا له عوناً لم يكنه له أبناء جلدته. أحد هؤلاء الأصدقاء (أبراهام السروزي مستشار القنصلية الفرنسية) هو من انتشله يوماً من بؤس العمل كساعاتي ليدخل به السلك الدبلوماسي، يوم قدّمه للقنصل غيس ليشغل وظيفة ترجمان القنصلية. ولكنه قبل أن يبلغ شاطىء الخلاص تخبّط في اليمّ الدنيوي طويلاً: تنقّل في أعمال منحطّة قبل أن يصير بائعاً للأسماك، ثمّ حارساً لمخزن، ثمّ بائعاً للمياه، ثم انتهى به المطاف إلى فتح أبواب أوّل حانوت لإصلاح الساعات في المدينة كلّها. وهو عمل يستطيع أن يقول إنه ناله وحياً هبط عليه من السماء. بلى، بلى. فقد سمع عبارة من فم أحد الدراويش تقول: «الخلاص ليس أن نفلح في إيقاف الزمن، ولكن الخلاص في أن نعرف كيف نصلح الخلل في الزمن!». الخلل في الزمن؟! يا لها من فكرة عبقرية! الدرويش تحدّث عن الخلاص، ولكنه أدخل تعديلاً مبدئياً على العبارة عندما استبدل كلمة «خلاص» في العبارة بكلمة «فلاح». بلى، بلى. الفلاح في الدنيا في معرفة كيفية إصلاح الخلل في سير الزمن. بل الخلود نفسه ليس في الاحتيال لتعطيل لغز الزمن، ولكن

الخلود في إصلاح الخلل في الزمن. بلى، بلى. ثمّة خلل قديم في الزمن قدم الدنيا. ولكن كيف السبيل لإصلاح الخلل بدون اكتشاف الخلل؟ هام طويلاً قبل أن يهتدي إلى الرمز المجسّد للغز الزمن. إلى آلة بلهاء ملفّقة من أجزاء مستترة، مستديرة في جرمها كأنها تحاكي الحركة الدائرية للزمن. تلك هي الساعة!

الساعة تجسيد بليد للزمن حقّاً، ولكنه التجسيد الذي لا نملك سواه كي نكتشف حقيقة الزمن، لأن المظهر لا يخفي الجوهر إخفاءاً فحسب، ولكن الجوهر يسري في المظهر، يتخلّل المظهر تخلّلاً، ولا يهجع في جوفه هجعة النواة في الثمرة. لا يذكر في أي كتاب قرأ شيئاً من هذا القبيل. وربّما لم يقرأه في أيّ كتاب، بل سمعه من فم أحد القساوسة أيام تردّده على الكنيسة في قدّاس الأحد.

افتتح حانوت إصلاح الساعات ليبدأ لعبته مع الزمن. لعبته مع الخلل في الزمن. ولكن العراك مع الخلل في الزمن لم يستمرّ طويلاً، لأنه كاد يفقد قوت يومه برغم اعترافه بمتعة مهنة التعامل مع الزمن. في ذلك الزمن الذي عرف فيه الجوع لأوّل مرّة ظهر أبراهام السروزي في دنياه منقذاً فتخلّى عن معشوقه الزمن. تخلّى عن الزمن، ولكن الزمن لم يتخلَّ عنه. ففي الزمن الذي استمرأ فيه العمل ترجماناً في القنصلية، أعلن الزمن عن حضوره في حياته مرّة أخرى. أعلن الزمن عن خلله الخالد الذي لا سبيل إلى إصلاحه مرّة أخرى. فسد الزمن فوجد نفسه معتقلاً على سفينة حربية إنجليزية يقودها ربّان برتغالي يُدعى الكولونيل كامبل مصحوباً برئيسه الجديد المسيو بوسييه. الكولونيل البرتغالي ألقى بهما في المكان الذي لم

يتخيّل أنه سيجد نفسه فيه مرّة أخرى: جزيرة مالطا التي اتخذها الإنجليز قاعدة لنشاطاتهم الحربية ضد نابليون المحاصر في مصر بعد أن انتزعوها من قبضة الجنرال الفرنسي «ديبوا». عودته إلى الجزيرة معتقلاً على متن فرقيطة معادية ما لبث أن فسّره كبرهان على الخلل في الزمن. ذلك الخلل الذي أخفق في إصلاحه، أو أحجم، بسبب الجوع عن استكشاف أسراره فرجع من منتصف الطريق. والرجوع من منتصف الطريق هو الرذيلة التي لا تغتفر في عرف الزمن. وها هو الزمن ينتقم منه بإعادته غصباً إلى نقطة الصفر. بإعادته إلى وطنٍ أنكره بالأمس بعد أن ظنّ أنه تحرّر. لقد ارتكب مرّةً خطيئة بالاغتراب ثم اقترف خطيئة أخرى بالرجوع من المنتصف: الحقيقة لا تحتمل أنصاف الحلول، وطلب الخلل في الزمن لا يطيق الوسوسة أو التردّد أو الشكوك.

ولكن المقام في الجزيرة لم يدم طويلاً، لأن الإنجليز أطلقوا سراحهما فغادرا على الفور إلى مرسيليا. هناك قرّر أن يكفّر عن خطيئته فعاد إلى رحاب الزمن. استأجر حانوتاً لإصلاح الساعات برغم سخرية المسيو بوسييه. عاد يتجسّس على خصمه ومعشوقه في آن ويستمتع بجوسسته. لا أحد يعرف حقيقة اللذّة ما لم يحيي بندول ساعة ميّت. في بعث الحركة في البندول الخامد يكمن سرّ الخلق. يكمن سرّ الخليقة. والاحتيال عليه ليترنّح شرقاً وغرباً تتحقّق الرقصة الفتيّة. الرقصة البكر. رقصة الفتنة. أمّا في الإيقاع الحميم، المهووس، فتصدح أهزوجة النبض: نبض القلب. قلب الأبديّة. ولكن ماذا عن استدارة جرم الآلة كقمقم يسكت على سرّ الزمن؟ إنها

تلك الإستدارة التي صارت شرط وجود الأفلاك السماوية. استدارة الأجرام الألوهية. لأن الجرم المستدير وحده أوتي عبقرية احتواء كل الأجرام الهندسية، ثم تكوّر على نفسه تحصيناً لحقيقته واكتفاءاً بنفسه. لأن الربوبية هي المبدأ الوحيد الذي انكفأ على نفسه تأمّلاً لذاته واكتفاءاً بنفسه، فوهب الأكوان سليقة من نفسه لتكتسب الأفلاك أيضاً صورته لهفةً منها في التشبّه بمسلكه. الساعات! الساعات! ساعات نحاسية، وأخرى فضيّة، وثالثة ذهبية. يتفنّن الصنّاع في إبداع أنواع الساعات لاقتناص رسول المجهول: الزمن! يدبّر هؤلاء السحرة الأفخاخ لاصطياد الطريدة الخالدة في القمقم بضروب المعادن.

ولكن المعادن تجفل الطريدة وتنفي الحضور في الدنيا عن المريد الأبدي: الزمن! ذلك لأن السحرة يجهلون برغم مواهبهم حقيقة الزمن الذي لا يُنال بقمقم الجرم، ولكنه يستدرج بسرّ آخر قرين له هو الروح. فإذا كان هذا المارد المسمّى زمناً ما هو إلاّ قرينه المكان إذا اغترب عن نفسه فتبدّد فلن تكون الروح سوى قرينها البدن إذا اغترب البدن عن نفسه وتبدّد. الجسد قرين مكان، كما الروح قرين زمان. وهو ما يعني أن لا سلطان على الزمان إلاّ بلغز مماثل هو الروح. لا سبيل لاستدراج الزمن إلاّ باستخدام الروح. وهو ما تعلّمه بالاستماع إلى موسيقى النبض، بتأمّل دقّات قلب الأبدية في معزوفة الأفلاك الكونية ليستحضر في الوجدان الزمن. فهل هذا ما يسمّيه دراويش الطرق الصوفية في طرابلس وَجْداً؟ ولكن الساعات تتنوّع أيضاً تنوّع معادنها كما تتنوّع تنوّع أصحابها الذين امتلكوها. وعلّ

أردأ هذه الآلات هي الآلات المسكوكة من أنفس المعادن كالذهب. في هذا الجنس من الساعات يبدو الزمن شقيّاً، بل مغترباً، وليس ذهبيّاً على الإطلاق؛ ربّما لأنّه قرأ في كتاب مّا أن الذهب جرم مستدير أيضاً مثله مثل الربوبية، مثله مثل الزمن؛ بل مثله مثل الروح أيضاً لأنه في حقيقته ليس سوى روح تجسّدت، كما أن الروح ليست سوى ذهب تبدّد. وخلود الذهب مستعار من خلود الروح أيضاً. لهذا السبب صار الذهب خصماً للزمن أيضاً بسبب سجية الخلود هذه حتى إنهما لا يجتمعان تحت سقف واحد إلاّ لينفي أحدهما ثانيهما. والذهب في هذا النزاع طرف أقوى بسبب صفقته المشبوهة مع الأبدية. ولولا هذه الخصلة لما صار معبود الخليقة. ولهذا يغترب من وجهه الزمن حيثما التقيا ليصير الذهب للزمن بديلاً. ولهذا لا وجود لزمن حقيقي في الساعة الذهبية. ولهذا لا قيمة حقيقية للساعة الذهبية إلاّ بقيمة الجرم المعدني الذي يطوّق في أجزائها الزمن. الساعة الذهبية ليست ساعةً لقياس الزمن، ولكنها عملة تبرهن على اغتراب الزمن.

اليوم أقبل على الحانوت المسيو بوسييه مبكّراً على غير عادته. أقبل معتمراً قبعة جديدة بشاربه الأنيق الموشّى بالشيب المرفوع دوماً إلى أعلى. داعب بندول ساعة حائطية معلّقة على جدار المحلّ ليتساءل:

ـ هل هي ذهبية؟

ثمّ أخفى بسمته الساخرة متظاهراً بتفقّد الساعة، فأجابه:

ـ كلاّ، كلاّ. الساعات الحائطية نادراً ما تكون ذهبية!

ـ حتّى على حيطان الأثرياء؟

اقتنص نبرة الخبث في سؤال رئيسه القديم فأجاب:

ـ حتّى على حيطان الأثرياء!

ـ ألم تتساءل يوماً عن السرّ؟

ـ لا أدري؛ ربّما لأن الأثرياء أيضاً يفضّلون أن يحملوا غنيمتهم في معاصمهم!

اختلس المسيو بوسييه إلى مرؤوسه نظرة. سأل:

ـ ألن يعني هذا أن الاستهانة بالزمن ناموس الجميع؟

أجاب «دورو» بعد وهلة:

ـ بلى. أظنّ أن استبدال الزمن بالذهب شريعة الجميع.

انتظر المسيو بوسييه لحظات. انتقل إلى ساعة أخرى. سأل:

ـ ألاّ يبرهن هذا على غيبوبتنا؟

ـ هذا يدلّ على اتّخاذنا الزمن عدوّاً بدل السير في ركابه!

عبّر بوسييه عن استغرابه بسؤال:

ـ السير في ركابه؟

ـ بلى. لا عاصم من شرّ الزمن إلاّ بالاحتماء بالزمن!

ـ وكيف السبيل إلى ذلك؟

سكت دورو لحظات. أجاب:

ـ بالرحيل!

تعجّب المسيو بوسييه:

ـ بالرحيل؟

لم يجب دورو. مضى يرنو إلى الفراغ المؤدّي إلى البحر صامتاً.

قال بوسييه:

ـ تستطيع أن تتباهى بالفوز إذاً، لأني جئتك بالخلاص!

سكت ثم أضاف:

ـ جئتك بالرحيل!

تطلّع إليه دورو غائباً. تمتم:

ـ المهاجرون وحدهم لا يشيخون أبداً!

ابتسم بوسييه. تنقّل بين الساعات الحائطية المعلّقة قال:

ـ كم تمنّيت أن أسير في ركابك، كما تسير أنت في ركاب زمانك، ولكنّي مجرّد مملوك في دائرة يشرف عليها تاليران، ويملك زمام أمرها نابليون بونابرت!

التفت إليه دورو مستفهماً فأضاف:

ـ لقد قرّرت الإدارة في باريس إيفادك في مهمّة إلى طرابلس!

سكت لحظة ثم أوضح:

ـ ما زال نابليون يعتقد أن خلاص الجيش المحاصر في مصر يمرّ عبر بوّابة طرابلس!

39

خاطب يوسف باشا وزيره الدغيس قائلاً:

ـ أفلحت في التوفيق بين ضرّتين اثنتين في بيتي، ولكني أخفقت في إرضاء ضرّات ثلاث خارج بيتي!

ابتسم الوزير بخبث قبل أن يضيف الباشا:

ـ عملنا على إرضاء فرنسا فكسبنا عداء الإنجليز والأستانة معاً. ثمّ عملنا على إرضاء الأستانة بإعلان الحرب على فرنسا فلم نخسر فرنسا وحسب، ولكنّنا لم نكسب بهذه الخطوة لا رضى الأستانة، ولا رضى الإنجليز، بل فقدنا الجميع بما في ذلك فرنسا!

التفت إلى الدغيس ليضيف:

ـ فبماذا تشير للنجاة من هذا الشرك؟!

قال الوزير:

ـ إذا أفلح مولاي في التوفيق بين ضرّتين في بيته فلن يعجزه أن يوفّق بين الضرّات التي تتنازع خارج الحدود!

ـ تقول هذا كأنّك تجهل مدى هشاشة الحدود!

سكت ثم أضاف فجأة:

ـ ألا تدري أن هؤلاء المجانين لا يتنازعون فيما بينهم إلاّ لخلق الحجج للاستيلاء على أوطان المستضعفين؟!

هوّن الوزير:

ـ لا أظنّ يا مولاي أن يخفي أي طرف من هؤلاء نيّة شرّ ضدّنا، بل إن في عراكهم يكمن نفعنا!

استنكر الباشا:

ـ لا يخفون نيّة شرّ؟ هل نسيت أن اللوطي برغل ما زال يحظى بتأييد السلطان سيّما بعد بلائه الحسن ضدّ نابليون في فلسطين؟

طأطأ الوزير لحظة. قال:

ـ حتّى لو أخفت الأستانة نوايا ضدّنا فلا أظن أنّها ستستخدم برغل الزور لتنفيذ نواياها ضدّنا!

ـ ما الذي يحملك على مثل هذه الظنون؟

ـ لأن علي برغل شنق نفسه بنفسه بسيرته ولن يجديه حسن بلائه في الحرب ضد بونابرت!

غاب الباشا بعيداً. قال:

ـ ولكن الأستانة لن تعدم تلفيق ورقة جديدة!

ـ صدق مولاي! في عبّ الأستانة دائماً أوراق عديدة!

تطلّع الباشا إلى وزيره بفضول. سأل:

ـ هل ستستخدم ورقة الإنجليز هذه المرّة؟

أجاب الوزير بيقين:

ـ قد تستخدم ورقة الفرنسيس، ولكنّي أشكّ أن تلجأ إلى استخدام ورقة الإنجليز!

ذهل الباشا:

ـ ورقة الفرنسيس؟

أجاب الوزير ببرود:

ـ إذا توصّل الطرفان إلى توقيع معاهدة صلح فإن فرنسا هي المؤهل أكثر من انجلترا لتكون لأطماع الأستانة حصان طروادة!

ـ ولكن توقيع معاهدة صلح بين الأستانة وفرنسا أمر بعيد الاحتمال.

سكت الدغيس لحظات. قال:

ـ بل توقيع المعاهدة هي الاحتمال الوحيد الباقي يا مولاي!

تعجّب الباشا:

ـ هل هذا رأي قناصل الأغراب؟

ـ هذا رأيي أيضاً يا مولاي!

سكت الباشا لحظة. قال:

ـ يقال إن الفرنسيس يتأهبون لخطب ودّنا من جديد!

ـ بلى يا مولاي. رسولهم نزل أراضي تونس قادماً من جنوا. إنه نودي أكزافييه الملقّب باسم «دورو»!

ـ دورو المالطي الجنسية الذي كان يشغل وظيفة ترجمان القنصلية الفرنسية؟!

أجاب الوزير بلهجة استخفاف:

ـ دورو ترجمان القنصلية السابق، وصاحب حانوت الساعات في حارة المالطيّة يا مولاي!

سكت الباشا طويلاً قبل أن يجسّ النبض:

ـ ألا تظنّ أن هذه فرصة مناسبة لإصلاح ما أفسدنا؟!

قال الوزير باللهجة ذاتها التي تخفي سخرية:

ـ فرصة مناسبة حقّاً إذا وضعنا في اعتبارنا أن فرنسا ما هي اليوم إلاّ أسد ميّت!

ـ أسد ميت؟

ـ أعني أنها العدوّ الذي يحتضر!

نهض الباشا. تسكع ذهاباً وإيّاباً. قال:

ـ تقصد وضع الجيش المحاصر في مصر، أليس كذلك؟

ـ الفرنسيس ما زالوا يظنّون أنهم قادرون على إنقاذ ماء وجههم في مصر، ويعلّقون الآمال علينا لتحقيق هذه الأعجوبة!

سأل الباشا:

ـ ولماذا تحسب هذا أعجوبة؟

أجاب الوزير بلهجة ذات معنى:

ـ لأن كل الدلائل تشير أنهم غرقى يتعلّقون بقشّة!

ابتسم الباشا بمكر. تمتم:

ـ تريد أن تقول إن الفرنسيس هم الغرقى، وما نحن لإنقاذهم سوى قشّة؟!

أعقب العبارة بضحكة مكتومة، ثمّ أضاف:

ـ ما نحن في هذه الدنيا سوى قشّة حقّاً، ولكن الأوطان ليست قشّة!

تمتم الوزير مستفهماً:

ـ يريد مولاي أن يقول...

قاطعه الباشا:

ـ أردت أن أقول: لو لم يكن هذا الوطن قنطرة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب منذ أقدم الأزمان لما استنجد الفرنسيس اليوم بهذه القشّة التي تثقل كاهل هذا الوطن!

وافقه الدغيّس:

ـ نستهين بهذا الوطن دوماً وننسى أنه الغنيمة، وكذلك الملاذ!

40

باريس. ربيع عام 1800م

خاطب القنصل الأوّل نابليون بونابرت وزير خارجيته تاليران بالقول:

ـ أما من نهاية لهذا الصداع؟

لم يجب تاليران فأضاف القنصل الأوّل:

ـ أكاد أؤمن بصدق نبوءة تلك الجنيّة التي اعترضت طريقي مرّة في مرسيليا.

انتبه تاليران الذي كان يتأمّل لوحة غريبة مزدحمة بالأشباح والمسوخ معلّقة على الجدار الذي يعلو رأس نابليون المستلقي على الفراش ملفوفاً بالأغطية بعد أن أصابه تقلّب الأجواء بنزلة زكام حادّة. تطلّع إلى سيّده ثم تساءل:

ـ هل تحدّث سيّدي عن جنيّة؟

حدجه نابليون بنظرة عابرة، ثم تسلّق السقف ببصره. قال:

ـ أظنّ أنّي حدّثتك عن هذه الغجرية التي قالت لي إن ملك الحظوظ حليفي برغم أني لن أفلح في إنجاز أي شيء إلى النهاية أبداً!

ابتسم تاليران. تساءل:

ـ ألا تبدو هذه النبوءة كذباً؟

ـ لو كانت كذباً لما أخفقت في الإسكندرية، ثم على أبواب عكّا، ثم في تأمين الاتصال بقادة الحملة في مصر!

تاليران: ولكن سيّدي لم يخفق في الخروج من ذلك المستنقع سالماً، كما لم يخفق في تطهير باريس من أساطين السفسطة!

نابليون: الخروج من المستنقع كما تسمّيه ليس إنجازاً، لأن غاية الحملة كانت تثبيت الأقدام في المستنقع وتحويله فردوساً لا الخروج من المستنقع. أمّا تطهير باريس من أساطين السفسطة كما تقول فلم يكن يوماً غاية أيضاً، ولكنّي لم أفعل شيئاً حتّى الآن لتبرير هذه المغامرة!

تاليران (يعود لتأمّل لوحة المخلوقات الأسطورية): ولكن سيّدي ما يزال في أوّل الطريق!

نابليون: ها نحن نلتقي في منتصف الطريق؛ لأن كل ما فعلته حتّى الآن ما يزال في أوّل الطريق!

تاليران (مستغرقاً في تأمّل اللوحة): يا لها من أشباح!

حدجه نابليون بدهشة، ولكنه أشاح ببصره عندما اكتشف انهمامه باللوحة. قال:

- لم أتخيّل يوماً أن تكون باريس أيسر منالاً من مصر!

زفر ثم غرق في نوبة سعال استمرّت طويلاً. قال بسيماء مجبولة بالدّم:

- يخيّل لي الآن أن زرع الثورة في أوربا بأسرها أيسر من استنزراع بذرة تنوير في بلد كمصر!

تاليران: مصر دوماً لغز!

نابليون: ظننت أن الصواب أن ينطلق الإنسان من النقطة الأضعف، ولكني لم أكتشف خطأ تقديري إلاّ بعد فوات الأوان!

تاليران (ما يزال يحدّق في مخلوقات اللوحة): النقطة الأضعف، يا سيدي، تخفي دائماً المبدأ الأعظم. ألا تتحدّث «ألف ليلة وليلة» عن مردة القمقم؟

نابليون (بعد لحظة صمت): ماذا عن رسولنا التونسي إلى داي الجزائر؟

تاليران: لقد عاد السيد عمر بالطرود المرسلة إلى الداي ليضعها سالمة بين يدي قنصلنا في تونس المسيو «ديفواز»!

نابليون: آمل ألاّ يبقى بريدي إلى الجنرال «مينو» بين يدي قنصلنا في تونس إلى الأبد!

تاليران (ما يزال يتنقّل ببصره بين اللوحة وبين نابليون المستلقي على السرير): لقد أنجزنا كل ما من شأنه أن يعيد فتح الطريق للاتصال بالجنرال «مينو»!

نابليون: تريد أن تقول إن طرابلس هي حجر العثرة الأخير في طريق الوصول إلى الجنرال «مينو»؟

سكت تاليران. تململ في جلسته. قال:

ـ لقد أعددنا مسودة هدنة مع باشا طرابلس، وسوف يتوجّه بها إلى هناك مبعوثنا «بيون» خلال أيام. هذا إن لم يكن قد توجّه إلى طرابلس بالفعل!

نابليون: وهل يُعوّل على المسيو «بيون» هذا؟

تاليران (يعود لتأمل زحام الأشباح في اللوحة): المسيو «بيون» يمتهن التجارة، ويقيم في تونس زمناً مكّنه من إتقان العربية بطلاقة أهلها.

نابليون (بلهجة استنكار): هل تريد أن تقول إن الرجل سيعبر الحدود إلى طرابلس متنكّراً في ثياب أحد الأعراب؟!

تاليران (مستنفراً): كلاّ، كلاّ! المسيو «بيون» سيذهب إلى طرابلس مرتدياً مسوح تاجر يريد عقد صفقة تجارية!

نابليون (بعد صمت): أصبحت أتطيّر من استخدام هؤلاء التجّار الذين يتقنون العربية منذ نكبة الشقيّ بينوا أرنو!

تاليران: لا يجب أن يثنينا اغتيال رسول بيد قطّاع الطرق عن استخدام تاجر آخر!

نابليون: أرنو لم يهلك بيد قاطع طريق!

ثم غرق في نوبة سعال أخرى. أضاف بسيماء محتقنة بالدّم:

ـ حسناً! ماذا في جعبة «بينوا» الجديد هذا؟

صحّح تاليران:

ـ بيون. سيدي يقصد بيون. في جعبة بيون نسخة طبق الأصل من اتفاقيتي الهدنة مع باي تونس وداي الجزائر مع إضافة البنود التي تنصّ على تيسير وصول بريدنا إلى مصر عبر أراضي المملكة الطرابلسية.

نابليون: لقد حدّثني مرّة عن نيتكم في إرسال مبعوث للتباحث مع باشا طرابلس عن المعاهدة الدائمة على ما أذكر!

تاليران: سيّدي يقصد أكزافييه مستشار قنصليتنا المقيم الآن في مرسيليا. لقد أعددنا مسودة المعاهدة بالفعل على أن يتسلّل أكزافييه إلى الأراضي الطرابلسية عن طريق تونس أيضاً بعد أن تكون مهمّة

«بيون» في جسّ النبض وتوقيع اتفاق الهدنة. وهي معاهدة لا تختلف كثيراً عن معاهدة عام 1729 الموقعة مع أحمد الأكبر مؤسس الأسرة القرمانلية باستثناء بعض البنود الإضافية التي أملاها تواجدنا في مصر، وكذلك رغبتنا في لعب دور الوسيط في الخلاف بين باشا طرابلس من جهة وبين دول لا نريد أن نخسرها كالولايات الأمريكية والسويد والدانمارك.

تحامل نابليون على نفسه لينهض ببدنه مستعيناً بمسند السرير. قال:

ـ لا يجب أن تنسوا ضرورة أن يأذن الباشا لفرنسا بحماية مصالح الجمهورية الإيطالية في مملكته!

تطلّع إليه تاليران مليّاً ثم قال:

ـ لقد أوردنا هذا الشرط في أحد البنود ضمناً.

اعترض نابليون:

ـ لا يكفي أن يرد هذا الشرط ضمناً، بل يجب أن يرد في أحد البنود نصّاً!

سكت تاليران. ابتسم. تمتم:

ـ سيّدي يريد أن. . .

تمهّل قليلاً فتكلّم بونابرت:

ـ ألست أنت من راق له أن يردّد دوماً أن اللغة لم تُخلق لتعبّر عن أفكارنا، ولكنّها خُلقت لتخفي أفكارنا؟!

تبادلا نظرة ذات معنى. ابتسم تاليران بغموض. قال:

ـ أظنّ أنني فهمت، ولكن . .

تعلّق باللوحة من جديد. تساءل :

ـ لا أعرف متى وأين رأيت هذه الأشباح التي تتزاحم في هذه اللوحة.

تمتم نابليون :

ـ غويا!

استنكر تاليران :

ـ غويا؟

ولكن القنصل الأوّل غرق في نوبة سعال جديدة. سعل طويلاً ثم غمغم :

ـ اللعنة!

تململ في هجعته قبل أن يضيف :

ـ لا أكره ألدّ أعدائي كما أكره نزلة البرد!

ثم أوضح ما إن لاحظ غياب وزيره في مجاهل اللوحة :

ـ إنّها هدية ملك إسبانيا : نموذج مصغّر لمشهد مكبّر في سقف إحدى الكنائس.

ولكن تاليران ما لبث أن تمتم :

ـ كلاّ! كلاّ! لم أرَ هذا المشهد في لوحة ولا في سقف كنيسة . .

سكت لحظة. أضاف :

ـ لقد رأيته في كابوس!

استنكر نابليون:

- في كابوس؟

أكّد تاليران:

- رؤيا..

- رؤيا؟

- رؤيا في حلم. هذا يقين.

على شفتي نابليون ارتسمت بسمة غامضة. بسمة ماكرة. ولكنه لاذ بالصمت. أمّا تاليران فتخلّى عن عربته ما إن خرج من قصر القنصل الأوّل ليقطع المسافة إلى بيته مشياً على قدميه. عبَرَ الشوارع غائباً، ولكنه كان يستشعر سعادة خفيّة طوال مسيره لأن الأعوان والأحراس والخدم وعصابات الموظفين كانوا يكتمون أنفاسه بحضورهم كأنّهم كابوس. بلى، بلى. إنهم تلك المخلوقات التي مسخها الفزع وهي تتطلّع إلى الشبح المعلّق فوقها كالقدر في لوحة القنصل الأوّل: روح شرّيرة سقطت من المجهول للنيل من أشقياء الحضيض. فهل هي نبوءة؟

أفضى السبيل إلى بوابة بستان. عَبَر البوابة وسار بين أشجار البستان. تذكّر الطريقة التي تآمر فيها أعضاء الإدارة فلفظوه كما تُلفظ بصقة، ولكنه عاد يوم لفظ نابليون الإدارة كما تلفظ البصقة أيضاً. الكاردينال فرانسيس دي غويّرا قال له مرّة إن الثقة في إنسانٍ يريد أن يمتلك الدنيا كالثقة في استحالة أن تلدغ الحيّة لمجرّد نعومة الملمس. آه، دي غويّرا، دي غويّرا! لماذا لا يعرّج في طريقه على دي غويّرا؟

اجتاز ممرّات تتسلسل بين الأشجار عابراً البستان إلى أن أفضى الطريق إلى الشارع من الناحية الأخرى. سار عبر الأزقّة غائباً. استعاد سيرة الثورة. استعاد عبوديته المجانية للثورة. أدهشه كيف هان عليه أن يهب نفسه بلا مقابل. أن يهب حياة توهب مرّة واحدة لمثالٍ لم يكتشف أنه موهوم إلاّ يوم ألقى به الرفاق إلى قارعة الطريق بلا سبب. كان ذلك بمثابة الدرس الذي أيقظه من الحلم. الدرس الذي أيقظه من الوهم. ولولا الظمأ إلى ردّ الاعتبار لما قبل العودة إلى الوراء. أم أنه ظمأ إلى الانتقام لا رغبة في ردّ الاعتبار؟ مهما يكن الجواب فإن إيمانه بالسلطة الثورية تزعزع بعد تلك التجربة ولن يجدي لاستعادته حتى سلطان بونابرت.

قرع باب الكاردينال وانتظر. انتظر طويلاً ثم أعاد الكرّة. انتظر أمداً أطول، ولكن الباب لم يُفتح. يئس أخيراً فاستدار عائداً على عقبيه. لحظتها انطلق خلفه النداء. التفت ليجد الكاردينال منتصباً بقامته الماردة في المدخل. عاد على عقبيه. اعتذر دي غويّرا:

ـ أرجو المعذرة. كنت في الطابق العلوي ونسيت أني صرفت الخدم!

شدّ على يده بحرارة ثم أضاف:

ـ لا تهرع لنجدتنا تلك المخلوقات أبداً عندما نحتاجها كما تعلم!

تمتم موافقاً:

ـ صدقت. الخدم لعنة!

جلسا على أريكتين متقابلتين. قال الكاردينال:

ـ لم نلتقِ منذ عدتَ إلى معبودتك منتصراً!

غمغم تاليران:

ـ أخشى أن يكون النصر الذي يخفي هزيمة!

الكاردينال: كل نصر يخفي هزيمة!

تاليران: لهذا السبب لا أريد أن أقبل تهنئتك لي بهذا النصر!

أطلق دي غويّرا ضحكة. قال:

ـ من يحكم على الآخرين بالموت تحكم عليه الطبيعة بالموت، ومن يهزم الخصوم يهزمه الزمن!

ـ صدقت. كلّنا مهزومون بالزمن.

عمّ صمت فاستشعر تاليران حرجاً. تململ في جلسته قبل أن يقول:

ـ الحقّ أني لم أقرّر اللجوء إليك اليوم إلاّ لتأويل رؤيا!

تطلّع إليه الكاردينال مبتسماً. تساءل:

ـ رؤيا؟

تمازح تاليران:

ـ أجل. قررت اليوم أن تصير لي عرّافة معبد دلفى!

ـ عرّافة معبد دلفى تجود بالنبوءة، ولكنها غير معنيّة بتأويل النبوءة، فاحترس!

استجاب تاليران للدعابة بضحكة مغتصبة، ولكنه ظلّ مستنفراً. قال:

ـ وما أدراك أني لست في حاجة إلى النبوءة أيضاً؟

حدّق فيه الكاردينال بعينيه العميقتين لحظة، عبث بمسند الأريكة قبل أن يقول:

ـ تاليران لن ينتفع بنبوءات الكاهن دي غويرّا، فما حاجته للسعي وراءها؟

ـ لماذا لا ينتفع تاليران بنبوءات الكاهن دي غويرّا؟

تطلّع إليه الكاردينال باسماً. قال:

ـ لأنّك قد تكون وقتها أي مخلوق آخر، ولكنّك لن تكون تاليران!

ـ لا أفهم!

ـ بل تفهم تمام الفهم. والدليل على ذلك عودتك إلى المستنقع!

طأطأ تاليران. قال:

ـ لم أعد إلى المستنقع إلاّ لأني لم أجد ما أفعله بنفسي!

هزّ الكاردينال رأسه أسفاً. سأل:

ـ هل نرمي بأنفسنا إلى التهلكة لأننا لا نجد ما نفعله بأنفسنا؟

زفر بعمق ثم أضاف:

ـ أنت تعلم أنّنا كلّنا لا نجد في الواقع ما نفعله بأنفسنا باستثناء فئة قليلة لا أريد أن أسمّيها بالقدّيسين لكي لا تتهمني بالإنحياز لأهل اللاّهوت!

تابعه تاليران منكفئاً إلى الأمام عابثاً بيديه. هيمن سكون. قال الكاردينال:

ـ ولكن الفضول ينهشني لسماع الرؤيا!

تبادلا نظرة. تململ تاليران في جلسته. استلقى إلى الوراء. تطلّع إلى السقف. قال:

ـ رأيت الخليقة مهدّدةً بشبح كريه له بدن أفعوان ورأس تنّين يتدلّى من السماء..

سكت. فرّك يديه كطفل يعترف بجرم فلا يدري ماذا يفعل بيديه. أضاف:

ـ ثم.. ثمّ رأيت الرؤيا مجسّدة في لوحة فوق رأس نابليون..

استنكر الكاردينال:

ـ فوق رأس نابليون؟

أوضح تاليران:

ـ قمت بزيارة القنصل الأوّل في بيته اليوم للبتّ في بعض الأعمال التي لا تحتمل التأجيل، لأن نزلة البرد أقعدته عن ممارسة عمله منذ يومين..

في عيني دي غويرّا تألّق إيماء غامض. تعلّق بصره بجليسه في صمت. سأل:

ـ هل قلت إن المشهد الذي رأيته في المنام هو المشهد الذي رأيته في اللوحة؟

ـ بالتفصيل!

ثم استدرك:

ـ لو رأيت الكابوس لمرّة واحدة فربّما غابت عنّي بعض التفاصيل

كما يحدث عادةً في أضغاث الأحلام، ولكنّي رأيت مسوخ الكابوس مراراً لا مرّة واحدة!

ساد صمت. أضاف تاليران:

ـ لقد استفهمت من القنصل الأوّل عن هويّة اللوحة فقال إنّها لغويا!

مضى الكاردينال يتطلّع إلى جليسه بعينين غائبتين. تمتم:

ـ غويا..

قال تاليران:

ـ قال إنها لوحة مصغّرة من رسم في كنيسة تلقّاها هديةً من ملك أسبانيا.

تمتم دي غويرّا:

ـ ملك إسبانيا..

ثم أضاف فجأة:

ـ إذا فعل ملك إسبانيا ذلك فهو داهية!

تعجّب تاليران:

ـ داهية؟

ـ أعني أنها هدية تليق بشخص كنابليون حقّاً!

تفكّر تاليران لحظات. تساءل:

ـ هل تعني أن اللوحة ضرب من رسالة؟

أجاب دي غويرّا ساهياً:

ـ أشباح غويا تصلح تاجاً على رأس إنسان كنابليون بونابرت!

ـ ماذا تعني حقّاً؟

ـ أعني أن الإنسانية الشقيّة سوف تعاني الويلات من مخلوق كبونابرت كما لم يحدث أن عانت من الإسكندر الأكبر أو يوليوس قيصر!

تبادلا نظرة ذات معنى. تمتم تاليران:

ـ انتظرت أن تقول هذا.

ـ أرجو ألاّ تظنّ أن تأويلي ناتج عن عدائي لعصابة المستنقع تلك، بل عليك أن تكتفي بإعادة قراءة رؤيا يوحنّا لتدرك ذلك.

ـ تريد أن تقول إن لوحة غويا تلك مستوحاة من رؤيا يوحنا؟

صاح الكاردينال:

ـ ليست رؤيا غويا، ولكن رؤياك أنت!

سكت دي غويرّا زمناً ثم أضاف:

ـ لقد قلت لك قديماً أن تنجو بنفسك قبل فوات الأوان، ولكنّك كابرت. واتتك فرصة الفرار مراراً، ولكنّك لم تنتهزها!

اعترض تاليران:

ـ ولكن الرسالة موجّهة لبونابرت لا لي!

ـ أخطأت!

سكت الكاردينال. أضاف وهو يهبّ واقفاً:

ـ رسالة غويا تاج فوق رأس بونابرت، أمّا بكابوس الرؤيا فأنت شريكه!

ـ شريكه؟!

ـ بلى. أنت شريك روح الشرّ!

هيمن سكون عميق فاستأذن تاليران للانصراف. عَبَر الشوارع وحيداً، مهجوراً، مجبولاً بعزلتين: عزلة دنيا، وعزلة باطن. لقد كان له الانسحاب هاجساً منذ زمن سبق طرده من منصب الشؤون الخارجية، ولكنه كذّب الوسواس، أو تظاهر بتكذيب الرسالة. وعندما عاد إلى المستنقع (كما يروق للكاردينال أن يسمّي إدارة الثورة) برّر عودته بالانتصار للكرامة وردّ الاعتبار. ولكن الحقيقة أنه عاد لأنه لم يحسن شيئاً في حياته يستطيع أن يهب لحياته معنى. وهو يدرك اليوم أنه تجاهل الحقيقة. حقيقة الثورة التي لا يذهب للقيام بها إلاّ الذين أخفقوا في إعطاء وجودهم معنى. إلاّ الذين لم يجدوا ما يفعلون بأنفسهم. إنهم ليسوا أهل بطالة فحسب، ولكنّهم أهل ضياع. أهل خواء يعزّون أنفسهم بالسعي لتحقيق عدالة لم يؤمنوا بوجودها يوماً. عدالة سرعان ما ينقلبون ألدّ أعدائها ما إن يمتلكوا زمام السلطة. هذا حدث دائماً وسيحدث إلى الأبد ما ظلّ المعنى فقيد الحياة الدنيا، وما ظلّت الثورات أفيوناً لافتداء غياب المعنى.

لا يعرف المواطن تاليران كيف وصل بيته في ذلك اليوم، ولكن الرواة يقولون إن زيارته لصديقه السرّي في ذلك اليوم كانت السبب الكامن وراء عداوة ذلك الرجل لبونابرت في المرحلة التاريخية التالية، ولم تكن عداوته للقنصل الأوّل استجابةً لتلك النزعة التي أودعتها الطبيعة في النفس البشرية المتمثلة في نكران الإحسان.

41

طرابلس. السراي الحمراء. نهاية الخريف. بداية الشتاء. 1800 ـ 1801م

ما إن انتهت مراسم توقيع الهدنة مع فرنسا حتّى تأهّب الباشا لاستقبال رسول نابليون الجديد المخوّل بتوقيع معاهدة السلم بين البلدين، كأنّ فرنسا كانت في عجلة من أمرها، أو تخشى أن يحدث ما من شأنه أن يجبر الباشا على التراجع أسوةً بما فعله باي تونس وداي الجزائر بفعل ضغوط الأستانة فتعلن الحرب عليها من جديد. والواقع أن نابليون ليس وحده من يخشى أن يحدث ما يمكن أن يعكّر صفو الأجواء ويعيد العلاقات بين البلدين إلى نقطة الصفر، بل الباشا أيضاً لم يخفِ خشيته. الباشا أيضاً كان في عجلة من أمره. الباشا أيضاً يخشى أن تقدم الأستانة فتوجّه له صفعة. وقد تكيد له من وراء ستور كعادتها فتسخّر بلهاء الإنجليز ليوجّهوا له هذه الصفعة بالإنابة. وقد يبدو الأمر هيّناً إذا اقتصر الأمر على توجيه مجرّد صفعة. ولكن وساوس الباشا وشوشت له دائماً بنيّة الباب العالي في تدبير دسيسة وهو الذي عاش مكيدة هذا الباب ضدّه مستخدماً المسخ علي برغل يوم أفلح ذلك الأفّاق في انتزاع العرش من بين يدي أبيه في اللحظة التي نضجت فيها ثمار الحرب الأهلية وأذنت بسقوط العرش بين يديه. ولولا خشيته اليوم من مؤامرة مماثلة من دهاة الأناضول لما أباح لنفسه التوقيع على نسخة جاهزة من اتفاقية الهدنة. ولم يكن ليفعل لولا رغبته في تحصين نفسه من مكائد دهاة الأناضول الذين يدرك جيّداً أنهم لن يغفروا له الوقوف إلى جانب

رجل يجاهر بنيّته في دكّ حصون امبراطورية بني عثمان ليرتدي طربوش السلطان ويتربّع على عرشه! فراره من هذا العدوّ الذي يتخفّى وراء قناع هو ما أجبره على الاحتماء اليوم بعدوّ الأمس. ذلك أن صاحب السلطان أشقى مخلوق على الأرض قاطبة. صاحب السلطان أجبن مخلوق على الأرض قاطبة. ولو خطرت هذه الحقيقة على رعاع الرعيّة لبصقوا في وجهه وأداروا له ظهورهم. لو وقفوا على سرّه هذا لاستحقّ شفقتهم بدل كراهيتهم. لو خطر ببال هؤلاء البلهاء أن وليّ أمرهم مجرّد رعديد لاحتقروه واحتقروا معه أنفسهم. ولكن من حسن حظّ صحبان السلطان أن الرعايا لا يعلمون. من حسن حظ صحبان السلطان أن سوادهم الأعظم لا يعلم أن سيّدهم ليس رعديداً فحسب، ولكنه معطوب الساق أيضاً. وعطب الساق هذا هو ما يدفعه للبحث عن عون مّا في مكان مّا. هو ما يدفعه للبحث عن عكّاز. إنه كالمرأة التي لا تخاطر أبداً بالتخلّي عن رجل ما لم تتخذ لنفسها رجلاً آخر على سبيل الاحتياط. ما حاجتها يا ترى لرجل الاحتياط هذا؟ رجل الاحتياط يضمن لها ضرباً من أمان حتى لو كان أماناً مزوّراً. حتّى لو كان ذلك الأمان أماناً موهوماً. بل إن صاحب السلطان، مثله مثل المرأة، لا يروق له أن يحيا إن لم يعش موهوماً. ولولا الوهم لفرّ من أشراك السلطان فراره من الطاعون. والغريب أن صاحب السلطان لا يخاف على حياته كما يظنّ البعض، ولكن جبنه ناتج عن خوفه على ضياع سلطانه. إنه لا يتماهى مع السلطان فحسب، ولكنه على استعداد أن يفتدي سلطانه

بحياته. سلطان صاحب السلطان أنفس بما لا يقاس من حياة صاحب السلطان. ولكن. . ولكن لماذا احتاج وليّ الأمر إلى العكّاز، إلى الأمان، إلى المعين؟ يوسف باشا يعلم، كما يعلم كل باشوات الأرض، أنه لا يحتاج إلى هذا المعين خوفاً على حياته، ولكنه يبحث عن هذا الصنم تكفيراً عن خطيئته. ذلك أن الباشا، مثله مثل أي باشا آخر في الدنيا، يعلم منذ البدء أنه لم يكن يوماً في وفاق مع نفسه. لم يكن يوماً في وفاقٍ مع الضمير. لم يكن يوماً في وفاقٍ مع الربّ. إذ كيف يكون في وفاقٍ مع الربّ إذا كانت الصفقة تقتضي أن يقايضها بروحه كي ينالها، كما تقضي بأن يبيع ضميره أيضاً ليضمن استمرارها، كما عليه أن يتنازل عن ربّه أيضاً ليهنأ بها؟ هذا هو ناموس السلطان. هذه هي خطيئة شهوة المِلْكيّة. مالك المِلكيّة ليس مملوكاً بالملكيّة كما يقول دراويش الطرق الصوفية، ولكن مالك الملكيّة لا يملك شيئاً مقابل الملكيّة. مالك الملكيّة مغترب عمّا يملك، لأن الملكيّة كالربوبية التي لا تشرك بنفسها. ولهذا فإن خسارة صاحب السلطان خسارتان: خسارة اللقية التي يتوهّم أنه يملكها، وخسارة الرّب الذي أضاعه في الصفقة مقابل السلطان. لهذا السبب فهو ليس جباناً فحسب، ولكنه مخلوق وحيد أيضاً. بل هو أكثر مخلوقات الدنيا عزلةً. ولهذا أيضاً يستنجد بأزلام الزور طلباً للعزاء. يستنجد بالأصنام الذين يتوهّم أنهم قادرون على تحقيق الأمان. ولهذا يدير ظهره اليوم لبني عثمان ولحلفائهم الإنجليز ليتسوّل النجدة لا لنفسه يقيناً، ولكن لسلطانه. لأن سلطانه هذا لم يعد مجرّد سلطانه، ولكنه انقلب مع الأيام إلاهه!

42

يتحدّث مؤرخو البحرية الأمريكية عن مآثر فرقيطة «انتربرايز» فيقولون إنها خاضت سبع معارك حربية، وغنمت تسع سفن فرنسية أثناء الحرب غير المعلنة بين فرنسا والولايات الأمريكية. وكان يمكن لهذه المقاتلة أن تفقد النصيب الأكبر من صيتها الأسطوري لولا هذان الرقمان السحريان اللذان فازت بهما في تاريخ تنقّلها الطويل بين المحيط الأطلسي وبحر ليبيا؛ لأن التفاؤل بهما لعب دوراً في إلهام ربّانها المستر «ديل» بالحيلة التي استطاع بعونها أن يبطل مفعول العقل المدبّر لأساطين القرصنة الطرابلسية المستر بيتر لزلي الملقّب باسم سيدي مراد في معجم أعلاج النصارى، الذين اعتنقوا ديانة أعدائهم عندما لم يجدوا ما يفعلونه لافتداء أنفسهم من الأسر. ففي الثاني من شهر يوليو من عام 1801م رست سفينة الأدميرال «ديل» هذا (على ما يروي مؤرّخو البحرية الأمريكية) في مرفأ جبل طارق في أوّل رحلة لأسطول حربي تملكه هذه الأمّة الوليدة لتلتحق بقطع الأسطول الأخرى كـ«فيلادلفيا» و«بريزيدنت» و«إسكس» ليكتمل الأسطول بوصول «انتربرايز» التي تعمّدت أن ترسو بجوار سفينة مهيبة باسم «المشهودة» ترافقها سفينة أخرى ذات صاريين اثنين. ولم يكن عسيراً على بحّارة الأسطول الأمريكي أن يكتشفوا حقيقة هاتين السفينتين الطرابلسيتين الخاضعتين لرأس القرصنة الطرابلسية، والقائم على أمرها العلج مراد شخصياً بعد استنطاقٍ عابر لعمّال المرفأ الخاضع لسلطان الإنجليز، في الوقت نفسه الذي أقبل فيه المستر جافينو قنصل الولايات الأمريكية لدى سلطات جبل طارق ليصعد

إلى مقصورة القيادة. هناك عقد جلسة طارئة مع ربابنة الأسطول لينتهي ذلك الاجتماع بضرورة تعميد خروج الأسطول الأوّل إلى رحاب البحر بأضحية مناسبة. وها هو ملك الحظوظ يسوق إلى يد الأسطول قربان التعميد كما حالف هذا الملك الولايات المتحدة منذ إنشائها فلم يبخل عليها بالأضاحي. وبرغم حماس الربابنة إلى الغنيمة وشهوتهم إلى العنف إلاّ أن مشكلة دبلوماسية واجهت المحفل: فقد أعلن القنصل جافينو بخيبة أمل أن مهاجمة سفينة معادية على أرض دولة أخرى محايدة هو بمثابة إعلان الحرب على هذه الدولة المحايدة. هنا تحدّث المستر «ديل» بحزن:

ـ ليس بوسعنا أن نستأنف حرباً مع الإنجليز لم تنتهِ إلاّ بالأمس حتّى لو كلّفنا ذلك التضحية بالقربان!

هنا تدخل المستر «ستريّت»:

ـ علينا ألاّ ننسى أن الآلهة لا تجود بقرابينها إلاّ مرّة واحدة، فإذا أضعنا الفرصة فلن نضمن أن تواتينا مرّة أخرى!

داعب القنصل شاربيه الأشيبين قبل أن يقول:

ـ وهل تستطيع أن تحتمل نشوب حرب أخرى مع إنجلترا بسبب ذلك؟

ساد وجوم لم يدم طويلاً؛ لأن شكوكاً أخرى جرت على لسان القنصل:

ـ لا تنسوا أيضاً أنّنا لم نتلقَّ حتّى الآن بلاغاً رسمياً عن حقيقة إعلان باشا طرابلس الحرب على الولايات المتحدة، كما أننا لا نستطيع أن نهاجم سفناً طرابلسية استناداً إلى شائعات!

قال «ستريّت»:

ـ لو لم يعلن الباشا الحرب علينا لما غادر كاثكارت ديار طرابلس!

قال القنصل:

ـ لسنا على يقين أيضاً من مغادرة القنصل ديار طرابلس!

بعدها ساد صمت إلى أن اقترح ديل:

ـ نستطيع أن نستفهم عن كلا الأمرين من بيتر لزلي نفسه!

تبادل القباطنة مع القنصل النظرات. قال القنصل:

ـ لماذا لا نجرّب حقّاً؟

تساءل ستريّت:

ـ وكيف نستطيع أن نجرّب إذا كنّا لا نستطيع أن نأتمن لزلي؟

داعب القنصل شاربه الأشيب قبل أن يهتدي إلى الحلّ:

ـ سنفعل ذلك بواسطة رسول!

غاب ديل لحظات قبل أن يعود بمعيّة أحد البحّارة. كان رجلاً نحيلاً غائر العينين، أشيب الشعر، معروق اليدين، موسوم الخدّ الأيمن بآثار جرح عميق. بدأ القنصل في تلقينه. لقّنه طويلاً قبل أن يأذن له بالانطلاق نحو «المشهودة» في قارب بمجدافين وهو يلهج بالدرس الذي تلقّاه من القنصل بصوت مسموع لكي لا ينسى. هناك، عند حضيض «المشهودة» نطق هذا الشبح باستفهامه الأوّل ما إن تكرّم ربّان السفينة بالظهور لمحادثته:

ـ قادة أسطول الولايات المتحدة، وكذلك قنصل الولايات

المتحدة، يريدون أن يعلموا عمّا إذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية في حالة حرب مع مملكة طرابلس!

تطلّع المستر لزلي في سيماء الرسول مليّاً، ثمّ راقب البحر أيضاً قبل أن يجيب:

ـ طرابلس أعلنت الحرب حقّاً، ولكنّها ليست في حالة حرب مع الولايات المتحدة الأمريكية!

ظلّ الرسول منتصباً برأسه إلى أعلى كأنه ينتظر من السّماء بشارة، ثمّ استفهم:

ـ كيف لي أن أنقل للسادة هذه الأحجية؟!

قال سيدي مراد:

ـ أعتقد أن السيد القنصل لن يجد عسراً في فهم الأحجية!

أنصت إليه الرسول فاغر الفم، ثمّ بلع ريقه بعسر قبل أن يضيف:

ـ المحفل خوّلني بأن أسأل سيادتكم عمّا إذا كان المستر كاثكارت قنصل الولايات الأمريكية لدى طرابلس ما يزال يمارس عمله هناك!

أجاب المستر لزلي الملقّب بسيدي مراد ببرود:

ـ ما أعلمه أن المستر كاثكارت غادر طرابلس متجهاً إلى تونس برغبته!

بعدها عاد الرسول إلى المحفل بالجوابين ليبدأ الجدل من جديد. سأل ستريّت:

ـ ما معنى أن تعلن طرابلس الحرب على الولايات الأمريكية دون أن تكون هاتان الدولتان في حالة حرب؟ أليس هذا الجواب سفسطة؟

هرع لنجدته القنصل:

ـ الوغد يريد أن يقول إن إعلان الحرب لا يعني النشاط الحربي!

عمّ سكون. قال ديل:

ـ هل يريد أن يقول إن الحرب أُعلنت ولا ينقصها إلاّ العمليات الحربية؟

أومأ القنصل برأسه إيجاباً. تمتم:

ـ لا بدّ أن تكون يوماً مّا بداية مّا!

تدخّل ستريّت:

ـ وعلى عاتقنا نحن يجب أن تقع مسؤولية صنع هذه البداية!

تساءل القنصل:

ـ هل من سبيل لاستدراج السفينتين إلى عرض البحر؟

ساد صمت. قال ستريّت:

ـ بالإمكان تدبير ذلك لو لم يكن بيترلزلي هو الربّان!

استفهم القنصل بإيماءة فأوضح الربّان:

ـ بيتر لزلي ثعلبان!

قال القنصل:

ـ أن يكون بيتر لزلي ثعلباناً لا يعني الاستسلام لليأس!

عاد الصمت يهيمن قبل أن يهبّ القنصل واقفاً. قال:

ـ أعدّوا لي قارباً عديد المجاديف!

بعد نصف ساعة كان القنصل جافينو يجلس في القارب المتعدّد المجاديف، يقوده عدد من البحّارة، ينساب عبر البحر المغمور بأشعة الغسق. متجهاً نحو السفينة الطرابلسية المهيبة «المشهودة» التي لم تكن في واقع الأمر سوى السفينة الأمريكية «بتسي» التي أسرها الطرابلسيون منذ زمن بعيد ليأسروا على متنها المستر لزلي الذي يتولّى أمرها اليوم باسم الريّس مراد، بعد أن استطاع الأسبان أن يعيدوا دهانها، ويعملوا على تزويدها، ويعدّلوا سطحها، ويعملوا على تزويدها بـ28 مدفعاً تسعة منها عيار تسعة باوندات تنتصب على السطح العلوي، وستة مدافع أخرى من عيار أربعة باوندات مثبّتة على ربع السطح، في حين تزاحمت بقية المدافع في مقدّمة السفينة. أمّا عدد الرجال على متنها فبلغ يومها المائتين والستة والأربعين بين بحّارة وضبّاط ومعاوني ضبّاط.

بلغ القنصل بقاربه حضيض السفينة فوجد الريّس مراد يطلّ عليه من أعلى كأنه كان في انتظاره. تبادلا التحية بالأيدي قبل أن يقترح القنصل:

ـ إذا كان إعلان الحرب لا يعني حالة الحرب كما تقول فلماذا لا تتفضّل بقبول دعوتنا للحوار على متن «انتربرايز» أو على متن «بريزيدنت» أو أي سفينة من سفن الأسطول؟

أفلتت من فم الريس مراد بسمة استخفاف. صاح من عليائه:

ـ إذا كانت نواياكم بريئة فلماذا تريدونني أن ألتقيكم على متون سفنكم، ولا تريدون أن نلتقي على متن «المشهودة»؟!

سكت ثم أضاف:

ـ أيعقل أن تُشترى الثقة بالشكوك؟

قال القنصل:

ـ من يخامره الشكّ وحده يرفض اليد الممدودة التي لوّحت له بالدعوة!

ـ هراء!

لفظها الريس مراد ثم أضاف:

ـ لا أدري لماذا تصرّون على اللقاء فوق متن إحدى سفنكم إذا كنّا جميعاً نقف على أرض الحياد!

ـ أرض الحياد؟!

ـ بإمكاننا أن نعقد جلستنا في إحدى حانات المرفأ!

سكت القنصل في حين بدأت العتمة تغزو الأفق. قال أخيراً:

ـ هل هذا آخر جواب؟

هتف الريّس مراد:

ـ هذا ليس آخر جواب، ولكنه أنسب جواب!

فكّر القنصل لحظات قبل أن يأمر رجاله بالإبحار عائداً إلى حيث ترابط سفن الأسطول. هناك اجتمع بالربابنة ليقول:

ـ لزلي هذا داهية بالفعل!

قال ديل:

ـ هذا يعني أن محاصرة السفينتين هو كلّ ما تبقّى لنا!

قال ستريّت:

ـ خرجنا لضرب حصار على موانىء طرابلس لا لمحاصرة سفينتين في مرافىء جبل طارق!

قال القنصل ساخراً:

ـ حقّاً إن سفينتين يقودهما رئيس الأسطول هما مرفأ طرابلس مصغّراً ومتنقّلاً!

غرق بعدها في ضحكة عصبيّة مكتومة استجاب لها شاربه الأشيب بانتفاضات عنيفة.

43

إذا كان يوسف باشا قد قام بالتوقيع على اتفاقية الهدنة مع فرنسا مغمض العينين (كما راق لأحد مؤرخي تلك المرحلة أن يعبّر) ممّا أدهش لا أفراد الحاشية فحسب، ولكن المسيو «بيون» نفسه، إلاّ أن الأمر اختلف يوم وضع المالطي «دورو» بين يديه مسوّدة معاهدة السلم الدائم إلى حدّ تجاسر فيه هذا المبعوث على التساؤل:

ـ ولكن الباشا تفضّل بالتوقيع على اتفاقية الهدنة بلا قيد أو شرط!

لحظتها لاحظ الأعوان كيف استبدّ بسيماء الباشا الشحوب فرمى بالأوراق جانباً ليقول:

ـ تلك كانت اتفاقية هدنة، أمّا هذه فمعاهدة سلم دائم. هل تدري ما معنى معاهدة سلم دائم؟

تناول منسأة مرصعة الساق بحبيبات الجوهر وهشّ بها ذباباً موهوماً قبل أن يضيف:

ـ انتظرت أن تكون معاهدة السلم الدائم نسخة طبق الأصل من معاهدة عام 1729م التاريخية كما كانت اتفاقية الهدنة نسخة طبق الأصل من الاتفاقيتين الموقعتين مع تونس والجزائر، ولكنّي اكتشفت بعد قراءتها إضافة بنود جديدة تبرهن على وجود نوايا أراها مهينة!

هتف الساعاتي المالطي بانفعال:

ـ مهينة؟ سعادة الباشا لا يتخيّل مدى الإكبار الذي يكنّه مولانا القنصل الأوّل لسيادتكم، ولولا رغبته في التأكيد على هذا الإكبار لما وسّم المعاهدة بتوقيعه شخصيّاً!

الباشا: كيف يكنّ لي بونابرت إكباراً إذا كان يريدني أن أضع توقيعي على معاهدة يتضمّن أوّل بنودها ضرورة إبداء أسفي على المخالفات التي أدّت إلى إبطال مفعول معاهدة عام 1729؟

تبادل أكزافييه نودي (دورو) مع الدغيّس نظرة فضحت قلقاً. قال:

ـ لا أظن، يا سعادة الباشا، أن بنداً كهذا يمكن أن يكون سبباً في عرقلة التوقيع على معاهدة سلم!

ابتلع ريقه بعسر قبل أن يضيف:

ـ أعني أنّنا نستطيع أن نستثني كل البنود التي لا تمسّ جوهر المعاهدة!

لوّح الباشا بمنساته في الهواء ثم تساءل باستعلاء:

- هل ترى البند الذي ينصّ على ضرورة إعلان الغرامة التي يتوجّب عليّ دفعها لفرنسا كتعويض على أحداث عام 1799م (التي لا ناقة لي فيها ولا جمل) بنداً لا يمسّ جوهر الاتفاقية أيضاً؟

تململ أكزافييه في جلسته. تمتم:

- إذا كان سعادة الباشا يرى في إعلان الغرامة جرحاً للكرامة فنستطيع أن ندرج هذا البند في ملحق المعاهدة!

سكت الباشا لحظة، ولكنه ما لبث أن اعترض:

- الإهانة هنا ليست في قيمة الغرامة، ولكن في الاعتراف بالجرم الذي استوجب الغرامة. إذْ كيف يريدني نابليون أن أعترف بذنب لم أرتكبه؟!

- الواقع أن هذا البند لا يحمّل سعادة الباشا وزر ما حدث للبعثة الفرنسية على يدي عميل الإنجليز كامبل في ذلك العام، ولكن المقصود بهذا البند دفع تعويض عن الأضرار التي ألحقها الغوغاء بممتلكات القنصلية يوم هاجموا المقرّ!

هتف الباشا:

- هذا يستدعي تعديل نصوص البند اجتناباً لسوء الفهم!

وافقه المبعوث بهزّة من رأسه. ولكن الباشا ما لبث أن تحجّج بذريعة جديدة:

- ثمّة ضرورة تحتّم إضافة مادّة أخرى!

- مادّة أخرى؟

- مادّة تنصّ على تعهّد الطرفين بعدم تدخّل أيّ منهما في النزاعات التي قد تنشأ بين دولتيهما وبين أيّ دولة ثالثة!

سكت أكزافييه طويلاً قبل أن يستنجد بالوزير الدغيّس، ولكن سيماء الوزير ارتدت قناعاً صارماً فلم يجد المبعوث مفرّاً من الاستفهام:

ـ الحقّ أني لم أفهم يا صاحب السعادة!

زأر الباشا:

ـ من حقّك ألاّ تفهم لأنّك لم ترتكب معصية تجعل الله يستنزل عليك لعنة الجلوس على هذا العرش كما فعل بي!

لوّح بمنسأته في الفراغ بعنف قبل أن يضيف وهو يرنو إلى السقف:

ـ لقد حاول نابليون في الماضي أن يتوسّط في حربنا مع السويد، وكذلك مع الولايات المتحدة، ولكن مساعيه انتهت إلى الإخفاق بسبب تعنّت هذين البلدين. وقد بلغني أنه يريد اليوم أن يجدّد هذه المساعي على حساب حقوق لا ننوي التنازل عنها! فهل ترى نفسك مخوّلاً بإضافة هذه المادّة إلى بنود الاتفاقية؟

سكت أكزافييه زمناً. قال أخيراً:

ـ نستطيع يا سعادة الباشا أن نضيف هذ المادّة إلى ملحق المعاهدة أيضاً وذلك كسباً للوقت، لأن تعديل النسخة الموقّعة من سيادة القنصل الأوّل يستدعي إعادتها إلى باريس من جديد كما تعلم!

هشّ الباشا بمنسأته النفيسة ذباباً وهمياً عن وجهه، ثم تناول قراطيس المعاهدة التي سبق وأن ألقى بها جانباً. تصفّحها غائباً قبل أن يتناول الريشة ليذيّلها بتوقيعه.

ولكن الباشا لم يطمئن. فما إن انصرف رسول فرنسا حتّى أمر بتحرير رسالة إلى جورج الثالث ملك إنجلترا يشيد فيها بعلاقات الصداقة بين البلدين، كما يعرض فيها استعداده لتزويد الحامية الإنجليزية بمالطا بحاجتها من مختلف المؤن كاللحوم والخضار والحبوب! وهي تلك الشحنات التي اعتاد الباشا أن يزوّد بها جيش نابليون أيام احتلاله لهذه الجزيرة دون أن تدرّ الأموال المدفوعة بارة واحدة على خزينة المملكة؛ لأنّها لم تكن سوى تلك الصفقات التي كان يروق للباشا أن يعقدها لتغطية نفقاته الخاصّة.

وعندما انتهى يوسف باشا من رسالته إلى ملك إنجلترا في ذلك اليوم تمتم وهو يتقدّم من النافذة ليرنو إلى البحر:

ـ لا تثق بأحد!

ردّد العبارة غائباً قبل أن يضيف:

ـ ولو لم يخالف الأبله أحمد القرمانلي هذه الوصيّة لما دفع الثمن!

ابتسم بغموض وهو يستعيد تفاصيل الملحمة الدموية المريعة التي شهدها جناح للاّ حلّومة نتيجة اعتناق حسن بك لناموس الثقة هذا فكلّفه ذلك حياته. اعترف دائماً، ولا يزال يعترف، بقسوة الخواء الذي استشعره بفقدان خصم في حجم حسن بك القرمانلي حتّى إنه تساءل مراراً كيف يستطيع الإنسان أن يهنأ بالاً بلا وجود خصوم؛ بل بلا وجود أعداء. بلى، بلى. الأعداء هم تلك الفئة من المخلوقات البشرية التي تمنحنا العزاء لكي نبقى على قيد الحياة. الإنسان يحتاج لوجود الخصم. يحتاج لوجود إبليس مجسّداً لكي يبرهن لنفسه أنه

ما يزال على قيد الحياة. يحتاج لوجود إبليس هذا حتّى لو لم يكن قدّيساً. يحتاج الإنسان لوجود الخصومة مع إبليس حتّى لو كان هو نفسه إبليساً. الإنسان لا يقنع بحقيقته كإنسان إذا لم يقف من حين لآخر في مواجهة عدوّ يوقظ فيه روح التحدّي. روح الاستنفار. روح العدوان. الإنسان يتغذّى بروح العداوة أكثر مما يتغذّى من ينابيع الحِلْم. من ينابيع التسامح. أو ينابيع السلم. ولو لم يخلق له ربّ السماوات والأرض إبليس عدوّاً لهلك من فرط الملل. لهلك من فرط الخواء.

دبّ في البلاط بقامته المضحكة كأنه لا يسعى سعياً، ولكنه يتدحرج. توقّف فجأة ليجدّف بصوتٍ مسموع:

ـ هل كان الربّ سيستمرىء وجوده لو لم يخلق لنفسه إبليساً؟

جعجع بضحكة منكرة قبل أن يتذكّر العداوة مع الأستانة فاكتأب، ربّما لأنه وجد دائماً فرقاً شاسعاً بين عداوة المخلوق وعداوة الباب العالي. فلا شِعْر، ولا وَجْد، ولا متعة في الخصومة مع محفل الأشرار القابع في بلاد الأناضول. فإذا كانت العداوة مع المخلوق تحيي الأمل فإن العداوة مع عصابة الدهاة تلك توقظ اليأس وتسبب داء السويداء أيضاً. فهل يحدث ذلك ليقينه بأنهم أرباب اللؤم، أم لمجرّد أنّهم أرباب؟ بلى، بلى. إذا كانت العداوة مع حسن بك أو أحمد بك عداوة مع إبليس فإن العداوة مع الباب العالي عداوة مع الربّ! وإذا خلق لنا الخالق المخلوق لنجري عليه انتقامنا، فإن الخالق لم يُخلق إلاّ لينتقم منّا، لا لننتقم منه. حسن بك، أو أحمد

بك، شيطانان خُلقا لينالا انتقامه، وقد نالاه فعلاً، أمّا الباب العالي فلا سبيل للانتقام منه؛ لأنه لم يُخلق لينال انتقامه، ولكنه خُلق لينال انتقام الباب العالي. لأن الإنسان الذي اعتاد أن يشتري سعادته بالقرابين لا بدّ أن يشهد يوماً ينقلب فيه قرباناً لشراء سعادة الآخرين. بل لشراء سعادة الرّب. بلى، بلى. الكلّ في هذه الدنيا خراف في قطيع ينتظر ساعة يجري النصل على النحر استجابةً لنداء الربّ. الكلّ قربان مؤجّل!

44

في الوقت الذي كانت فيه البارجة الحربية المهيبة «فيلادلفيا» تنضمّ إلى قطع الأسطول المجنّدة لتشديد الحصار على الريّس مراد في مضيق جبل طارق، كانت «انتربرايز» بقيادة «ستريّت» تدرك شطآن بحر ليبيا لتنضمّ إلى قطع أسطول دولة السويد لتضرب، بدعم من قطع هذا الأسطول، حصاراً آخر على مرافىء طرابلس وهي ترفع رايةً إنجليزية من باب التمويه تنفيذاً لتعليمات جفرسون شخصياً (الرئيس الأسطوري للولايات المتحدة آنذاك) الذي أباح لربابنة أساطيله البحرية اللجوء إلى الخداع، دون أن ينسى تحريم مثل هذه الحِيَل عند نشوب العمليات الحربية. وقد حالف الحظّ ربّان «انتربرايز» في ذلك اليوم بفضل الاحتماء براية الإنجليز عندما التقى سفينة طرابلسية فسأل عن وجهتها فأجابه أحد البحّارة: «خرجنا بحثاً عن السفن الأمريكية، ولكن لسوء الحظّ لم نعثر على بغيتنا!»، فما كان منه إلاّ أن أمر باستبدال الراية الإنجليزية بالراية الأمريكية ليقول:

«إذا كان الحظّ قد خالفكم، فإن الحظّ قد حالفنا!» ليدعم عبارة سخريته هذه بفعل عملي هو إطلاق النار!

تبادلت السفينتان إطلاق النار طويلاً. ولمّا كانت الهزيمة في الحروب دائماً من نصيب ذلك الطرف الذي انطلت الحيل عليه، فمن الطبيعي أن يكون النصر في هذه الحال من نصيب الطرف الآخر الذي ابتسم له الحظّ!

في ذلك اليوم استسلم الريّس محمّد روس ربّان السفينة الطرابلسية «تريبولي» بعد أن فقد جلّ رجاله، وتحطّمت سارية سفينته، وأُصيبت مقدّمتها وجزءاً من سطحها العلوي. استسلم بشجاعة الرجل الذي دفع نزاهته ثمناً لخسارته دون إحساس بالندم. ويقال إنه رفض التنازل عن مبادئه هذه حتّى عندما مَثُل في ديوان الباشا للمساءلة.

كان الباشا يومها يتسقّط أنباء الريّس مراد المعتقل عند صخرة جبل طارق باحثاً عن حيلة لفكّ هذا الحصار عندما أضيفت نكبة الريّس محمد لنكبة الريس مراد. لم يجرؤ أحد لا من الوزراء، ولا من الضباط، ولا من الأعوان، ولا من أعضاء الديوان، ولا من أفراد الحاشية، ولا من الخدم، أن يتجاسر فيخبر الباشا بحقيقة ما حدث. ولكن الريّس محمّد المغسول بدماء الجراح لقّن الجميع درساً في ذلك اليوم عندما تقدّم بنفسه ليكون أول من يلقي الخبر في أذن الباشا. ويُروى أن يوسف باشا حدّق فيه طويلاً قبل أن يقول:

ـ إذا كان ما تقوله صحيحاً فما لي أراك تمثل أمامي ولا أراك جثّةً هامدةً على رمال الشاطىء كبقيّة رجالك الأبطال؟

قال الريّس روس وهو يحاول أن يخفي يديه المغمورتين بالدّم:

ـ لا أدري يا مولاي! ربّما لأن الأقدار اختارتني أنا لا غيري لكي أموت مرّتين!

زمجر الباشا:

ـ لم يكفك أن تدفن جندياً في قيعان البحر ثم تمثل أمامي كي تحدّثني بالأحاجي؟!

أجاب الريّس روس:

ـ أردت أن أقول يا مولاي إن جندك ماتوا مرّة ميتة الأبطال، ولهذا فهم لم يموتوا. أمّا عبدك الذي يمثل بين يديك فقد مات مرّتين: مرّة لأنه مُني بالهزيمة، ومرّة أخرى لأنه بقي على قيد الحياة برغم الهزيمة!

زأر الباشا:

ـ وهل تظنّ أن حياء صاحب الهزيمة من بقائه على قيد الحياة يستطيع أن يعفيه من الميتة الثالثة؟

قال روس برأس مرفوع إلى أعلى:

ـ باعترافي بالهزيمة بين يدي مولاي تكمن ميتتي الثالثة!

تأمّله الباشا شاحباً. لاحظ الريّس روس برغم ميتاته الثلاث كيف انتفضت يد الباشا في رعشة عنيفة قبل أن يقول:

ـ ولكن ميتاتك الثلاث لن تشفع لك في الميتة الرابعة!

تمتم الريّس:

ـ مَن واتته الشجاعة ليموت ثلاث مرّات، يا مولاي، لن يعجزه أن يحتمل الميتة الرابعة أيضاً!

تطلّع إليه الباشا طويلاً: في عينيه اقتنص الريّس روس وجعاً لم يرَه فيهما يوماً، ولم يختفِ إيماء ذلك الوجع إلاّ لحظة تحلّبت مقلتاه بالبلل. فهل يُعقل أن يبكي يوسف باشا القرمانلي؟ بلى. يوسف باشا يبكي وهو، الريّس محمد روس، كان السبب. أو ليست هذه ميتة رابعة قبل أن تأتي الميتة الرابعة؟ أو ليست هذه ميتة رابعة قبل أن يكون القصاص ميتة خامسة؟

قال الباشا بصوت تخنقه الغصّة:

ـ هل يكفي الاعتراف لشراء حيوات الجند الذين رحلوا؟

الريّس روس: ميتاتي يا مولاي لا تكفي، فكيف يكفي الاعتراف؟

الباشا: هل تستطيع أن تصدقني القول بحقيقة ما حدث؟

الريّس روس: لقد استغلّوا براءتنا!

الباشا: ما معنى استغلال البراءة؟

الريّس روس: سألونا عن وجهتنا وهم يرفعون راية الإنجليز فأصدقناهم القول!

الباشا: ما معنى الصدق في القول؟

الريّس: قلنا لهم إننا خرجنا بحثاً عن صيد أمريكي!

عاد الشحوب يغزو سيماء الباشا. سأل:

ـ هل أنت في نزهة بحرية، أم في غزوة حربية حتى تصْدُق القول كل من اعترضك؟

ـ لم أحسب أن الصدق رذيلة في البحر بقدر كون الصدق فضيلة في البرّ يا مولاي!

سدّد إليه الباشا نظرة غريبة قبل أن يقول بصوت مكتوم:

- الصدق ليس رذيلة في البحر وحده، ولكنه رذيلة في البرّ أيضاً أيها الأبله!

ثم مدّ يده ليقرع الجرس. استجاب الحاجب لرنين الجرس في وقتٍ كان فيه الريّس روس يغالب طوراً جديداً من أطوار الغيبوبة التي غالبها طوال نزيفه الطويل. أقبل العسس تلبيةً لنداء الحاجب. تخيّل أن الباشا أومأ للجمع بإشارة خفيّة فتناهبوه. جرجروه خارجاً ليشدّوه بالحبال على ظهر أتان. وجّهوا رأسه نحو مؤخرة تلك البهيمة المنكرة. طوّقوا عنقه بلفافات سخيّة من مصارين كريهة الرائحة قبل أن يبدأوا في الطواف به عبر شوارع المدينة حيث تلقّى على وجهه قذائف القاذورات وأوساخ القمامة من أيدي الرعاع. كان الريّس روس يتمتم كلّما صحا من الغيبوبة بعبارة كأنها تميمة: «ما ضرّ الشاة سلخها بعد ذبحها؟». لم يتوقّف عن ترديد هذه التميمة حتّى عندما انتقلوا من صنوف التعذيب المعنوي إلى صنوف التعذيب الجسدي: قرعوا قدميه الداميتين بالفلقة، ثم ثنّوا فلهبوا بدنه الهزيل المثخن بالجراح بخمسمائة جلدة!

45

درنة. يونيو. 1801م.

لم يسبق أن استولت على بك درنة الرغبة الجنونية في أن ينقلب طيراً إلاّ في ذلك اليوم الذي تلقّى فيه من الباشا تلك الرسالة الغامضة (بل والمشفّرة في حقيقة الأمر) التي تقول: «يوم تلوح في الأفق

رايات الفرنسيس نأمركم أن تفعلوا لاستقبالهم كلّ ما يقتضيه الواجب!».

فما معنى أن يستقبل الفرنسيس بما يقتضيه الواجب؟ ما يعلمه أن الواجب يقتضي محاربة العدوّ بكلّ وسيلة، وحتّى إذا انعدمت الوسيلة فالعرف يجيز في هذه الحال اللجوء إلى الحيلة. ولكن ما يعلمه أيضاً أن الباشا وقّع مع الفرنسيس هدنة. الرسول الذي أقبل عليه برسالة الباشا أكّد التوصل إلى الصلح مع فرنسا بعد أن ظلّ هذا الصلح مجرّد شائعة تتردّد على الألسن زمناً طويلاً. فكيف ينقض الباشا صلحاً وقعه مع الفرنسيس بالأمس ليأمره اليوم بمحاربة الفرنسيس ما إن تلوح راياتهم في الأفق؟ هل يقتضي الواجب استقبال الفرنسيس بباقات الورود بوصفهم أصدقاء، أم الواجب يقتضي استقبالهم بالنيران من فوهات البنادق بوصفهم أعداء؟ وحتّى لو تمّ التوقيع على معاهدة صلح فلن يُعقل أن يتنازل الباشا عن ناموس السيادة بين يوم وليلة فيسمح لعدوّ الأمس باتخاذ أرضه قنطرة عبور إلى أرض الجوار لدعم قوّات الغزو التي تستعبد إخوته في أرض الجوار كما تردّد كل الشائعات. في الوقت نفسه لا يعقل أيضاً أن يأمره الباشا بمحاربة الفرنسيس اليوم قبل أن يجفّ المداد على قراطيس معاهدة الصلح التي وقّعها معهم بالأمس. وها هي الرايات التي تحدّث عنها الباشا في خطابه تحجب أفق البحر، وها هو يقف في شرفة القصر لمشاهدتها مكتوف اليدين لسببين؛ أوّلهما: لأنه لم يؤتَ مواهب العرّافين فَيَفُكّ مثل هذه الطلسمات. وثانيهما: لأنه لم يؤتَ قدرات السحرة فيستعير من المجهول أجنحة الطير ليمثل بين

يدي الباشا ليستفهم عن حقيقة الأحجية. أم إن الباشا تعمّد أن يتزامن وصول خطاب اللغز هذا مع وصول قوّات الفرنسيس ليفوّت عليه فرصة الاستفهام؟ ألا يعني هذا أن الباشا بيّت نيّة أدهى عند تحرير الخطاب ألا وهي الغموض؟ ألا يعني هذا أن الداهية يتخابث ليترك له حريّة الاختيار حتى إذا اقترف في التفسير خطأً حمّله وزر الخطأ بلا شفقة أو رحمة؟ ألا يعني هذا وجود نيّة لئيمة في نفس هذا البعبع لتقديمه ككبش فداء كما فعل مع بكوات كثيرين ما دام تقديم الأضحية يكفل له النجاة بجلده هو؟

في الأفق البعيد، في عرض البحر الهادىء، تبدّت رايات سفن أخرى. تناول بك درنة الماسورة السحرية (كما راق له أن يسمّي الجهاز المكبّر ذاك) وثبّته على عينيه. راقب قطع الأسطول وهي تحتشد وتتزاحم في زحفها نحو الساحل من عدستي جهازه السحري. تخلّى عن الجهاز ورنا إلى امتداد البحر بعينين مجرّدتين. في امتداد المدى المائي تبدّت قطع الأسطول محاكاة مضحكة لسفنٍ حقيقية تطفح على سطح اليمّ الساكن سكون بحيرة راكدة.

دبّ البك فوق سطح القصر ذهاباً وإيّاباً بقامته البدينة وشاربه السخيّ الذي يلتفّ حول شفتيه بكثافة ليصنع حول الشفتين طوقاً شبيهاً بالعش.

كان في سعيه يحاول أن يحسم قراره عمّا إذا كان من الصواب أن يستنجد بمحفل الأعيان طلباً للمشورة. ولكن يقينه بأن هؤلاء الخصوم المتنكّرين في جلود الأكابر سوف يشمتون به بدل أن ينجدوه دفعه لاستبعاد الفكرة. أم إن الاحتكام إلى ضبّاط الحامية

أجدى؟ ولكن الضبّاط سوف يسخرون منه في قرارة أنفسهم لأنّهم إنما ينتظرون منه هو الرأي في موقف كهذا بدل أن ينتظره هو منهم، لأن العرف يقول إن مَن نصّبته الأقدار ليتولّى أمر الناس وحده المخوّل بتدبير الرأي الأخير حتّى لو كان هذا المخلوق بغلاً في جلد إنسان، فكيف إذا تقلّد منصباً مهيباً كبكوية درنة؟ هذا يعني أن عليه وحده أن يفكّ طلسم الأحجية القرمانلية، كما على عاتقه وحده يقع عبء اتخاذ القرار المستنتج من تأويل اللغز. فالأنباء الآتية من الإسكندرية تتحدّث عن عسر موقف جيش نابليون في مصر، بل ويذهب البعض إلى التحدّث عن سكرات الموت التي يعانيها هذا الجيش بعد انسحابه إلى القاهرة أمام زحف قوّات ضيا باشا المدعوم من جيش حلفائه الإنجليز، وما الأسطول الفرنسي المحمّل بالجند الذي يسدّ الآفاق الآن إلاّ محاولة يائسة من بونابرت لتمديد أجل الموت لا لإنقاذ الجيش من لفظ الأنفاس. فهل يخون الدهاء الداهية يوسف باشا فيقدم على مدّ يد العون لجيش مهزوم مجازفاً بصيته أمام شعبه، وبمصيره أمام الأستانة؟ هذا يعني أن السماح لجيش الفرنسيس بالنزول في درنة، ثمّ العبور إلى مصر عبر أراضي المملكة، ما هو إلاّ خيانة، بل خيانات: خيانة للضمير أوّلاً، وخيانة لليبيين ثانياً، وخيانة للأخوة في مصر ثالثاً، وخيانة لربّ السماوات والأرض الذي حرّم العدوان رابعاً! فبأي حقّ يرتكب كل هذه الخيانات دون مقابل؟ بأي حقّ يستطيع أن يقترف هذه الآثام حتّى لو شاء له يوسف باشا القرمانلي أن يرتكب؟

عاد يتطلّع إلى البحر. في الأفق اقتربت بعض القطع إلى حدّ

استطاع فيه أن يتبيّن ألوان الرايات المشيّعة على الصواري بالعين المجرّدة. في البعد تراءت قطع جديدة لم يرها من قبل. عاد يحتكم إلى جهاز الرؤية. لم يجد عسراً في مشاهدة رايات الفرنسيس التي ترفرف باسترخاء على الصواري. أزاح الماسورة جانباً ثم عاد يحدّق في العدسة. كانت بعض الأعلام فرنسية، ولكن على الصواري رفرفت رايات أخرى. رايات عثمانية. رايات عثمانية حقيقية! فما معنى هذا؟ هل يتعمّد الفرنسيس رفع الأعلام العثمانية من باب التمويه أم باب المجاملة؟ إذا كانوا يفعلون ذلك مجاملةً فلماذا لا يرفعون أعلام المملكة الطرابلسية كما تقضي الأعراف؟ ألا يؤكّد هذا سوء النيّة؟ ألا يلجأ هؤلاء الخبثاء لهذه الحيلة كي يذرّوا الرماد في عيون الأهالي ليوهموهم أنهم أصدقاء الباب العالي (هذا الباب العالي الذي يحاربونه في مصر اليوم كما حاربوه في فلسطين بالأمس)؟

عاد يراقب زحف الأسطول من فوهة العدسة. بوسعه الآن أن يرى الوسم على كل سفينة: le'Formidable, le'indivisible, le jean-Bart, le Dix-Aout, le Desaix, le' indomptable, la Bravoure, la Creole, la Constitution, le Heliopolis وبوارج حربية أخرى لم يفلح في تبيّن أسماءها.

في الخلف ظهرت ناقلات جنود أخرى. كان البحر كلّه مزروعاً بالسفن والبوارج الحربية كأنّ بونابرت يريد أن يغزو بهذا الجيش الأستانة نفسها لا لمدّ الدعم لجيشه المحاصر في مصر.

بعد قليل لاحظ البك كيف بدأت البوارج في إنزال القوارب إلى البحر. قوارب بلا حساب بدأت تنتشر لتطفح على المياه. بعد إنزال

القوارب بدأ إنزال الجنود ليأخذوا أماكنهم في بطون هذه القوارب. من زحام هذه القوارب شاهد كيف انفصل قاربان يرفعان أعلاماً بيضاء ليزحفا نحو المرفأ. اقترب القاربان مسافة أخرى مكّنته من رؤية الجنود بوضوح شديد: في أحدهما أبصر ثلاثة جنود، وفي القارب الثاني قبع جنديان فقط. ولكن الجنود الخمسة كلّهم كانوا يلوّحون في الهواء بالرايات البيضاء في وقتٍ بدأ فيه الأهالي بالتجمّع على طول الشريط الساحلي: كانت الأفواج الأولى لا تعدو أن تكون زحام الفضوليين الظامئين دوماً إلى كلّ حدث جديد، ولكن زمر العقلاء ما لبثت أن تقاطرت على المرفأ أيضاً. لم تمرّ ساعة أو تزيد حتّى انضمّت قوافل إلى الجمهرة: قوافل فرسان تمتطي الجياد وتلوّح في الفضاء بأنصال السيوف كأنّهم لم يقبلوا إلاّ استجابة لنداء قديم قدم الصراع بين الشمال والجنوب، يسمّيه أهل الشمال واجباً ويسمّيه أهل الجنوب جهاداً. كانت حناجر الخلق تتمزّق بالهتافات المعادية عندما بلغ أحد القاربين الساحل ليسلّم إلى جند المرسا رسالة الغزاة في حين توقّف القارب الآخر بعيداً.

عاد القاربان على عقبيهما تتعقّبهما هتافات الدهماء وصيحات الفرسان. بل بلغ الحماس ببعض المتهوّرين فلاحقوا القاربين ببعض العيارات النارية، فتشجّع الغوغاء فرجموهما بوابل من الحجارة أيضاً.

راقب البك من حصنه كل هذه البلبلة فلم يصدّق أن الأقدار اختارته هو دون سواه بلعنة مباغتة لم تستغرق حتّى الساعة. أقبل عليه أحد ضبّاطه بالقرطاس فأومأ له أن يقرأ دون أن ينبس ودون أن

يكفّ عن ملاحقة القوارب التي تتوالد في الأفق وتتزاحم بالجنود من ماسورة منظاره المكبّر.

تساءل وهو يجاهد لإخفاء فزع لم يعرفه يوماً:

ـ إذا كان المكتوب برطانة النصارى ففتّش عن ترجمان!

وبدل أن يسمع جواباً سمع خطاباً ناطقاً بلغة عربية لم يسمع بمثلها حتّى من أفواه دهاة اللغة الأدعياء:

ـ الأميرال «جانتوم» القائد الأعلى لجيش الحملة الفرنسية على المشرق يحيي سعادة بك درنة المبجّل باسم بونابرت الأكبر وباسمه الشخصي وباسم الجنرال مايير قائد الإنزال، وكذلك باسم بقية الجنرالات. أحيطك علماً بأني رسول لم يأتِ ليقيم في منتصف الطريق ليكون ضيفاً ثقيلاً على أرضك، ولكني لا أنوي أن تطأ قدمي هذه الأرض إلاّ لأعبرها في سبيلي نحو الشرق لقطع شريان عدوّ لنا مشترك هو الإنجليز. فإن أذنتم لي بالمرور كسبتم الصديق الذي لن يخذلكم، وإن كابرتم كسبتم عدوّاً طليعته في سواحلكم وذيله في شواطىء مرسيليا. والسلام. إمضاء: الأميرال جانتوم».

استمع البك شاحباً. ثم لاذ بالصمت طويلاً. في النهاية التفت إلى كبير ضبّاطه ليعلن:

ـ إذا كُتب علينا أن نموت فالأوْلَى أن نموت رجالاً! ولكنّهم لن ينزلوا، ولن يعبروا ونحن أحياء!

سكت لحظة ثم أضاف:

ـ وزّعوا السلاح على كل رجل قادر على حمل السلاح!

ثم نزل علياء الحصن الذي لم يُكتب له أن يعتليه بعد ذلك اليوم إلى الأبد، لا لأنه استشهد في تلك الحرب، ولكن لأن ناموس السلطان شاء أن يقدّمه أضحية على مذبح الدسيسة لا لشيء إلاّ لأنه قام بأداء الواجب وكسب الحرب!

46

استمرّ أهالي درنة يلاحقون القاربين بالطلقات النارية حتى أدركا سفن الأسطول. هناك تساءل الجنرال مايير وهو يدسّ عينيه في عدسة منظاره:

ـ ما معنى هذا؟

ولكن الأميرال جانتوم لم يجبه. ظلّ يذرع سطح البارجة ذهاباً وإياباً عاقداً يديه وراء ظهره. قال أخيراً:

ـ كنت أعلم أن النجاح لن يُكتب لهذه المغامرة!

كان الجنود ينهمكون في إنزال القوارب من البوارج الحربية، وكلّما طفح على المياه زورق تدافعوا إلى جوفه. تطلّع الأميرال إلى هذه القيامة ثم تمتم بالإنجليزية:

ـ عفنٌ مّا في المملكة الدانماركية!

استفهم مايير:

ـ ماذا؟

ولكن الأميرال اكتفى ببرطمة:

ـ لا شيء!

وعندما لاحظ الدهشة في سيماء مرؤوسه أضاف ببرود:

ـ هاملت!

تابعه مايير بدهشة فأوضح الأميرال:

ـ أشتمّ رائحة مكيدة أخرى كما في كلّ مرّة!

عاد الجنرال يرقب الشاطىء من منظاره. قال:

ـ ولكن استعصاء الإنزال في موانىء الإسكندرية لا نستطيع أن نسمّيه مكيدة!

ـ سوء الحظّ أيضاً مكيدة!

دبّ قليلاً قبل أن يتفلسف:

ـ إذا كانت المكيدة قَدرٌ مدبّر بيد البشر، فإن سوء الحظّ مكيدة مدبّرة بيد القدر!

ابتسم الجنرال مايير. تمتم لنفسه:

ـ أكاد أجزم بأن الجنرال ساهوجي على حقّ!

استفهم جانتوم:

ـ ماذا؟

أجاب الجنرال محاكياً طريقة الأميرال:

ـ لا شيء!

ولكن الأميرال ما لبث أن استنكر:

ـ الجنرال ساهوجي أسوأ من ركب البحر!

اقتربت طلائع الزوارق من اليابسة وهي ترفع الأعلام العثمانية

والرايات البيضاء، كما أمر جانتوم، فعَلاَ الهرج واشتدّ إطلاق العيارات النارية. توقّفت الزوارق في منتصف الطريق في انتظار الأوامر. لحظتها لوّح الأميرال بيده عالياً في إشارة للانسحاب.

استنكر الجنرال مايير:

ـ ماذا تفعل؟

أجاب الأميرال ببرود:

ـ أفعل ما يجب أن أفعل!

أزاح الجنرال المنظار جانباً كأنه يتخلّص من قناع. هتف:

ـ ألا تدري أن الانسحاب من إنزال درنة يعني فشل عملية أنفقنا في إعدادها ثمانية عشر شهراً؟

أجاب الأميرال وهو يدبّ على سطح البارجة ذهاباً وإياباً:

ـ أن تفشل عملية أنفقنا في إعدادها ثمانية عشر شهراً أهون من أن نبدأ حرباً جديدة مع شعب جديد قبل أن ننتهي من الحرب الأولى!

تطلّع إليه الجنرال بدهشة. حاجج:

ـ ولكن فشل إنزال درنة يعني خسارة الحرب الأولى التي تتحدّث عنها!

قال الأميرال بلا مبالاة:

ـ أن نخسر حرباً أهون من أن نخسر حربين!

تابع الجنرال دبيبه لحظات. تساءل أخيراً:

ـ هل تدري ماذا قال الجنرال ساهوجي يوم استلمتُ منه قيادة القوّات البريّة؟

أجاب الأميرال ببرود:

- أعرف رأي الجنرال ساهوجي..

قال الجنرال:

- قال إننا لن نكسب حرباً بحرية مع الإنجليز ما ظلّ جانتوم أميرالاً في البحر، وعندما سألته عن السبب أجابني قائلاً: «لأنّه من المستحيل أن يحرز النصر ذلك الإنسان الذي لا يؤمن بشيء!».

استنكر الأميرال بسؤال ساخر:

- لا يؤمن بشيء؟!

أضاف الجنرال مايير:

- قال أيضاً إن الإنسان الذي لا يؤمن بشيء لا يصلح لرعي حتّى قطيع الخنازير!

أطلق الأميرال ضحكة ثم لاذ بالصمت.

47

في أحد أيام الخريف من عام 1801م خرج نودي أكزافييه (دورو) من مقرّ القنصلية ليمشي عبر الشارع المؤدّي إلى ساحة الرخام. هناك، قبالة قوس ماركوس أوريليوس العتيد، توقّف ليشتري من أحد الباعة فطيرة طازجة كما كان يفعل في السنوات التي امتهن فيها اقتناص نبض الزمن في حارة المالطية. كانت أجرام الآلهة المرمرية بقاماتها الماردة تطوّق القوس من جهة الغرب بحزامٍ من التمائم المجسّدة في أنصاب آلهةٍ رومانية منحوتة من صلد المرمر مضت

تتطلّع إليه بأحداقٍ خاوية كأنّها تسخر من هوسه بمعبوده الزمن. على بعد خطوات من جهة الشمال تعالى جدار السور الذي يعزل المدينة عن معشوقها البحر. عَبَر نحو باب البحر وهو يقضم من فطيرته مستعيداً أعوام المنفى في مرسيليا عندما افتتح من جديد حانوت إصلاح الساعات لا ليكسب قوتٍ كفته وزارة الخارجية شرّه، ولكن لينصب الأفخاخ للزمن الضائع علّه يستعيد بهذه الحيلة العلاقة المفقودة مع المدينة التي أحبّها كما لم يحبّ مسقط رأسه في مالطا. بلى! أحبّ طرابلس بقدر ما كَرِهَ فاليتا. كان على يقين أن هذه الصخرة التي نبتت من بحر ليبيا نبوت العشب الضارّ سوف يستعيدها البحر في أحد الأيام. وسواس غرق هذه البقعة تحوّل هاجساً، ثمّ كابوساً دفعه للبحث عن سبيل للفرار من الجزيرة. لا يعرف حتّى اليوم لماذا رأى في بروز اليابسة هذا شذوذاً عن الطبيعة، بل خطيئة من خطايا الطبيعة التي يتوجّب دفع ثمنها إن لم يكن عاجلاً فآجلاً، إلى أن جاء اليوم الذي قرأ فيه عن الجزر الكثيرة التي اختفت في الماضي من بحر ليبيا بسبب الزلازل الأرضية والكوارث الطبيعية؛ فأيقن أن دور جزيرته الشقيّة قدر سوف يأتي حتماً، ولا خلاص له من الغرق إلاّ إذا استنجد بيابسة حقيقية لا يابسة وهميّة كمالطا. وهو لا يستطيع أن ينسى حواره مع القنصل بوسييه على متن فرقيطة عميل الإنجليز كامبل يوم انتزعهما هذا الوغد من معشوقتهما انتزاعاً ليفرّ بهما إلى مالطا. يومها حدّثه المسيو بوسييه قائلاً إن عليه أن يفرح من دون بقيّة أفراد القنصلية جميعاً لأنه الوحيد الذي اختطفه الأعداء ليحسنوا له لا ليسيئوا. وعندما استفهم عن معنى هذه العبارة بإيماءة أضاف بوسييه قائلاً: «لأنّك الوحيد الذي اختطفه الإنجليز من المنفى

ليعيدوه إلى ربوع الوطن!». ثم ابتسم بخبث قبل أن يجيبه هو بالقول: «أنت تعلم أن مالطا هي منفاي، وطرابلس هي وطني!». حدجه بوسييه خلسة قبل أن يقول: «لا يحسن بك أن تقول هذا على ظهر سفينة الأعداء، لأنّهم إن سمعوك فسوف يضيفون إلى قائمة التّهم الموجّهة إليك تهمة العقوق!». تطلّع إلى رئيسه يومها طويلاً قبل أن يستفهم: «هل قلت العقوق؟» فما كان من بوسييه إلاّ أن أجاب: «بالطبع! إنكار الأوطان في أعراف كل الأمم ليس عقوقاً فحسب، ولكنه ضلال أيضاً!».

اصطاد إيماءاً غامضاً في مقلة الرجل فتطلّع إلى البحر ليقول: «ولكن الإنجليز لن يقتصّوا منّي لإنكاري لمالطا لأن مالطا ليست وطناً!». حدجه بوسييه بدهشة فأضاف: «اعترف بأني كرهت مالطا لا بسبب البحر، ولكنّي كرهت هذه الصخرة بقدر ما أحببت حميمها البحر. لا أعرف لماذا رأيت في البحر وطناً ورأيت في هذه الصخرة منفىً! ربّما لأن البحر الذي يطوّق الجزيرة يبدو يابسة في حين تبدو الجزيرة إلى جواره تيهاً! كلاّ! كلاّ! لن يجبرني الإنجليز على البقاء في مالطا إلاّ إذا كتموا أنفاسي!». لاذ بوسييه بالصمت لحظات ثمّ قال: «قيل لي إنّهم ينوون أن يلقوا بنا على شواطىء مرسيليا..». قال يومها وهو ما يزال يتطلّع إلى البحر: «لن أبقى في مرسيليا أيضاً!». ابتسم مسيو بوسييه فأضاف: «لن أحيا إلاّ في ربوع طرابلس، ولن أموت إلاّ في ربوع طرابلس!». ثمّ التفت إلى رفيق المعتقل ليضيف: «أنت أيضاً تحلم بالحياة في ربوع طرابلس، والموت في ربوع طرابلس!».

مضى بوسييه يبتسم بغموض مداعباً عكّازه المتوّج برأس صقر مسبوك من معدن الفضّة. لاذ بالصمت يومها، ولم يكشف عن حقيقة علاقته بهذه المدينة إلاّ في اليوم الذي تلقّى فيه أمر تاليران بأن ينوب عنه هو (الترجمان المالطي كما نعته وزير الشؤون الخارجية في قراره) لمفاوضة القرمانلي بشأن الهدنة. خرج يومها عن طوره فاستنزل على رأس تاليران شتائم بذيئة. لم تقنعه مبرّرات الوزير القاضية باستبداله بالترجمان في هذه المفاوضات مراعاةً لظروف استوجبتها السريّة. أمّا في اليوم الذي علم فيه بتكليف «بيون» ليلعب دور الممهّد للمباحثات فلم يكتفِ باستنزال اللعنات على رأس تاليران وحده، ولكن ثورته تطاولت على نابليون نفسه. ثمّ اعترف له في مرّة أخرى قائلاً: «نغترب في أبعد الأوطان لكي نعلي شأن الأوطان، فتنكرنا أوطاننا لنجد أوطاناً في أوطان الأغراب!».

كانا يتجادلان يومها حول خطّة إعادة فرنسا إلى ديار طرابلس وهما يدركان في قرارة نفسيهما أنّهما إنّما يدرسان خطّة عودتهما إلى ديار طرابلس لا عودة فرنسا إلى رحاب طرابلس. قال بوسييه في يومٍ تسكّعا فيه في شوارع المدينة: «كنت على يقين أن عدوى طرابلس قد نالتك أيضاً، ولكنّي لم أفاتحك إكباراً لاستكبارك!». في ذلك اليوم تحدّث بوسييه لأوّل مرّة عن سحر ذلك الوطن الذي حيّر كلّ أئمة الحكمة في العالم القديم. بدأ بسيرة أوليس الذي نسي وطنه ما أن ذاق طعم فاكهتها الأسطورية فمكث بها أطول أمد مكثه في رحلة اغترابه الخرافية. ثمّ عرّج على سيرة «أناي» في ملحمة فرجيل فرأى أن أحضان ديدونا التي أنست البطل نفسه ليست أحضان امرأة،

ولكنّها أحضان هذه الأرض. ثمّ روى كيف كان أساطين الحكمة في العالم القديم (بدايةً بصولون وثاليس ونهايةً بأرسطو مروراً بسقراط وأفلاطون) يرون في الحجّ إلى هذه الأرض واجباً مقدّساً لا لشيء إلاّ ليقينٍ ورثوه عن أسلافهم يقول إنها الوطن الوحيد المسكون بروح التكوين؛ أمّا الفاكهة التي التقمها أوليس من أرضها فلن تكون إلاّ فاكهة الفردوس التي تتحدّث عنها أسفار العهد القديم!

أنصت لرواية بوسييه وهو ينسج سيرة تلك الأرض المنسيّة، المهجورة، المغتربة، التي لا يرى فيها سادة هذه الدنيا سوى الوكر الموحش الذي تعشعش فيه القراصنة، ليدرك أن بوسييه، بهذا الاعتراف المفاجىء، لم يَرْمِ بقفّاز التحدّي في وجهه، كما يحتّم ناموس العشّاق إذا استهوتهم معشوقة مشتركة، ليكون ذلك سبباً في عداوة؛ ولكنه تحدّث كأنه يؤكّد أن اشتراكهما في عشق هذه المعشوقة هو السرّ الخفيّ الذي جعل منهما قرينين حميمين بدل أن يخلق منهما غريمين لدودين!

48

تلقّى الباشا نبأ الاستقبال المعادي الذي تصدّى به أهالي درنة لقوّات «جانتوم» متزامناً مع نبأ استسلام جيش الجنرال «مينو» المحاصر في القاهرة، وتوقيع اتفاقية السلم بين الأستانة وإنجلترا من جانب وفرنسا من الجانب الآخر، فما كان منه إلاّ أن أمر باستدعاء القائم بأعمال القنصلية الفرنسية في طرابلس على عجل. في القصر وجد أكزافييه الوزير الدغيّس في انتظاره ليرافقه إلى الديوان للمثول

بين يدي الباشا. هناك، في الديوان، وجد القائم بالأعمال الفرنسي الباشا وقد استنزل على وجهه قناعاً من الكآبة. ثمّ ما لبث أن أعلن من جوف عرشه:

ـ لا يكفي الأسف للتعبير عمّا حدث في درنة..

صمت لحظات وهو يحدّق في الفراغ ثم أضاف:

ـ وكان بإمكان هذا الأسف أن يتضاعف ليتحوّل أسىً لو لم يكن الفرنسيون هم من تسبّب فيما حدث...

تطلّع إليه المسيو أكزافييه بذهول قبل أن يتمتم بلهجة استنكار:

ـ الفرنسيون؟!

هيمن سكون زمناً. كان الباشا يغرق في جوف العرش فيغيّب جسده، يرنو إلى النافذة المفتوحة على البحر حيث يستطيع أن يلحظ بالعين المجرّدة السفن الأمريكية والسويدية التي تطفو في البُعْد مواصلة حصارها على موانىء طرابلس. حدج أكزافييه ببرود قبل أن يقول:

ـ بلى! ما حدث في درنة كارثة وعلى أصدقائنا الفرنسيين أن يتحمّلوا مسؤوليّتها بشجاعة كما تحمّلوا مسؤولية رفع رايات الاستسلام في القاهرة!

تمتم أكزافييه:

ـ الحقّ أنّي لا أستطيع أن أفهم حتّى الآن لماذا يريد سعادة الباشا أن يحمّل الفرنسيين مسؤولية فشل الأسطول في إنزال القوّات في ميناء درنة!

هبّ الباشا من مقعده المهيب. دبّ في البلاط عاقداً يديه وراء ظهره. قال:

ـ لقد أصدرت أوامري إلى بك درنة بالعمل على تسهيل إنزال هذه القوّات في ميناء طبرق أو ميناء «بمبا» حسب الاتفاق، وبدل أن يتجه الأسطول إلى أحد هذين الميناءين نجده يختار ميناء درنة. ولو لم يفعل المسيو جانتوم ذلك لجنّب فرنسا رفع رايات الاستسلام في مصر!

توقّف عند النافذة. راقب حركة السفن في المرفأ. أضاف:

ـ هذا ليس خطأ جانتوم الوحيد!

سكت لحظة قبل أن يوضح:

ـ لقد أرهب هذا المستهتر الأهالي وأنزل الرعب في قلوب السكّان بحشود الزوارق المحمّلة بآلاف الجنود المدججين بالأسلحة فلم يجدوا مفرّاً من الدفاع عن أنفسهم، فمن أيّ حانة التقط بونابرت هذا الأبله؟

ابتسم أكزافييه بمرارة عندما تذكّر صراع الجنرال ساهوجي مع الأميرال جانتوم وخلافاتهما التي أدّت إلى عزل الأخير وتعيين الجنرال ماير خلفاً له، في حين مضى الباشا:

ـ أريدك أن تنقل لأصدقائي في فرنسا عميق أسفي لما حدث، وتؤكد لهم أن حرصي على صيت أصدقائي هو ما دعاني إلى اتخاذ قراري بعزل بك درنة لقصاص على ذنب ارتكبوه في حقّ أنفسهم بيدهم، ولم يرتكبه بك درنة في حقّهم!

ثم استدار ليومىء للدغيّس علامة انتهاء المقابلة. قام أكزافييه ليحيي الباشا بانحناءة مودّعاً، ولكن الباشا استبقى وزيره بإشارة. تسكّع في بلاط الديوان مرّة أخرى. توقّف في مواجهة الدغيس. قال بوضوح:

ـ ستذهب رسولاً إلى الأستانة!

صُعِقَ الوزير. ردّد:

ـ الأستانة؟

ـ وقع اختياري عليك لأني لا أثق بأحد سواك. سترفع إلى السلطان الأعظم آي إكباري لتحدّثه عن أدائنا للواجب خير أداء!

ـ الواجب؟

ـ بلى! الواجب! ستعبّر له عن سرورنا بالنصر المبين الذي تحقّق في مصر. كما سرّنا أن نسهم في هذا النصر بعملنا الجهادي في درنة!

تزعزع الدغيس كأنه يترنّح. تمتم:

ـ عملنا الجهادي في درنة؟

استدار الباشا على عقبيه. خطا نحو النافذة من جديد. أضاف:

ـ لا تنسَ أن تلمّح في حديثك عن دور عملية درنة في تعجيل استسلام جيش الجنرال «مينو»، لأن الكلّ يعلم اليوم أن هذا الاستسلام كان أمراً بعيد المنال لو نزلت قوّات الدعم أرض درنة!

استفهم الدغيّس بذهول:

ـ ولكن كيف أستطيع أن أفلت من سفن الأعداء الذين يضربون الحصار على سواحلنا يا مولاي؟

أطلق الباشا ضحكة قصيرة. قال:

ـ إذا أعجزنا أن تفلت من هذا الحصار المضحك فعلى طرابلس السلام!

سكت لحظة ثم أضاف:

ـ لقد خنقوا الريّس مراد خنقاً في مضيق جبل طارق، ولكنه استطاع الإفلات بسهولة عندما قرّر أن يفلت!

هتف الدغيس:

ـ حقّاً؟

أجاب الباشا:

ـ الريّس مراد في طريقه إلينا!

سكت. أضاف:

ـ لا تنسَ أن تجتمع إلى الخازندار بشأن الهدايا إلى الباب العالي!

ثم أومأ له بالانصراف. استدار الدغيس خارجاً، ولكن الباشا استوقفه قبل أن يدرك باب الخروج:

ـ لا تنسَ أيضاً: سوف ترافقني في الغد لزيارة القنصلية الفرنسية!

جمد الدغيّس لحظات. استفهم أخيراً:

ـ هل يعني مولاي...

ولكن الباشا قاطعه ببرود:

ـ بلى، بلى! سنقوم بزيارة القنصلية الفرنسية للتعبير عن أسفنا لأصدقائنا الفرنسيس عن أحداث درنة!

ثم التفت نحوه ليتطلّع في عينيه بفضول قبل أن يتساءل دون أن يرفّ له جفن:

ـ ألا ترى أن هذا من دواعي الواجب أيضاً؟

49

في بستان البيت جلس رجل طويل القامة، بارز العظام، صارم السيماء، كان يمكن أن يستثير في النفس النفور بهذه الصرامة لولا إيماء الوداعة في عينيه: وداعة الموعودين من قبل سلطان الحظوظ لا بالصيت وحده، ولكن بأن يحيوا أيضاً حياة أخرى بعد مماتهم. ذلك هو جفرسون الذي اصطفته الأقدار ليكون خير خلف لأحسن سلف في رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية.

كان الرئيس يجلس على كرسي محبوك من الخيزران في بستان بيته الريفي في بدفورد المفتوح على حقل فسيح يستلقي بعيداً حتى يحتجب بجحافل غيوم بدأت تتكاثف وتتوالد لتكتسح قوس الأفق.

اغترب الرئيس جفرسون في جلسته تلك حتى إنه لم يلحظ كيف انتصب عن يمينه شبح رجل آخر أقصر قامة، وأقل صرامة، أقبل عليه مدجّجاً بحمل لا يُحسد عليه من الملفّات: كان ذلك المستر ماديسون وزير خارجية الإدارة الجديدة للولايات المتحدة الأمريكية.

أومأ له الرئيس بالجلوس فهوى على كرسي بالجوار وهو يزفر أنفاس الإعياء. قال:

ـ لم يخطىء من قال مرّة إن على الولايات المتحدة أن تعرض على أوكار شمال أفريقيا القرصانية معاهدات منصفة، فإن رفضت

هذه الأوكار العرض لا يجب ألاّ نتردّد في محاربتها بدل إضاعة الوقت في كسب ودّها!

زفر مرّة أخرى ثم أضاف:

- الرسالة إلى آدامز عام 1784م!

ابتسم جفرسون يومها دون أن يكفّ عن ملاحقة الأفق الملبّد بالغيم. قال:

- أحسدك على قوّة الذاكرة!

قال ماديسون:

- لقد طالبتم يومها، يا سيادة الرئيس، بضرورة إنشاء قوّة بحرية لا تقصف المدن الآهلة بالسكّان، كما تفعل الدول الأخرى، ولكن لتحطيم سفنهم في عرض البحر!

تمتم الرئيس:

- أجل! الاقتصاص من الأشقياء بتحطيم سواعد الأشقياء أكثر حكمة من هدم البيوت على رؤوس الأشقياء لتنكتم مع أنفاسهم أنفاس عوائلهم أو الأبرياء من أقاربهم!

ثم تطلّع إلى وزيره ليتساءل:

- أما زال إمبراطور مرّاكش يتوعّدنا بالحرب تضامناً مع باشا طرابلس؟!

زفر الوزير أنفاسه السّخيّة مرّة أخرى قبل أن يجيب:

- إمبراطور مرّاكش لوّح بالحرب لأنه ظنّ أن عدم استجابتنا لطلب يراه بسيطاً مثل السماح للمرتدّ لزلي بالانصراف لممارسة

مهامّه الشرّيرة هو بمثابة إهانة لا يستحقّها، ولكنّ الغضب لم يبلغ به قدراً يستوجب إعلان الحرب بعد!

ـ هل سيسحب تهديده بإعلان الحرب الآن بعد أن أفلت بترلزلي هذا من الحصار؟

ـ أعتقد أنه ينتظر مبادرة منّا لحفظ ماء الوجه!

تمتم جفرسون:

ـ حفظ ماء الوجه..

ثم أضاف فجأة:

ـ إذا حفظنا له ماء الوجه فلن نفقد شيئاً، ولكننا سنخسر كثيراً لو كابرنا، لأن باشا طرابلس سيكسب كلّما استقطب إلى معسكره صديقاً جديداً!

أكّد الوزير:

ـ لا خوف من داي الجزائر ولا من باي تونس، يا سيّدي الرئيس؛ أمّا بشأن إمبراطور مرّاكش فقد أعددنا ما من شأنه أن يحفظ له ماء الوجه!

قال الرئيس:

ـ لا بدّ من عمل المستحيل لعزل الطاغية عن بقيّة الطغاة، لأن الطغاة سيظلّون طغاة صغاراً ما انعزلوا، فإن اجتمعوا صاروا كباراً!

زفر الوزير مرّة أخرى. قال:

ـ لقد وقع الداهية معاهدة صلح مع نابليون في الوقت نفسه الذي وضعت فيه الحرب في مصر أوزارها!

سكت جفرسون. تابع امتداد الحقول في البعد لتغيب في الأفق الملفوف بغيوم ثقيلة تنذر بزعزعة استقرار النهار. ردّد كأنه يقرأ في قرطاس:

ـ صدق من قال إن الطغاة الصغار لا يرتدعون ما لم نلوّح لهم بورثة يستهدفون عروشهم!

هلّل الوزير فأضاف الرئيس:

ـ نريد رسولاً إلى نابليون بحكمة فرانكلين!

ساد صمت. سأل الوزير:

ـ هل فرانكلين هو صاحب العبارة؟

لم يجب الرئيس فأضاف الوزير:

ـ نستطيع أن نبعث برسول إلى نابليون، ولكنّي لا أضمن أن يكون بحكمة فرانكلين!

تبادلا نظرة عابرة. قال جفرسون:

ـ نريد رجلاً يستطيع أن يقنع بونابرت بالقيام بدور الوساطة مع القرمانلي، حتّى إذا أخفقت الوساطة استخدمنا وصيّة فرانكلين عن ورثة الطغاة!

تطلّع الوزير إلى رئيسه بفضول، وعندما أخفق في فكّ طلسم العبارة استفهم:

ـ ماذا يعني السيد الرئيس باستخدام وصية فرانكلين عن ورثة الطغاة؟

تساءل جفرسون:

ـ ألم تحدّثني في المرّة الماضية عن وجود وريث لعرش القرمانلي منفيّ في مصر؟

زفر ماديسون أنفاسه السخيّة. رَبَّت على عبء الأوراق الراقدة على ركبتيه. قال:

ـ الحقّ أني لم أقبل عليكم لأفسد خلوتكم يا سيّدي إلاّ لأفاتحكم في أمر هذا الوريث!

تطلّع إليه الرئيس، ولكنه ما لبث أن فرّ ببصره نحو الأفق، في حين أضاف الوزير:

ـ وليام إيتون، قنصلنا الطريد من تونس، يعرض خطّة مثيرة لتركيع باشا طرابلس بورقة الوريث هذه بالذّات!

ساد صمت. من الشمال تنفّست الأهواء بأنفاس باردة. في غيهب الغيوم التي تكتسح الأفق اختطّت البروق علامة غامضة أعقبها زئير رعدٍ بعيد.

قال جفرسون:

ـ لا يجب أن نستخدم ورقة الوريث قبل أن نيأس من مهمّة الرسول إلى باريس!

50

طرابلس. الميناء. اغسطس. 1802م.

بدأت مدافع القلعة تطلق القذائف في اللحظة التي استقرّت فيها سفينة الضيف المهيب بالمرفأ، فيما اصطفّ طابور الشرف تأهّباً

لتحية الكونت الكورسيكي الجنرال هوراس سيبستياني دي لوبورتا المندوب السامي لبونابرت ورسوله إلى الديار الطرابلسية.

كان وصول الكونت قد أعقب وصول بوسييه بأيّام بعد أن أصدر نابليون قراره بإعادة تعيينه قنصلاً لفرنسا لدى باشا طرابلس، ولكن ملابسات غريبة عرقلت استلامه لعمله أمداً زاد على الأحد عشر شهراً ليصلها أخيراً محمّلاً بهداياه النفيسة إلى يوسف باشا.

أمّا الجنرال سيبستياني فقد أقبل على القلعة في اليوم التالي لوصوله محمّلاً أيضاً، ولكن بهدايا من جنس آخر، متوّجة بوثائق التصديق على المعاهدة الموقّعة بين البلدين، مضافاً إليها عدداً سخيّاً من وصايا لم يبخل بها نابليون بونابرت على الباشا. وإذا كان يوسف باشا قد عبّر في كلمته عند استقبال الضيف في رحاب القصر عن سعادته باستلام وثائق المعاهدة ممهورةً بأختام التصديق، فإنه حاول جاهداً إخفاء لهفته إلى معرفة ما في جعبة الضيف السامي من وصايا، وهو الذي تعلّم أن العطايا في لغة الدبلوماسية إنما تعني البلايا، كما أن الوصايا المحمولة على طرف اللسان ما هي إلاّ ذلك الضرب من الأمانات التي يأبى حملها القرطاس فتتولاّها عضلة لئيمة كاللسان. ولهذا لم ينتظر الباشا من ضيفه أن يقول خيراً عندما انتهى من عبارة الترحيب لينتقل إلى إشارة الترهيب:

ـ سيادة القنصل الأوّل حمّلني أن أنقل لسعادة الباشا رغبته في اعترافكم بفرنسا كراعٍ لمصالح الجمهورية الإيطالية في بلادكم!

هزّ الباشا عمامته بارتياح مفتعل في حين وسوست في قلبه الوساوس قائلة: «وراء الأكمة ما وراءها، فاحترس!». وكي يكسب الوقت ماطل في الجواب:

ـ مصالح الجمهورية الإيطالية . .

ـ نعم . سيادة القنصل الأوّل يرغب في تولّي رعاية مصالح . .

لحظتها تلقّى الباشا إلهاماً فقاطع ضيفه:

ـ ما أعلمه أن سعادة المندوب السامي يحمل الهويّة الإيطالية . .

ساد صمت مفاجىء قبل أن يبتسم الضيف قائلاً:

ـ نابليون أيضاً يحمل الهوية الإيطالية!

أعقب الكونت عبارته بضحكة فجاراه الباشا بالضحك أيضاً، ثمّ قرّر:

ـ إذا كان سيادة القنصل الأوّل يحمل الهويّة الإيطالية فبأي حقّ نحرم صاحب السيادة من رعاية مصالح بلاده؟!

تضاحكا من جديد. قال الكونت:

ـ الحقّ أن معالي القنصل الأوّل حمّلني رسالة أخرى!

همهم القرمانلي:

ـ رسالة أخرى . .

ثم استنفر كلّ الحواس لتلقّي الرسالة الأخرى كأنّه يتأهّب لتلقّي طعنة، لا رسالة!

قال الكونت:

ـ السويد!

ـ السويد؟

ـ أعني أن القنصل الأوّل حمّلني رغبته الشخصية في إمكان تسوية الخلاف مع السويد!

سكت الباشا زمناً. قال أخيراً:

ـ لا أعتقد أن سيادة القنصل الأوّل يرضيه أن تستهين دولة كالسويد بدولة تربطها بفرنسا معاهدة صداقة كالمملكة الطرابلسية، لأن ذلك يعني في عرفنا استهانة لا بنا وحدنا، ولكن استهانة بفرنسا أيضاً!

هتف الكونت:

ـ استهانة بفرنسا؟

أجاب الباشا ببرود:

ـ بلا شكّ!

سكت الضيف إلى حين هوّن عليه الباشا:

ـ وإذا كنتم لا ترون في أمرٍ كهذا حرجاً لسيادة فرنسا فلا مانع عندي من مصالحة السويد بالشروط التي يراها نابليون كصديق!

تظاهر الكونت بالامتنان العميق لتنازل الباشا إكباراً لصداقته لفرنسا، ولكنه أخفق في اصطناع الحرج عندما رمى بآخر سهم في جعبته:

ـ الحقّ أن صديقكم سيادة القنصل الأوّل حمّلني بوصية أخرى.

ابتلع ريقه ليضيف:

ـ أخيرة!

ردّد الباشا مستنفراً:

ـ أخيرة..

ويبدو أن الكونت قرّر أن يتحرّر من العبء مرّة واحدة وإلى الأبد عندما قال:

ـ نحن لا نريد بالطبع أن نثقل عليكم، كما لا يسعدنا أن نمتحن تسامحكم، ولكن معالي القنصل الأوّل يرى في إنهاء الحروب في البحر المتوسط مصلحة ستجنيها كل الأطراف بما في ذلك طرابلس!

سكت ثم أضاف:

ـ حريّة التجارة، كما تعلمون هي سرّ الرخاء!

تمتم الباشا بحذر:

ـ لن نختلف في هذا الرأي أبداً!

ـ وحريّة التجارة في هذا البحر تشترط السلم!

تمتم الباشا وهو يتحوّل كتلة استنفار:

ـ لا أعتقد أنّنا سنختلف في هذا أيضاً!

ـ واتفاقكم مع الأمريكيين هو حجر الأساس لتأسيس هذا السلم!

ـ الاتفاق مع الأمريكيين. .

لم يحتمل الباشا أكثر مما احتمل ففزّ واقفاً. ولكنه عاد ليجلس فجأة على غير عادته. عقد يديه حول صدره وتطلّع إلى ضيفه بفضول قبل أن يقول:

ـ السلام مع الأمريكيين يبدو أكثر تعقيداً، لا لأنّهم استهانوا بي مراراً ولكن لأنّهم أمريكيون!

تعجّب الكونت:

ـ لأنهم أمريكيون؟!

قال الباشا بلهجة استخفاف:

ـ بلى! لأنهم أمريكيون أقبلوا على بحرنا من قارّة ضائعة لا عهد

لنا بها، ولم نسمع بها حتّى مجرّد السمع إلاّ في السنوات الأخيرة. وهو ما يعني في عرفنا أنّهم أمّة معتدية!

ـ معتدية؟

ـ إذا كانت الأمم المجاورة لا تجد حرجاً في أن تدفع لنا إتاوة لقاء استخدامها لبحرنا العظيم هذا، فلماذا تكابر دولة الأغراب فترفض دفع الجزية المناسبة لقاء استخدامها لبحر لا حقّ لها فيه ولا سلطان لها عليه؟

تمتم الكونت:

ـ الحقّ أنّي..

ولكنه أحجم قبل أن يكمل العبارة في حين أضاف الباشا:

ـ لم ننل هذا البحر إلاّ نعمةً من صاحب النعم، كما لم نفز بهذا النصيب إلاّ تسخيراً من مقسّم الأرزاق على العالمين: وهبكم في ضفّته الشمالية أرضاً مكسوّة بالغابات تجري من تحتها الأنهار، ووهبنا على ضفّته الجنوبية صحراء جرداء تجاور بحراً هو كل ما نملك. فبأيّ حقّ تبخلون علينا باستثمار بحرنا الذي لا نملك سواه في حين امتلكتم كلّ شيء؟ بأي حقّ يمكنكم أن تتحدّثوا عن العدالة، أو عن الأخوّة، أو عن المساواة، ثمّ تنكرون علينا أن نحيا بالحدّ الأدنى في حين لم نحسدكم يوماً على حياة الحدّ الأعلى التي تحيونها؟ ألا يدري سعادة المندوب السامي أن ضمان ترف الجار في أن يفعل كل ما بوسعه لكي لا يجوع جاره، لأنه إن جاع فسوف ينقلب خطراً على حياته إذا بخل عليه بقوت يسدّ الرمق؟

سكت لاهثاً. ولكنه ما لبث أن أضاف:

ـ نحن لا نريد أن ينطلق هؤلاء الجوعى الذين ترونهم من النافذة من عقالهم، ولهذا نعمل على الاحتيال عليهم بالفتات الذي تلقونه إلينا لكي لا يؤذوكم، صدّقني! تستطيعون، يا سعادة المندوب، أن تروا فينا جنداً يقفون عسساً لحمايتكم من بطش هؤلاء الجوعى لا عسساً لحماية هؤلاء الجوعى من بطشكم كما تظنون أنتم، لأننا إن لم نأخذ منكم هذه الحسنات لقاء استخدامكم لبحرنا الشقيّ فلن نضمن ألاّ تخسروا كل شيء بسبب أولئك الذين لا يملكون أيّ شيء!

تابعه الكونت سيباستياني بذهول، ولكن الباشا لم يرحم ضيفه المسكين:

ـ هل فهم سعادة المندوب السامي لماذا نحرص على توقيع المعاهدات معكم ومع هذه الدول التي تريدوننا أن نتنازل لها عن الحسنات التي تلقي بها إلينا بين الحين والآخر؟ هل فهمتم الآن لماذا استبسلت بشأن استبعاد المواد الخاصّة بتوسّط أحد الطرفين لدى طرف ثالث من الاتفاقية الموقّعة بيننا؟ لقد فعلت ذلك من أجلكم! فعلت ذلك حرصاً عليكم! فعلت ذلك لأنتصر لحرية الملاحة في البحر التي تنادون بها. ولكن هذا لن يعني أبداً أن أتنازل حتّى عن الفتات! هذا لن يعني أبداً أن أتنازل عن الحسنات! لأني أعلم كما لا تعلمون أن ذلك من شأنه أن يشكّل الخطر المميت لا على حياتي وحدي، ولكن على حياتكم أنتم! فهل فهم سعادة المندوب السامي سرّ تمسّكي باستبعاد تلك البنود من مواد الاتفاقية؟

ساد صمت مزموم. أخيراً تمتم الكونت:

ـ فهمت! أعتقد أنّي فهمت يا سعادة الباشا!

قال الباشا مستكملاً مرافعته الحامية:

ـ حسناً! لا أريدك إلاّ أن تبلّغ صديقي بونابرت بهذه الوصيّة الصغيرة كجوابٍ على وصاياه الكثيرة!

القسم الثالث

51

يروي مؤرّخو ذلك الزمان أن المستر بيتر لزلي (أو الريّس مراد) أفلح في استغفال محاصريه الأمريكيين بمضيق جبل طارق في تلك الليلة لينسلّ تحت جنح الظلمة ليلوذ بالفرار على متن قوارب استنزلها إلى الماء؛ في حين تناقلت الأجيال عن فراره رواية أخرى تقول إنه لم يفرّ بصحبة رفاقه على متن قوارب سفينته «مشهودة»، ولكنه لاذ بالفرار سباحةً حتّى شواطىء طنجة. من هناك انطلق في رحلة العودة إلى طرابلس بطريق البرّ مشفوعاً بعون مولاي سليمان امبراطور مرّاكش الذي زوّده بالبعائر والعبيد والمؤن ووصيّة مرفوعة إلى صديقه باشا طرابلس تقول خلاصتها إنه لم يكتفِ بطرد القنصل الأمريكي تضامناً مع مملكته في حربها ضدّ عدوان هذه الأمّة النصرانية، ولكنه أعلن عليها الحرب أيضاً.

كان رفاقه يتغامزون فيما بينهم ويخفون بسمات السخرية وهم يرون ذلك العلج العنيد وهو يتحجّب بأقنعة الملثمين ويلفّ بدنه البدين، المتصبّب عرقاً، بأثواب الصحراويين الفضفاضة، معتلياً سرجاً عالياً مثبّتاً على ظهر جمل أهوج جمح به مراراً ليصرعه أرضاً، فما كان من رفاقه إلاّ أن تمادوا في سخريتهم ليقولوا له إن ركوب سفينة الصحراء ليس كركوب سفينة البحر لأنّه إن استطاع أن يخفي حقيقته عن شذّاذ الآفاق فليس له أن يخفيها عن سلالة البعير!

ولكن الإيرلندي الذي ينعته أبناء الملّة النصرانية بالمرتدّ، وينعته أبناء الملّة الإسلامية بالعلج الذي لا يُؤمَن جانبه، استطاع في تلك الرحلة الصحراوية أن يبرهن عن بطولة لم تكن لتقلّ شأناً عن بطولاته الذائعة الصيت التي اشتهر بها في رحلاته البحرية، حتّى إن المستر مكدونو خلع عليه لقب «أوليس البريّة» ما إن علم بمغامراته الصحراوية التي قادته أخيراً إلى «برّ إيتاكا الطرابلسيّة بعد خلاصه من خناق المضيق الذي حشره فيه طرواديو العصر الحديث» حسب التعبير اللئيم الذي أورده ذلك القنصل في تقريره إلى حكومته. ويبدو أن بيتر لزلي صدّق حلول روح البطل الأسطوري فيه وتماهيه به فقرّر حال عودته الانتقام من خُطّاب بنلوبه التي لم تكن سوى «مشهودة» المعتقلة في مضيق بحر ليبيا الغربي، فما كان منه إلاّ أن تسلّل بحصانٍ ملفّق من خمسة قوارب شراعية ليفلت من حصار غيلان العصر فلا يتوقّف بقواربه إلاّ بعد أن عاقبهم بالاستيلاء على سفينتهم المهيبة المسمّاة «فرانكلين» عند سواحل إسبانيا، ليبيع حمولة السفينة في أقرب ميناء. ثم يزحف ليبيع السفينة نفسها في ميناء آخر، قبل أن يعود أدراجه محمّلاً من غزوته تلك بغنيمة نفيسة تمثّلت في عددٍ سخيّ من الأسرى لم يفلح الأمريكيون في تحريرهم من العبودية إلاّ بعد أن دفعوا للباشا مبلغاً خرافياً بلغ ألف دولار ثمناً للأسير الواحد!

52

كانت هذه الحادثة بمثابة الصفعة الموجعة الأولى التي تلقّاها أسطول الحصار الرابض قبالة السواحل الطرابلسيّة، كما لم تكن

الصفعة الوحيدة، لأن فضائح هذا الأسطول ما لبثت بعد هذه الحادثة أن توالت. فقد اعتادت قطع هذا الأسطول أن ترسو بموانىء إيطاليا أو مالطا أو أسبانيا إمّا للتزوّد بحاجاتها من المؤن أو المياه، إمّا للترميم، ليتضح فيما بعد أن هذه الحجج لم تكن سوى ذرائع لأمر آخر حاول ربابنة تلك السفن إخفاءه ألا وهو: الترفيه! ذلك أن الكثيرين من هؤلاء الربابنة اصطحبوا معهم قريناتهم على متن سفنهم الحربية. كما سمحوا لبحّارة آخرين باصطحاب زوجاتهم أيضاً، كأنّ الأسطول خرج للقيام بنزهة بحرية عبر بحر ليبيا لا للقيام بغزوة حربيّة، ممّا دعا وليم إيتون (القنصل الأمريكي في تونس) لأن يكتب في تقريره إلى وزير الخارجية قائلاً إن قطع الأسطول لم تعد تفتقد إلاّ بعض الممثلين الهزليين لاستكمال فصول الملهاة. وهو يلمّح بهذه العبارة الساخرة إلى ضروب المشاجرات العنيفة التي نشبت بين بحّارة عدد من السفن، وغرق فرق القنّاصة في صنوف اللّهو، وتعاطي الخمور، وكل ما يترتّب عادةً من وجود امرأة واحدة على متن باخرة، فكيف إذا عجّ السفين بأسراب الحسناوات؟

لقد شهد أندرو مورس ربّان السفينة الأسيرة فرانكلين قائلاً إن الريّس مراد مرّ بمراكبه عند عودته من غزوته الظافرة بين فرقيطتين أحداهما سويدية وثانيتهما أمريكية (وهي «كونستليشن») ليحييهما باستكبار، دون أن تحرّك هاتين السفينتين ساكناً لعرقلة تقدّمه نحو المرفأ. وهو أمر لم يكن ليحدث لو تحلّى البحّارة بحدّ أدنى من يقظة أو انضباط. فعلى متن كونستليشن هذه تأجّجت العواطف لتنسج فصول تلك المغامرات الدموية التي تزعزع لها الرأي العام

الأمريكي الذي انتظر بفارغ الصبر أن تُسفك هذه الدماء على شواطىء طرابلس، لا على ظهر البارجة المستجيرة بميناء ليجهورن بدعوى الترميم. ويروي مؤرّخو البحرية الأمريكية بروح الدهشة أن هذه الدماء لم تكن لتُسفح بذلك السّخاء لو لم تُسلّم زمام الأمور للربّان «مرّي» المصاب بداء الصمم. وبرغم الغموض الذي صاحب المنازعة الأولى إلاّ أن التحريّات أثبتت فيما بعد أن سبب مصرع الشقيّ جيمس مك نايت (صاحب العبقرية الاستثنائية في فنّ القنص التي أهلّته لتولّي قيادة فرقة القنّاصة عن جدارة) لم يكن سوى امرأة!

فقد تلاسن مع اللفتنانت ريتشارد لوسن غريمه في عشق قرينة أحد البحّارة قبل نزولهما إلى البرّ، ولكن الخصومة دُفنت في مهدها بتدخّل الزملاء الذين لم يكن لهم أن يعلموا أن أيّ خصومة (أو حتى عداوة) يمكن أن تُدفن وتنسى بين الرجل والرجل باستثناء حالة واحدة: عندما تكون الخصومة، أو العداوة، بسبب امرأة!

تظاهر الرجلان بنسيان الأمر استجابةً لوساطة البحّارة، ولكن النزاع تجدّد ساعة النزول إلى البرّ بسبب تبادل عبارات الاستفزاز ليتطوّر الأمر إلى الاتّفاق على مراسم المبارزة. ولمّا كان داهية القنّاصة هو البادىء بالتحدّي فإن حقّ اختيار نوع الأسلحة وتحديد المسافة من نصيب الطرف الآخر كما تقضي أعراف هذه اللعبة المميتة. ولمّا كان لوسن عديم الخبرة في استخدام السلاح فقد اقترح استعمال المسدّس على مسافة لا تزيد عن ثلاث خطوات. هذا الاقتراح أثار استهجان ضابط يدعى جاكوب جونز وقع عليه اختيار اللفتنانت لوسن نفسه ليكون له سفيراً مخوّلاً لوضع الشروط التي من

شأنها أن تجنّبه ميتة مبكّرة. ولكن هذا السفير كان أوّل من اعترض على شرط الخطوات الثلاث، متّهماً موكّله بالخلط بين الموت النبيل في مبارزة والقتل عن عمدٍ وترصّد!

حدث كل هذا على مرأى من الربّان مرّي دون أن يحدث على مسمع منه فلم يحرّك للحيلولة دون المبارزة ساكناً؛ كأنه أراد أن يبرهن أن الإنسان لا يختلف عن حيوان الودّان (التيس البرّي) الذي لا يصدّق عينيه بقدر ما يصدّق أذنيه! ولكن حجّة لوسن كانت أقوى عندما أجاب موكّله قائلاً إن الفرق كبير بين من يبارز لينتقم ومن يبارز ليدافع عن النفس؛ والفرق سوف يكون أعظم شأناً عندما يكون صاحب قفّاز التحدّي قنّاصاً في مواجهة خصمٍ شبه أعزل!

بعدها أشيعت في محافل الجند عبارة منسوبة إلى لوسن تقول: «لقد برهنتُ لكم كم هو جبان فارس القنص الذائع الصيت!» فجُنَّ جنون نايت وصمّم أن يلقّن لوسن الدرس الذي سيسكنه ملكوت النسيان بعد أن وقع اختياره على المستر كامرك أحد رفاقه في فرقة القنّاصة ليمثّله في محادثات المبارزة، فتوصّل كامرك هذا إلى مضاعفة المسافة من ثلاث خطوات إلى ستّ خطوات على أن تتم بزوج مسدّسات في الجولة الأولى، فإن أفلتا من الهلاك في هذه الجولة فلهما أن يستبدلا طلقات المسدّسات بأنصال السكاكين في الجولة الثانية.

ويروي شهود العيان أن الشقيقين أطلقا النار في وقت واحد، فلمن كتبت الأقدار النجاة يا ترى؟ أليس من البديهي أن تكون من نصيب داهية القنص الذائع الصيت؟ من الطبيعي أن تكون النجاة من

نصيب عبقريّة القنص لو كانت الأقدار تؤمن بمنطق الطبيعة حقّاً! ولكن الأقدار صارت أقداراً لأنها لم تؤمن يوماً بهذا المنطق، ولهذا وهبت صولجان النجاة لأجهل مخلوق في فنون المبارزة عرفته البحرية الأمريكية في تاريخها، في حين انتزعته من سيّد هذا الفنّ لا لشيء إلاّ لأنّ الأقدار لا تطيق التباهي بالهبات الإلهيّة! وهكذا أخطأ ملك نايت خصمه في حين أصابته طلقة لوسن في القلب!

حاول البحّارة أن يخفوا أمر هذه الفضيحة عن آمرهم الربّان مرّي كما سبق لهم أن فعلوا في مرّة سابقة عندما أُصيب القبطان «هَل» برصاصة من خصمه شلّت معصمه فيما كان يتقدّم نحو خصمه في نيّة لتحطيم رأسه، ولكنّهم أخفقوا هذه المرّة بمشيئة المصادفة لا بفطنة الربّان مرّي المصاب بصمم القلب أيضاً كما يبدو لا صمم الأذنين فحسب. فقد اكتشف غياب أحد أفراد الطاقم في طابور الصباح لا بصفته وإنّما بافتقاده عدداً فاستنكر ليعيد العدّ مراراً. ولكن جنوده الخبثاء استمرأوا حيرته كما اعتادوا أن يفعلوا فلم ينجدوه إلاّ بعد أن شفوا غليلهم بالتندّر عليه طويلاً. بعدها سمحوا لأحدهم أن يتقدّم من الربّان البائس حاملاً لوحاً كُتب عليه بحروف بيّنة: «ملك نايت لقي مصرعه في مبارزة على يد اللفتنانت لوسن!». تأمّل الربّان العبارة المزبورة على اللوح طويلاً. ويبدو أنه قرأها مراراً دون أن يصدّقها، ولكنه لم يكن بوسعه أن يكذّب ما قرأه في عين البحّار الذي رفع في وجهه ذلك اللّوح. لحظتها فقط أصدر أمره بالقبض على لوسن وإيداعه الحبس!

ولكن مسلسل هذه الحماقات التي أطلق عليها رجال البحرية اسم

«لعنة طرابلس» لم ينتهِ عند هذا الحدّ. ففي مرفأ آخر هو مالطا، على ظهر بارجة حربية أخرى هي «نيويورك» تنابز أميركي آخر هو جوزيف بينبريدج (شقيق وليام بينبريدج) بالألقاب مع ضابط بريطاني هذه المرّة هو المستر كوشران أمين سرّ حاكم الجزيرة السير الكسندر بول حميم الأميرال نلسون الذائع الصيت، آمر البارجة «الإسكندر»، وقاهر أسطول بونابرت في معركة أبي قير البحرية. ويقال إن المستر كوشران تعمّد استفزاز جوزيف عند تقابلهما في سهرة في فندق «لونا» بعبارة تقول: «أنتم معشر اليانكي تحسنون التسلّل إلى مخادع الغانيات، ولكنكم تتقنون اللوذ بالفرار ما إن تشتمّوا رائحة البارود!» مشيراً بذلك إلى الحصار الفاشل المضروب على سواحل طرابلس. كتم بينبريدج الإهانة، ولكنه لم يغفرها لأن النزاع ما لبث أن تجدّد بانتهاء الحفل ليجد الأميركي نفسه يقف وجهاً لوجه مع خصمه في الشارع ليتبادلا اللّكمات هذه المرّة بدل الشتائم. اشتبكا في نزاع أسفر عن سقوط كوشران أرضاً فظنّ الفريقان أن الأمر انتهى عند هذا الحدّ كما يجدر بكلّ مناوشات السكارى، ولكن ظنّ الأمريكيين خاب عندما استيقظوا في اليوم التالي ليجدوا بين يدي زميلهم رسالة التحدّي.

كان جوزيف هذا شابّاً غرّاً لم يحدث أن استخدم مسدّساً في حياته بالمقارنة مع خصمه الذائع الصيت في استعمال كل أنواع الأسلحة، فما كان من ستيفن ديكاتور إلاّ أن تطوّع كبديل لمبارزة الفارس الإنجليزي. ولكن كوشران رفض الصفقة فاقترح ديكاتور السجال بالمسدّسات على ألاّ تزيد المسافة على الأربع خطوات.

اعترض وكيل كوشران على هذا البعد في المسافة، ولكن ثقة كوشران في مواهبه دعته إلى القبول، فماذا كانت النتيجة؟ طاشت إطلاقة صاحب الثقة وأفلح الغرّ في إصابة قبعة الخصم، فهل قنع الطرفان بهذه النتيجة؟

قنع جوزيف ورفضها صاحب البطولة، ممّا حتّم الاحتكام للسلاح من جديد. إذ من أين لصاحب الاستكبار أن يعلم أن السخاء في توزيع قفّازات التحدّي ليس عملاً من قبيل البطولة بقدر ما هو خطيئة؟ وملك الحظوظ الذي يغري صاحب المران بخوض النزاعات لا يلبث أن يتخلّى عن صاحب البطولة ليخلع هذا التاج على رأس صاحب البراءة. وها هي نتيجة الجولة الثانية تسفر عن إصابة دعيّ الفروسية في حدقة العين في حين تطيش طلقة صاحب البطولة في الهواء، لأن يد الربّ هي التي ضغطت على الزناد في تلك اللحظة لا يد الغرّ!

اعتبرت سلطات الإنجليز ما حدث جريمة قتل يعاقب عليها القانون لا مجرّد مبارزة فأصدرت أمراً باعتقال الجناة. ولكن آمر «نيويورك» القبطان بارون أفلح في إخفاء الأمريكيين على متن البارجة الحربية ليطلق سبيلهما ما إن أبحر بعيداً عن ميناء الجزيرة. وهكذا أفلت اللفتنانت ستيفن ديكاتور من قصاص الإنجليز برغم أنه لم يفلت من قصاص لعنة طرابلس. فقد لقي مصرعه على يد ربّان البارجة نفسه القبطان بارون. متى؟ بعد تسعة عشر عاماً. كيف؟ في مبارزة أيضاً. أين؟ في مالطا أيضاً، أي في مياه بحر ليبيا!

يوم عاد السيّد كوبر قنصل هولندا إلى طرابلس مصحوباً بأسطول الأميرال الهولندي وينتر لعقد الصلح استقبله الباشا بالسراي ليخاطبه قائلاً:

ـ إذا كنتَ تظنّ أنّك تستطيع أن ترهبني بأسطولك هذا فأنت واهم!

فما كان من القنصل إلاّ أن استنكر:

ـ أيعقل، يا سعادة الباشا، أن يلوّح بالإرهاب من أقبل على الديار بصرّة المال؟!

حدجه الباشا بارتياب في ذلك اليوم قبل أن يتساءل:

ـ ما مقدار المال الذي تحويه الصرّة يا ترى؟

تبادل القنصل مع أميرال الأسطول نظرة قبل أن يجيب:

ـ إنه خمسون ألف فلوران يا سعادة الباشا!

حدّق الباشا في وجهه ببلاهة ثمّ تساءل:

ـ وهل تظنّ أنّي أمرت بطردكم يوماً طمعاً في مبلغ تافه كهذا؟

تبادل الضيفان نظرات ذات معنى. أضاف الباشا:

ـ ألا يرى السيد القنصل أن مبلغاً كهذا يعدّ إهانة له قبل أن يكون إهانة لي؟

استفهم القنصل بنظرة فأوضح الباشا:

ـ أعني أنّك إذا كنت تريد أن تشتري عودتك إلى ديارنا بمبلغ زهيد كهذا فهذا يعني أنّك لا تساوي في نظرنا، بل وفي نظر حكومتك أيضاً، سوى هذا الثمن البخس الذي جئتنا به!

سكت لحظة ثم رمق الأميرال قبل أن يضيف:

ـ كلاّ، يا سيّد كوبر، ثمّ كلاّ! إذا كنت ترتضي الإهانة لنفسك فإنّي لا أترضيها لك! فأنت تساوي في نظري مبلغاً يفوق هذا المبلغ بكثير!

تململ القنصل في جلسته. حدج الأميرال خلسة. قال:

ـ هل يستطيع سعادة الباشا أن يحدّد المبلغ الذي يساويه قنصل هولندا في تقديره؟

هتف الباشا كأنه توقّع هذا السؤال:

ـ ثمن عودة قنصل هولندا لن يقلّ في تقديري عن المائة والتسعين ألف فلوران نقداً إلى جانب عطيّة سنوية لن تقلّ عن العشرة آلاف فلوران!

تطلّع إليه القنصل مليّاً. تمتم:

ـ ألا يرى سعادة الباشا أنه يحسن بي الظنّ كثيراً إذا قدّر مبلغاً باهظاً كهذا ثمناً لعودتي إلى دياره؟

صاح الباشا:

ـ ثمن عودة السيّد كوبر إلى دياري تساوي أكثر من ذلك بكثير، وأنا باقٍ على يقيني بأنه لن يخيّب ظنّي!

أعقب العبارة بابتسامة ماكرة. وعندما طلب القنصل مهلة للتشاور شيّعه الباشا بوصيّة تقول:

ـ أنصحكم بالتفكير جيّداً عند التشاور. وأريدكم أن تعلموا أنّي لا أخشى الأساطيل. تستطيعون أن تقصفوا طرابلس كما قصفها

الكثيرون قبلكم، ولكن عليكم أن تعلموا أن العناية الإلهيّة وهبت هذا الوطن طول الشطآن على بحر ليبيا. ولم تكتفِ بهذه الهبة، ولكنها زرعت هذه الشطآن بالمدن والموانىء منذ أقدم الأزمان. وهو ما يعني أنّي أستطيع أن أنطلق من أي ميناء من موانىء هذه المدن لأختطف سفنكم التجارية وأسترقّ ركّابها لأبيعها لكم بأضعاف الحَسَنة التي تستكثرونها الآن!

التقط أنفاسه قبل أن يضيف:

- لو كانت الأساطيل تجدي نفعاً لأفلح السويديون ومن بعدهم الأمريكان في إجبارنا على التنازل عن مطالبنا العادلة!

ثم نهض ليقترب من النافذة قائلاً:

- انظروا إلى أساطيلهم التي تتسكّع هناك منذ سنوات! ألا يبدو حصارهم المزعوم هذا مضحكاً إذا قلت لكم إنه لم يمنعنا يوماً من الخروج بأساطيلنا إلى عرض البحر لاختطاف سفنهم؟

انصرف الضيفان في ذلك اليوم ليعقدا مجلس حرب على متن إحدى بوارج الأسطول دون أن يعلم أحد ما دار في ذلك الاجتماع، ولكن قنصل إسبانيا مَثُل في اليوم التالي بين يدي الباشا كرسول حمل في جعبته الحلّ الوسط القاضي بدفع مبلغ ثمانين ألف فلوران نقداً، وخمسة آلاف فلوران جزية سنوية، إلى جانب هدايا تقدّر قيمتها بخمسة وثلاثين ألف فلوران. أمّا السيّد كوبر فقد التزم بتزويد القصر بحاجته من الأجبان الهولندية والقهوة والرّوم والكونياك ومختلف الأقمشة.

تمّ التوقيع على المعاهدة بهذه الشروط، ولكن القنصل كوبر لم

يهنأ بمقامه في طرابلس، لأن أمداً تجاوز الستة أشهر قد مضى على التوقيع على المعاهدة دون أن تصل من هولندا المبالغ التي نصّت عليها بنود المعاهدة، ممّا استفزّ الباشا ودفعه لاستصدار فرمان بطرد القنصل الهولندي من جديد. هرع السيد كوبر إلى القنصل الإسباني مرّة أخرى يستجدي الوساطة. ولكن الباشا وضع شرطاً رآه كوبر تعجيزيّاً عندما طلب دفع مبلغ ألفين من الريالات عن كل يوم قبل تلقّي نص التصديق على المعاهدة فلم يجد سبيلاً لكسب الوقت غير متاهة المفاوضات. فاوض كوبر مستعيناً بمواهب زميله الإسباني طويلاً لينتهي إلى قبول دفع مبلغ إجمالي قدره عشرون ألف ريال إسباني مقابل أن يتسامح الباشا فينتظر وصول الاتفاقية شهراً كاملاً. ولكن الحظّ ابتسم للسيّد كوبر هذه المرّة فوصلت بارجة حربية حاملةً إلى جانب نصّ المعاهدة هبة مالية إضافية، فما كان من الباشا إلاّ أن أمر بترجيع العشرين ألف ريال التي استلمها مقابل الانتظار. ولكن سوء الحظّ الذي لازم هذا الرجل عاد فتدخّل ليحرمه متعة هذا النصر الصغير أيضاً: ذلك أن البلايا التي حاقت به في سبيل نيل مجد الدنيا كانت كفيلة بأن تتلف صحّته وتأخذ بالمقابل نفسه. لقد هلك المسكين بعد إنجاز الصفقة الأخيرة بأسابيع قليلة!

54

تلقّى الباشا في عيد ميلاده هديّة من قنصل الدانمارك: كانت علبة سعوط ذهبيّة، جسيمة الحجم، مطعّمة بأحجارٍ كريمة صفّفت في فسيفساء متقنة حجب سخاؤها المعدن الكريم. كانت العلبة آية

جمالٍ تأمّلها الباشا طويلاً: قلّبها بين يديه. تحسّس حبيبات الجوهر بأصابعه. حدّق في الفصوص بفضول. فتح الغطاء فتألّق الجوف ببريق المعدن النفيس الذي سُفِحت بسببه دماء الأجيال وأبيدت الأمم ورمت المخلوقات بالنفوس إلى التهلكة. دفع الغطاء فاختفى البريق. تبدّد البريق فتبدّدت، بمعيّته، البلبلة. حلّت السكينة فتفقّد بأنامله فصوص النبالة التي تتغامز باستحياء يليق بالتمائم عكس معدن العدوان الخالد!

لا يستطيع أن ينكر نبل الحجر الكريم في مقابل رعب المعدن النفيس دون أن يعرف السرّ يقيناً. ربّما استعارةً من الاسم. ربّما لأن حجر الجوهر جوهر حقّاً. أي باطن. ولذلك صار في عرف القبائل تميمة تقي الشرور. هذا في مقابل معدن الهول الذي لم يكن يوماً جوهراً، لم يكن يوماً باطناً، ولكنه ظاهر هذا الباطن. إنه صاحب البريق الذي يعمي. لهذا صار سلطان الإغواء. لأن كل ما استظهر عدوان. كل ما استظهر خطيئة. كل ما استظهر لعنة كما يردّد دراويش الطرق الصوفية. والعكس صحيح. كل ما استبطن عزلة. كل ما استتر حقيقة. كل ما استخفى ربوبية! ولهذا السبب، ربّما، يتخابث دهاة الحِرَف فيلجأون إلى التورية ككل الكهنة. يلجأون إلى الإخفاء فيقلبون الدمية رأساً على عقب. يخفون الذهب بستور حبيبات الجوهر بدل أن يخفوا حبيبات الحجر النبيل ببدن الذهب. يخفون ملك الإغواء بقناع سلطان العزلة إمعاناً في إتقان الفخّ وتفنّناً في إبداع الشرك. كأنّهم يتغنّون بأمجاد الجسد على حساب تغريب الروح. كأنّهم يخاطبون البلهاء ليخيّروهم بين القطبين: قطب الدنيا

وقطب الأبدية. مَن شاء غنيمة الدنيا فليختر الذهب، ومَن شاء مجد الأبدية فعليه بتلابيب الجوهر. فهل هو مريد دنيا، أم مريد أبديّة؟

أطلق القرمانلي ضحكة منكرة في خلوته في ذلك اليوم فاندفع إليه العسس لأن البلهاء ظنّوا ضحكته يومها صرخة. صرفهم بصرامة ليعود إلى ساحة الذهب المجبول بالجوهر. ليعود إلى رحاب معبود الأجيال وبرهان الحياة الدنيا. عاد يتأمّل العلبة المدجّجة بنفيس الجوهر ليتساءل عن النفع الذي يستطيع أن يجنيه إنسان الدنيا من هذه التحفة. تساءل عن النفع الذي يستطيع هو، يوسف باشا القرمانلي، أن يجنيه من الجمال. تساءل عما إذا كان الجمال جمالاً إذا تجرّد من النفع. تساءل عن رسالة الجمال ورسالة النفع. تساءل عما إذا كان الجمال يستطيع أن يغنيه عن الحاجة إذا كانت خزائنه خاوية من المال. تساءل بصوت مسموع وهو يحدّق في فصوص الآية التي ترقد بين يديه: الجمال أم المال؟ يستطيع بالطبع أن يرهن علبة السعوط للحصول على المال، أو أن يعرضها للبيع أيضاً في نهاية المطاف. يستطيع أن يفعل ذلك لو لم يكن ملكاً. يستطيع لو لم يوجد في عرف القبائل شيء اسمه العار! وهو ما يعني أن الملوك ملوك بالمال لا بالأحجية التي يسميها البلداء جمالاً! الملوك ملوك بالسلطان، ولا وجود لسلطانٍ بلا مال. يستطيع السلطان أن يستغني عن الجمال، ولكن السلطان لا يملك الحقّ في أن يستغني عن المال. فهل أراد به قنصل الدنمارك خيراً بعطيته هذه أم أراد به شرّاً؟ هل أراد أن يثني على ذوقه الجمالي باختيار التحفة، أم شاء أن يوقظ فيه الإحساس بالجمال؟ ألا تعني هذه الهديّة الترجمة الحرفية لوصيّة

المسيح التي يروق لهؤلاء النصارى أن يردّدوها كلما طالبهم بدفع الأموال والتي تقول: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان؟»؟ ألا تعني هذه التحفة رسالة مشفّرة أراد بها الوغد أن يمتحن مواهبه العقلية بفكّ طلسمها؟ بلى. بلى. هذه التحفة رسالة. بل إنها شرَك مثلها مثل المعدن اللئيم تماماً. ها ـ ها ـ ها..

سوف يخيّب ظنّ القنصل اللئيم. سوف يلقن الوغد درساً. سوف.. في لحظة جنونية انقضّ الباشا على العلبة ليرمي بها أرضاً. رمى بها على البلاط وهجم عليها ليدوسها بحذائه. داس وداس وداس فتناثرت حبيبات الجوهر فتعرّى الجوهر عن الجوهر. تعرّى الظاهر الذي توجّب أن يكون باطناً، عن الباطن الذي توجّب أن يحتلّ مكان الظاهر. تنحّى القناع عن الوجه فتبدّى ألق الإغواء كأنه الوميض في مقلة الحيّة.

تناول الباشا الحطام ودسّه في الغمد ليأمر بإعادته إلى القنصل الدانماركي محطّماً!

ويقال إن الإهانة شلّت قنصل هذه الدولة فاعتزل في بيته إلى أن هرع لنجدته قنصل البرتغال بتأويل للأحجية لم يخطر له على بال. حدّثه هذا الداهية قائلاً إن المال هو معبود السلطان، لا الجمال. إن السلطان شهوة. والشهوة مارد إذا استيقظ في النفس أمات الإحساس بالجمال!

أنصت إليه القنصل الشقيّ بذهول قبل أن يستدرك ليهدي للباشا مبلغاً سخيّاً من المال قدره خمسة آلاف فلوران، ليحذو بقية القناصل حذوه فيهديه البرتغالي ألفاً، والسويدي ثلاثة آلاف، والإسباني ألفين، والهولندي ألفين وخمسمائة!

لقد أغدق سلطان الحظوظ أموالاً سخيّة على الباشا مقابل تضحيته بالجمال!

55

أمام سواحل طرابلس استمرّ استعراض العضلات.

في تلك الأثناء استبدلت وزارة البحرية الأمريكية قائد الأسطول المصاب بفقدان حاسّة السمع بقائد آخر مصاب بداء أخطر هو فقدان حاسّة أعظم شأناً من حاسّة السمع هي حاسّة الحدس!

ذهب القبطان برّي بمتاع الحُسن الذي دشّن به أسطوله فكان سبباً في سفك كمٍّ لا يُستهان به من الدماء ليخلفه في ريادة الأسطول الربّان مورس الذي طعن في كفاءاته سلفه برّي، فقال إنه لن يفلح في اقتحام الفرسخ المتبقّي إلى عاصمة العدوّ.

ويبدو أن هذا التعليق الساخر هو ما استفزّ الربّان الجديد فقرّر أن يخيّب ظنون سلفه فقام بمحاولة شاء لها أن تكون شهادة بطولة، ولكنها انقلبت مغامرة يائسة زعزعت السلم بين القارّات، وجرّت على الولايات المتحدة الوليدة عدوّاً جديداً ضحّت بقرابين جمّة في سبيل تحييده، قبل أن تنقلب تلك المجازفة سحراً على الساحر، ليجد الربّان مورس نفسه في غياهب الأسر، بدل أن يجد على رأسه أكاليل المجد!

فقد تسكّع مريد البطولة هذا بأسطوله بين مرافىء أسبانيا وفرنسا وإيطاليا وسراقوزة ومالطا زمناً طويلاً ترفيهاً عن النفس أوّلاً، وانتظاراً لدوره في تولّي أمر طرابلس ثانياً؛ لأن مقارعة الطرابلسيين صارت

حجّة الظامئين إلى المغامرة، بل وذريعة كلّ باحث عن الصيت في أوطان ما وراء المحيط. وكان يروق لموري أن يردّد في لحظات تجلّيه في حانات المرافىء مقولة صارت في فمه وصيّة بسبب التكرار تقول: «بعث بحريّتنا من عدم أعجوبة يجب أن نعترف بفضلها لباشا طرابلس، ممّا يعني أنّنا مدينون لفلاحنا لأعدائنا، لا لأصدقائنا!».

ويقال إن الشطر الأخير من تلك الوصيّة مستعار حرفياً من مقولة وردت على لسان الرئيس جفرسون، هذا في حين نسب عدد آخر من البحّارة الوصيّة إلى بنيامين فرانكلين، وليس إلى جفرسون.

ويبدو أن السنوات التي قضاها هذا المحارب المتعطّش للمجد في ربوع المرافىء الأوربية المسكونة بصنوف الرذائل، كانت كفيلة بأن تلعب في حياته ذلك الدور الذائع الصيت، الذي لعبته «كابويا» في مسخ جيش أعظم أبطال التاريخ قاطبة وهو هانيبال، عندما أدخل جُنْده أسوار تلك المدينة أبطالاً طلباً للبيات الشتوي، ولكنه خرج بهم من مواخيرها حطاماً شبيهاً بالرجال ليُهزموا في أوّل معركة عقب الخروج!

موري أيضاً هُزم في أوّل مواجهة من حيث ظنّ أنه حقّق النصر. ويبدو أن القدر الذي لا يغتفر الاغتسال في مستنقعات الرذائل هو الذي دسّ له تلك الباخرة الخفيّة التي أطلق عليها مؤرخو البحرية الأمريكية اسم «بولينا» ليسرفوا في الحديث عن هويّتها المجهولة: فتارةً هي سفينة طرابلسية (وهي رواية منقولة عن موري نفسه)، وتارةً هي تركية، وتارة ثالثة هي تونسية، وأخيراً هي ملكيّة شخصية لتاجر يهودي يُدعى فالنزينو ادّعى الأمريكيون أنه طرابلسيّ، في حين أصرّ باي تونس على أنه مواطن تونسي يقيم في جربة.

لقد أمر الربّان مورس المستر «ستريّت» (قبطان البارجة الحربية «انتربرايز» الذائعة الصيت) بمطاردة «بولينا» المشبوهة ما إن أقلعت من مالطا (قادمةً من الشرق الأدنى) في طريقها إلى طرابلس لإنزال بعض الركاب، فما كان من ربّان «انتربرايز» إلاّ أن قطع الطريق على الباخرة قبل أن تبلغ مرافىء جربة. وكان بإمكان الحادثة أن تندرج تحت خانة الخطأ الشائع الذي لم يحدث أن استعصى على العلاج يوماً لولا استكبار الربّان مورس من ناحية، ولولا تعدّد الآباء الذين ادّعوا أبوّة هذا السليل الشقيّ من ناحية أخرى!

فالسلطات العثمانية تبنّت ملكيّة السفينة وأوكلت للقنصل العثماني في مالطا أمر متابعة القضية، في حين اعتبر باي تونس الاستيلاء على «بولينا» عدواناً سافراً على بلاده، فهدّد بقطع العلاقات تمهيداً لإعلان الحرب. أمّا الأمريكيون فاحتكموا إلى القضاء برفع القضية إلى محكمة الأدميرالية في جبل طارق وسط اهتمام وزير البحرية الأمريكية والرئيس جفرسون والرأي العام الأميركي الذي نبّه في الصحف، وكذلك في جلسات الكونغرس، على نقطة تتّهم الكومودور مورس بالطيش مؤكّداً أن الخطأ ليس هو الخطيئة، ولكن التسرّع هو الخطيئة؛ فلو تريّث مورس قليلاً، ولم يأمر بمصادرة حمولة السفينة ليبيعها في مرافىء الدول الأوربية التي اعتاد أن يرتاد حاناتها زمن اللّهو، ولو تحلّى بالصبر ولم يأمر ببيع السفينة نفسها، لهان الأمر، ولأمكن ردّ حسام التهوّر إلى غمده قبل أن يطعن قلب فالنزينو اليائس تلك الطعنة المميتة في رحابٍ اعتبرت دائماً حرماً هي رحاب الكابيتول! حدث هذا كلّه في وقتٍ كان فيه باشا طرابلس

يفرّك يدي الشماتة وهو يتفرّج على هذه المسرحية المثيرة التي نسج خيوطها (بعون الأقدار بالطبع) من وراء ستار!

ويقال إن يوسف باشا هو من أوصى فالنزينو الشقيّ باللجوء إلى القضاء الأميركي لاسترداد ثروته الضائعة، وفي رواية أخرى أنه تردّد في السير في هذا النهج لولا تزكية باي تونس لرأي باشا طرابلس. أمّا الرواية الثالثة فتقول إن فالنزينو لم يكن ليقتنع بالارتماء في أحضان المنفى لولا مرارة يأسٍ عاشه متنقّلاً بين مالطا والأستانة وطرابلس وجربة وعاصمة تونس ومضيق جبل طارق بلا جدوى!

سلّم فالنزينو أمره لغول المحيط أخيراً ليطارد الحقّ المفقود في بطن الخصم: في فيلادلفيا! هناك رفع الدعوى مطالباً بثمن السفينة أوّلاً، ثمّ بثمن حمولة السفينة ثانياً، ثمّ بنفقات قدومه إلى أمريكا ثالثاً، ثمّ بنفقات بقائه في أمريكا رابعاً، ثمّ بثمن الزمان الضائع الذي لا يقدّر بثمن! ولمّا كان جهل الساسة في أمريكا بعقليّة اليهود الحسابية مطبقاً حتى ذلك التاريخ، فقد أدهشت قائمة هذه الأثمان المقدّمة من السيد فالنزينو وزير البحرية (الذي تلقّى التظلّم)، كما أدهشت وزير الخارجية الذي ذهب لمناقشتها مع الرئيس جفرسون الذي لم تدهشه فحسب، ولكنه استنكرها بشدّة قبل أن يأمر بعرضها على الكونغرس الذي اعتبرها استفزازاً صفيقاً خليقاً بإدراجها في خانة ما عُرف وقتها في تقاليد هذه المؤسسة السياسية الداهية باسم «الدوّامة»! وهو مصطلح لا يمكن أن يعني في لغة الإدارة الأحدث سوى الطواف في متاهة أبدية يفضّل الدهاة الموت على الاستسلام لها. ويبدو أن الشقيّ فالنزينو فضّل هذا الخيار أيضاً بدليل أن مقامه

بهذه البلاد لم يدم طويلاً عندما عثر عليه الخدم في أحد أروقة الكابيتول غارقاً في مستنقع من دمّ ونصل اليأس مغروساً في قلبه!

أما مورس فعاد ليستعرض عضلاته أمام شطآن طرابلس في محاولة لتحقيق بطولة من شأنها إجبار يوسف باشا على قبول الشروط النائمة في جعبة كاثكارت، ولكن الطبيعة ما لبثت أن تدخّلت هنا أيضاً لتجبر مورس على التراجع. فقد هبّت عواصف عنيفة أشبه بالإعصار استمرّت أياماً لتحطّم صواري عدد من البوارج، فاضطرّ قائد الأسطول العودة إلى مالطا لترميم ما أفسدته مشيئة الطبيعة. ولكنه عندما عاد لاحتلال مواقع الحصار مرّة أخرى لم يتجه إلى سواحل طرابلس، ولكن الأقدار قادته ليحلّ ضيفاً على خصمه باي تونس دون أن يعلم هو نفسه سرّ هذا التحوّل.

قيل فيما بعد أنه تلقّى دعوة من وليم إيتون القنصل الأمريكي في تونس، وتردّدت شائعة أخرى تقول إنه ذهب إلى هناك للقاء معشوقة قديمة عرفها يوماً في سنوات التسكّع في ميناء مرسيليا ثمّ انتقلت لتعيش في تونس. وفي رواية ثالثة أن هذه المعشوقة لم تذهب إلى تونس عندما انتقلت من مرسيليا، ولكنّها استقرّت في جربة. أي إن مورس المسكين ذهب ليتحدّى الباي في عقر داره جرياً وراء هيلين المزعومة التي تقول الأساطير إن فرعون مصر استبقاها في دياره دون أن يخطر ببال ملوك اليونان أنّهم إنما أفنوا أبطالهم وأبطال طروادة معهم لا لاسترداد الحسناء المفقودة، ولكن في سبيل هيلين موهومة لا وجود لها وراء أسوار طروادة!

مورس أيضاً لم يجد في ربوع تونس حسناءه المزعومة، ولكنه

وجد هناك قدره في انتظاره. ذلك أن الباشا أثار قضية «بولينا» ما إن علم بوجود مورس وهدّد بالحرب فلم يجد مورس مفرّاً من الاستسلام لمطالب الباي حمّودة بشأن التعويض. تمّ الاتفاق على حصر الخسائر، ولكن الربّان فوجىء بتضمين القائمة خسائر الأرواح إلى جانب الخسائر المادية مما رفع المبالغ إلى أرقام فلكية.

أبدى دهشته فواجهه الباي بعبارة صغيرة زلزلته تقول: «ودم المواطن فالنزينو هل يذهب هدراً؟». حاول مورس أن يتنصّل من مسؤوليته من دم إنسان اختار قدره بنفسه فأجابه الباي قائلاً إن هذا الإنسان لم يختر قدره، ولكن من تسبّب في ضياع ماله هو المسؤول عن قدره. سكت مورس بحثاً عن حجّة. فتساءل الباي: «أم أنّكم في أمريكا لم تعلموا بعد أن قلب الإنسان في ماله، وكلّ من خسر ماله لا بدّ أن يخسر نفسه إن لم يكن عاجلاً فآجلاً؟». لحظتها استنجد مورس بالكتاب المقدّس ليستشهد بوصيّة يوحنّا التي تحذّر من حب العالم وحبّ الأشياء التي في العالم، لأن حبّ العالم يخلي القلب من محبّة الرب. هنا تكلّم الباي فقال إن هذا يعني أن مورس ليس في قلبه ذرّة من محبّة الربّ، لأنه استولى على ممتلكات الآخرين لينتفع بها دون وجه حقّ. دام الجدل طويلاً قبل أن يفلح مورس في نيل موافقة الباي على الرحيل بعد أن تعهّد بدفع المبالغ المستحقّة. ولكنه ارتكب خطأً مميتاً عندما تجاهل مراسم توديع الباي وقطع اتصالاته مع وكيل «بولينا» ليستقلّ عربة أخرى للوصول إلى الميناء. رأى الباي في تصرّفه إهانة لشخصه، ونيّة مبيّتة للتنصّل من تعهّداته، فما كان منه إلاّ أن أصدر الأمر لرجاله باعتقاله!

صاحب الأحلام البطولية وجد نفسه رهينة في يد صاحب تونس، يقبع في أقبية أحد السجون منتظراً الفِدْية من حكومته. ولكن الحكومة التي أغضبها أمر لجوء الربّان إلى مرافىء دولة أجنبيّة دون موافقة رسمية مسبقة، استكثرت المبالغ المالية التي تعهّد بدفعها فلم تجد مخرجاً قانونياً غير إحالة الأمر إلى الكونغرس. هناك تلقّف تنّين الإدارة الكرة ليسقطها بركلة واحدة في جوف الدوّامة ليتحوّل مورس ضحيّة بعد أن كان في المهزلة جلاّداً. ذلك أن الدوّامة كانت أَحْيَل حيلة ابتكرها الدهاة لتحقيق الخلاص: خلاصٌ إن لم يكن بقضاء الحاجة فبالقضاء على صاحب الحاجة!

56

يروي مؤرّخو البحرية الأمريكية أن المستر وليم إيتون لم يبدّد وقته هباءاً منذ تمّ تعيينه قنصلاً للولايات الوليدة لدى عاهل تونس. فقد استعار هذا الداهية دور عرّافة معبد دلفي في قراءة الغيوب والتنبّؤ بالمستقبل فقام بزيارة أحمد القرمانلي في منفاه بتونس، وفي رواية أخرى، أثناء إقامة وريث العرش الشرعي الطريد في مالطا، متنكّراً في أسمال أحد الدراويش ليفاتحه في تدبير مكيدة للإطاحة بشقيقه الغاصب ويستعيد بمقتضاها العرش؛ لأنّ الإنسان ليس في حاجة لأن يستعير مواهب العرّاف، على حدّ تعبيره، لكي يدرك أن السلام الذي يُشترى بالمال وَهْمٌ لا يعوّل عليه إلاّ البلهاء. وإذا كانت الأمم الأوربية قد ارتضت لنفسها هذا الدور المهين فإن الولايات المتحدة التي خلقت نفسها بنفسها وحقّقت أعجوبة الاستقلال من سلطان الإنجليز، لم تقهر العدم لتسلّم رقبتها في قبضة حفنة من القراصنة!

ولهذا فهو، وليم إيتون، لا يرى أي نفع على المدى البعيد في التفاوض لا مع باشا طرابلس وحده، ولكن مع كل باشاوات ودايات وبايات وحتّى أباطرة الشمال الأفريقي، لأن السلم الذي ندفع ثمنه مالاً ليس هشّاً فحسب، ولكنه صفقة لا أخلاقيّة!

ويقال إن إيتون أبرم عهداً سريّاً بينه وبين أحمد بك يومها قضت بنوده بأن تلتزم الولايات المتحدة بتزويده بالأموال والذخيرة والعتاد الحربي ليتسلّل البك بأعوانه الكثيرين المنفيين من جهة الحدود المصرية، في حين تتعهّد أمريكا بدعم الحملة بمدافع أساطيلها من جهة البحر. كما قيل أيضاً إن المراسلات بينهما استمرّت طوال الأمد الذي زعزع الحياة في المنطقة بداية بحملة نابليون، ثمّ حربه مع الإنجليز، ثم مع العثمانيين، ونهايةً بحرب الأرناؤوط مع بقايا المماليك في مصر.

ويوم أُبلغ القنصل إيتون بنبأ اعتقال الربّان مورس فقد صوابه، على ما يروي المؤرخون، بل وخانته سورة الغضب إلى حدّ كشف فيه عن نواياه المبيّتة في غزو المملكة الطرابلسية من الشرق لأحد الأعوان، لأنه على يقين، كما عبّر، أن اعتقال مورس عار مدبّر بإيعاز من باشا طرابلس، لأن المدعو فالنزينو (الذي اتخذه باي تونس ذريعة لارتهان قائد الأسطول الأمريكي) مواطن طرابلسي في حقيقته ولم يكن يوماً مواطناً من رعايا تونس كما يدّعي الباي حمّودة. وهو ما يعني أن الفضيحة ما هي إلاّ مؤامرة طرابلسية نسج خيوطها الكريهة يوسف باشا من وراء ستور واستعان في تنفيذها بصديقه الباي. ولا سبيل لردع هذه العصابة إلاّ الاحتكام إلى اللغة الوحيدة التي لم تخذل الأخيار في أي يوم وهي: السلاح!

في ذلك اليوم الذي تلقّى فيه القنصل إيتون النبأ هرع إلى قصر الباي ليحتجّ رسمياً باسم الولايات المتحدة الأمريكية على الإهانة، متّهماً الباي (في سورة الغضب) تهمة خطيرة في عرف الأخلاق قبل أن تكون في عرف التقاليد الدبلوماسية وهي: الإخلال بكلمة الشرف! (لأن إيتون ادّعى أن وزير خارجية الباي عاهده بضمان سلامة قائد الأسطول قبل أن ينزل المرفأ). هنا غزا الشحوب سيماء الباي، ولكنه كتم غضبته ليقول ببرود وهو يتلهّى بتمسيد شاربيه: «إذا كان صاحب الخارجية قد عاهدك بضمان سلامة مخلوق أجرم في حقّ هذه المملكة، فلا أظنّ أن إيداع المجرم المعتقل إلى أن تثبت براءته هو عمل من قبيل خيانة العهد!». ردّ أيتون في سورة الانفعال قائلاً إن مورس قائد أسطول الولايات المتحدة الأمريكية ولم يكن يوماً مجرماً، فما كان من الباي إلاّ أن أجاب بذات البرود: «ماذا نسمّي مخلوقاً دفع مخلوقاً آخر إلى الهلاك إن لم يكن هذا الفعل إجراماً؟ أم إن هذا الفعل هو بطولة في عرفكم؟». صرخ إيتون بأعلى صوت: «هذا تزوير متعمّد للحقيقة، لأن سعادة الباي يعلم أن المدعو فالنزينو نحر نفسه بيده ولم ينحره مورس ولا الرئيس ولا الكونغرس. والموت، كما قد يعلم سعادة الباي، لا يُعدّ في عرف القانون هلاكاً إذا حدث خياراً!». حدّق فيه الباي بفضول قبل أن يقول: «لم تكتفِ برجمي بالكبائر منذ قليل عندما اتهمتني ظلماً بالإخلال بكلمة شرف لم أهبها، ولكنّك تصرّ على امتحان صبري فتحدّثني بمنطق بهلواناتكم الذين يترافعون على القتلة ليذرّوا الرماد في عيون الشرفاء في ساحات القضاء بصنوف أكاذيب تقلب هؤلاء الأبالسة ملائكة على طريقة شيشرون! اعلم إذن أن استعراض عضلات اللسان لن يقنع أحداً في دياري. كما أريد أن أضيف إلى

هذه الوصيّة وصيّة أخرى تقول: المستر إيتون سيذهب إلى المرفأ فور خروجه من رحاب هذا القصر ليعود إلى ما وراء المحيط مطروداً من دياري. كما أوصيه أيضاً بألا يفكّر في الخروج من حدود بلاده أبداً قبل أن يتعلّم كيف يخاطب الملوك!».

رَحَل إيتون إلى بلاده في وقتٍ تزامن مع إحالة زميله في الجزائر أوبراين على التقاعد ليعيّن كاثكارت المطرود من طرابلس، خلفاً له في هذا المنصب الذي لم يُكتب له أن يتبوّأه بسبب رفض داي الجزائر استقباله في بلاده، مبرّراً هذا الرفض بسوء سمعته في طرابلس. أمّا في مرّاكش فظلّ منصب القنصل الأمريكي شاغراً منذ موقف الإمبراطور من حادثة السفينة الطرابلسية «مشهودة» تضامناً مع يوسف باشا.

في ظلّ هذا التوتّر المزموم الذي لم تشهد الولايات الوليدة له مثيلاً، عاد المستر إيتون ليرتدي بزّة جنرال مزوّرة تمهيداً للقيام بانتقامه من خصم اعتبره دائماً حجر الزاوية لكلّ بلايا الشمال الأفريقي، ألا وهو يوسف القرمانلي، مقرّراً بذلك أن يضع موضع التنفيذ وصيّة الحكيم بنيامين فرانكلين عن استخدام ورقة الورثة في إلقاء الرعب في نفوس الطغاة!

(نهاية الرواية الخامسة من سداسية «الأسلاف والأخلاف» وتليها الرواية السادسة)

غولديفيل (الريف السويسري)
يونيو 2008م

مُؤلّفَاتُ إبْراهِيم الكُوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.
2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983م.
3 ـ شجرة الرتم (قصص) 1986م.
ـ رباعية الخسوف 1989م.
4 ـ البئر (رواية).
5 ـ الواحة (رواية).
6 ـ أخبار الطوفان الثاني (رواية).
7 ـ نداء الوقواق (رواية).
8 ـ التبر (رواية) 1990م.
9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990م.
10 ـ القفص (قصص) 1990 م.
11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.
12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.
13 ـ ديوان النثر البرّي (قصص) 1991م.
14 ـ وطن الرؤى السماوية (قصص) 1991م.
15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.
16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994م.
17 ـ الفم (رواية) 1994م.
18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.
19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.
20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995م.
21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997م.
22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997م.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997م.

24 ـ الدمية (رواية) 1998م.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998م.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29 ـ ساسِرٌ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31 ـ ساسرٌ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلبال، 1999م.

32 ـ ساسرٌ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلّب، 1999م.

33 ـ وصايا الزمان 1999م.

34 ـ نصوص الخلق 1999م.

35 ـ ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة (رواية) 2000م.

37 ـ نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38 ـ أبيات (نصوص) 2000م.

39 ـ بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40 ـ رسالة الروح.

41 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء1 أوطان الأرباب 2001م.

42 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء2 أوطان الأرباب 2001م.

43 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء3 أوطان الأرباب 2001م.

44 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45 ـ بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء5.

46 ـ منازل الحقيقة 2003م.

47 ـ أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48 ـ لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49 ـ البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50 ـ أنوبيس (رواية) 2002م.

51 ـ الصحف الأولى (أساطير ومتون 2004م).

52 ـ مراثي أوليس (رواية 2004م).

53 ـ صحف إبراهيم (متون 2005م).

54 ـ المحدود واللامحدود (متون 2002م).

55 ـ ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج6، 2005م.

56 ـ ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005.

57 ـ لون اللعنة (رواية) 2005م.

58 ـ هكذا تأمَّلَتْ الكاهنة ميم (متون) 2006م.

59 ـ ملحمة المفاهيم ج3، (موسوعة البيان) ج7، (2006م).

60 ـ نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م.

61 ـ في مكانٍ نسكنه.. في زمانٍ يسكننا (رواية) 2006م.

62 ـ يعقوب وأبناؤه (رواية) 2007م.

63 ـ قابيل.. أين أخوك هابيل؟! (رواية) 2007م.

64 ـ الوَرَم.

65 ـ يوسف بلا إخوته.

مؤلفات إبراهيم الكوني النظرية

66 ـ نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

67 ـ ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

68 ـ ملاحظات على جبين الغربة 1974م.

YOUSUF WITHOUT HIS BROTHERS

رواية
NOVEL



يُوسُف بلا أخوتِه

ابتسم الفردوسيّ فأضاف نابليون :

ـ ولكنّ الرأي ، الّذي يقول إنّ حربنا مع يهوذا الإسخريوطيّ هذا هي حرب بين شكسبير ومونتين ، لا يروقني !

ـ لماذا ؟

ـ لأنّ مونتين عقل ، أمّا شكسبير فروح . والعقل طرف أضعف إذا دخل في نزاع مع الروح !

سكت . أضاف :

ـ أنا أعبد شكسبير آملاً أن يعبد الإنجليز مونتين نيابة عنّي !

أطلق ضحكة مرّة أخرى . سكت لحظة . قال :

ـ على الفرنسيّين أن يعلموا أنّ الإنجليز لن ينتصروا أبدًا حتّى لو كسبوا ألف معركة وذاقوا حلاوة ألف نصر . هل تدري لماذا ؟ لأنّ الأقدار حكمت عليهم بمعقل هو متاهة إذا قورن بالبرّ وهو البحر !

تطلّع إليه الفردوسيّ بغموض قبل أن يسأل :

ـ ماذا يحدث لو قرّروا أن يحاربوا في اليابسة يومًا ؟

حدّق نابليون في عيني جليسه طويلاً قبل أن يجيب :

ـ آمل ألاّ أضطرّ للدخول معهم في حرب على اليابسة !

من الرواية




ISBN 978-9953-36-258-0
9 789953 362588



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عبد بن سالم، ص.ب: ١١-٥٤٦٠
هاتفاكس: ٧٥٢٣٠٨/٧٥١٤٣٨
http://www.airpbooks.com